ابتسام التريسي

جبل السماق

الخروج إلى التيه

الرواية الفائزة بجائزة المزرعة ـ ٢٠٠٦

جائزة المزرعة للإبداع الأدبي للعام ٢٠٠٦

مدونة ابو عبدو

5885

ابتسام إبراهيم تريّسي

جبل السماق

«الخروج إلى التيه»

رواية

جبل السماق
«الخروج إلى التيه»

رواية: إبتسام إبراهيم ترّيسي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى: ٢٠٠٧

دار العوام

سورية ـ دمشق ص . ب: ٥٦٥٨

هاتف: ٥٦١٥٦٩٦

تم التنفيذ بالتعاون مع

دار الطليعة الجديدة

سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٣٤٤٩٤

تلفاكس: ٢٣١١٣٧٨

صمم الغلاف: جمال سعيد

مقدمة

إذا كانت الجوائز الأدبية لا تصنع الأدباء ولا تخلق المبدعين، فإن لها فضلا كبيرا في الكشف عن المواهب الأدبية وإضهارمواطن الإبداع عند الموهبين، بما تثيرهم من تنافس أدبي بين المتسابقين يوقظ أقصى درجات الموهبة والمعرفة لدى المبدع، فتنتقل تلك الموهبة من حال الكمومن إلى حال الفعل ومن الأفق الفردي الضيق إلى ا لفضاء الإجتماعي والإنساني الرحب .

من هنا كانت أهمية جائزة المزرعة للإبداع الأدبي و الفني التي يقدم نفقاتها كافة المهندس يحي القضماني المقيم في دولة الإمارات العربية المتحدة والذي جعل من الأخذ بيد أصحاب المواهب الأدبية الصاعدة هاجسا له ،وهدفا من أهداف جائزة (المزرعة) التي سميت كذلك تيمنا بمعركة المزرعة ٢ـ٣ آب ١٩٢٥ إحدى أهم معارك الثورة السورية الكبرى.

ولقد درجنا في لجنة الإشراف على الجائزة على تقليد يعطي الجائزة صفة الإنتشار الواسع هو طباعة المخطوط الفائز بالمرتبة الأولى في كل جنس من الأجناس الأدبية التي تشتمل عليها الجائزة.

وقد منحت لجنة تحكيم الرواية لهذا العام المشكلة من الأدباء السادة "أحمد يوسف داود ، محمد كامل الخطيب ، ممدوح عزام" المرتبة الأولى لرواية جبل السماق للكاتبة ابتسام التريسي" وجاء تقرير لجنة التحكيم " رواية جبل السماق تؤرخ لاوضاع سورية في الخمسينات والستينات عبر ما يرويه بطلها من ذكريات حماسية وهو معلم مدرسة بدأ بعثيا وتنقل بين محافظات حلب واللاذقية ودرعا ودمشق وغيرها وقد قدمت الرواية عرضا بانوراميا شبه توثيقي ـوعلى سوية فنية عالية للأحوال الإجتماعية والأوضاع القوى والشخصيات السياسية وما أصاب أكثرها من تحولات خلال تلك الفترة"

ولجنة الإشراف إذ تشكر للأدباء أعضاء لجنة التحكيم اهتمامهم ودقتهم في التحكيم، تتمنى للفائزة مزيدا من العطاء على دروب الإبداع الأدبي .

لجنة الإشراف

وذكرتُ ابراهيم يحملُ ذاته

ويلوك أطراف الظلامْ .

وذكرتُ مخبأهُ وسطح البيتِ

والحجرَ الذي يمشي على

أعماقه

ظلاً ويفرشها

تخوماً للغمامْ .

وذكرتُ أتربةً على قدميه

في تلك البراري

هل سنحتطبُ الترابَ

ومن سيحمل نارها حتى . . القتامْ .

يا قلبَ ابراهيمَ . . مالكَ والمرايا ؟

من يصادقُه السوادُ

لسوف يبدو عارياً حتى العظامْ .

يا ليتني كيراً لهاتيك الفصولِ

وسحنةً للفحمِ

ينفخني الزمانُ كما السخامْ .

أضعُ الغرابةَ مثلما اللاشيء

في روحي وأسألُ

عن صدى كينونةٍ

وتمرُّ بي ريحٌ على رأسي

كما لو مرّ في أطرافها

خوفٌ . . . ونامْ .

هل باردٌ فحمُ الكلامْ ؟

وغصصتُ مثلك يا ابتسام .

شاهر خضرة

الإهداء:

إلى أبي
مرّة أخرى
دائماً

ابتسام

تقديم:

وقعت في عدّة خيارات صعبة وأنا أكتب عنك، هل أكتبك بلسانك؟ أم أعيدك إلى القلب مكانك الدائم وأحدّثك؟

الموت المشبع بانكساراتك رفض الإجابة!

هذا البياض يخيفني، هناك مساحات لا بدّ أن تكتبها أنت، هل تستعير لغتي؟

أيّها الغريب، إلى أين أنت ذاهب؟

أمامك ظلمة، ووراءك خوف، وفي داخلك قفص!

(أبو حيّان التوحيدي)

منذ انزلقت عجلات حافلة "أبو النوري" على الإسفلت الطري، فكّر باغتيال ذلك الماضي البعيد لطفولته البائسة بالنسيان! لكنّ الذكريات حاصرته طوال المسافة إلى حلب، وجه أبيه الغاضب وهو يصرخ به: (انفخ جيداً.)

هيئته وهو يدعو عليه: (يجعل ألفكم ماش.)

الحديد الحامي ينطفئ في ماء الجرن، ونارٌ تتقد في عينيه، تدمعان قهراً وغيظاً من نصيبه في الحياة الذي رماه وراء الكير أجيراً عند أبيه الضخم المتعنت.

كلّ الصور تكرّ وراء بعضها، تحضره بقسوة وكأنّها حدثت الآن. والده يقطّب حاجبيه وهو ينهره بشدّة:

(ما شاء الله، ابن الأكابر لا يريد أن يعمل أجير حائك، ولا أجير حلاق، ومن أين آتي لك بصنعة تناسبك؟).

كالومض تمرق تلك الصورة الباهتة لأمه وهو يبتسم خطفاً: (نعم، عين العقل اختيارك، الخسروية، تصبح عالماً، شيخاً، ذلك ما أتمنّاه حقاً).

يحاول حبس الدمع دون جدوى، فيطلقه من أسر الجفن علّه يغسل بقايا تلك الذكريات المحزنة لطفولته.

وحده وجه خالته فاطمة يظهر مبتسماً يشجعه على المضي فيما عقد العزم عليه.

ترتجف ضلوعه، يتذكر كم من الدفء غادره، وكم من الصقيع يسكن الروح، تذكّر أنّه كان منذ سنوات يستقبل ريح

الشمال بصدر مفتوح، يُقبل على أملٍ سيغدو سراباً كلّما مرّت السنوات راكضة نحو حتفها.

تجذبه (قرنة الحائك[1]) بريحها المدوّمة الباردة، فيجد نفسه بين أحضان أشجار تتعرّى لخريف قادم. يأسره الحنين إلى مرابع طفولته، فيمسُّ الأوراق المذهبة مسّاً خفيفاً وهي تتهاوى ببطء نحو تراب يمتزج بذكرياته الجميلة، تلفظه الأزقة الموحلة، غضب والده الدائم، ذراعان فارغان من الحنان لأمه، فيجد نفسه مرمياً في بطن حافلة مهترئة، تصعد به الدروب الوعرة إلى قرى منسية، فُرض عليه أن يكون معلّماً فيها.

تلك التنقلات المرّة رسّخت في روحه قلقاً مزمناً، وفي جسده هزالاً، وأيقن أنّ الحبّ يقتحمه بإصرار مستميت، فاستسلم لموته راضياً.

---

[1]- قرنة الحائك: مكان في الطرف القبلي الغربي من أريحا ، ريحه شديدة البرودة .

أعتاب الغربة

أخيراً أصبحتُ معلّماً، هل يمكن أن يصبح الحلم حقيقةً؟

منذ البداية صممتُ أن أصل إلى هدفي، فمضيت نحو "التجهيز الثالثة" بعد خدعة دراستي في "الخسروية"! أحسست بذلك الطائر العنيد ينتفض في ضلوعي ملتمساً أفقاً رحباً بعيداً عن تلك الأزقة الضيّقة بسقفها الرمادي الواطئ، لون الفحم، الكير، ملابسي، وتلك النّار!

لم تطل إقامتي عند أخي محمّد، كنت أبحث في أزقة "سوق الصغير " عن مكان أطلق منه أحلامي لتلتحم بالزرقة. كان عليّ أن أحضر التموين للبيت قاطعاً مسافات طويلة إلى مراكز " الميرة " حاملاً علبة صفيح تغوص بحدّة في لحم كتفي، وكلّما طالت المسافة، اتسعت الهوة بيني وبين حلمٍ تسير الروح خلفه عكس خطوات الجسد. تسلل التشاؤم ناخراً رأسي بأفكار قاسية (عليكَ تأمين حاجيات البيت مقابل نومك وطعامك! أمنَ العدل أن تقضي عمرك في خدمة الآخرين للوصول إلى هدفك؟) تسرّب اليأس إلى أعصابي مراراً، كنت أبات لياليّ أدفع الكوابيس بعيداً وهي تتمسك بي.

لم يفاجئني ذلك التنافر في طباع المدرسين، بل أثار حماسي حيناً وأصابني بالإحباط حيناً، لكنّني استطعت أن أنتقي من ذاك الكم المتنافر مثلاً أعلى، بقيت زمناً طويلاً تحت تأثير شخصيته المتفردة. كنت أرى في زكي الأرسوزي علماً يهزني حضوره، كما النشيد الوطني كلّ صباح، وهذا ما جعلني أتمسك برأيي أنّه الوحيد الذي يصلح زعيماً ومؤسساً لحزب البعث. ورغم الخلاف بيني وبين الأستاذ أدهم

مـصطفى، والأسـتاذ فـايز حـول أهليـة عفلـق لـذلك المنـصب إلاّ أنّـي استمريت في الدفاع عن تلك المبادئ الّتي اقتنعت بجوهرها.

لم أنسَ مـع مـرور السنوات تلـك الفـترة المشرقة في حيـاتي المليئـة بحماس الشباب واندفاعه، أذكر كم من المظاهرات الفاشلة خضت وأنا أعتقد أنّها الطريق لنيل الحقوق الضائعة، مظاهرة للصراخ (سنعيد اللواء السليب) واللواء أصبح طي النسيان!

مظاهرة للصراخ (لا لتعديل الدستور). لكنّ شكري بيك عدّل الدستور.

مظـاهرة للـصراخ (بـدّنا نحـارب). لكـنّ المكاتـب الّـتي فُتحـت للمتطوعين، لم تعطِ للمتدربين ولا حتّى عصا، اكتفت بالأوامر (استرح، اسـ تاااا...عد... اسـ تاااا...رح).

ابتـسامةٌ مُـرّة تعبر شـفتي لتلـك الـذكرى الكئيبـة، يحـضرني وجـه سـعيد المشرق بالأمـل وهـو يحمـل سـلاحه وجعبـة الخرطـوش ويقـول بفخر:

- جئت أودّعكم، سأذهب إلى فلسطين.

لا زالت خطواته تقرع زقاق الذاكرة الضيّق، على بلاط أملس لسوق الصغير، والدموع المخنوقة في المحاجر، والأيدي المرتعشة، وطيف سعيد يبتعد!

تلاشى الصراخ في الفضاء ولم تعد لتلك الكلمات الّتي حملت جزءاً من الروح والأعصاب معنىً: (إلى فلسطين، نريد الجندية الإلزامية، أعطونا السلاح، يسقط الخونة أعوان الاستعمار).

ضيق اليد، وتعنت والـدي قيّدا الحلم، وزجّاه في قمقم الحاجـة، فوجدت نفسي أبحث عن مصدر رزق يساعدني على إكمال دراستي. لجأت إلى زميل الدراسة الابتدائية محمد ديب، الذي تحمس لفكرة الشراكة واقترح مبتسماً:

- أخي، ما في شي مخبا عليك، يعني أنت من جوا السقّاطة، نحنا بدّنا شغل يجيب قروش، ماشي؟ وتجارة الكرز أحسن حل.

لم يقف فشلي في شراكتي مع صديقي (سلطان المناحيس) عائقاً أمام طموحي، بل أقحمني في تحد لظروف تزداد تعاسة كلّما تقدّم الزمن وحفر خطوطه الواضحة في تكوين الوجه والقامة والنفس.

وجدت نفسي ثانية على عتبة بلدتي الصغيرة أستجدي العلم من مدرسة نزيه الأهلية، بعد إقناع صاحبها بإحداث صف لكبار السن لأحصل على " البروفيه" . لم يكن نجاحي مفاجئاً، كان بلسماً داوى القروح المزمنة في الروح، وفتح أمامي كوّة للأمل، فقد غدوت معلّماً، وأصبح الراتب على الباب، كما تقول العامة: (إن يسّر وإن ما يسّر، الراتب ميسّر) و (غيّب شموس وعد فلوس). نعم لقد أصبحتُ معلّما وكانت قرية محمبل أوّل وآخر خياراتي!

❖❖❖

هاجمتني الظلمة بشراسة لم أتوقعها، ابتعد الضوء، واتسعت الحدقة محاولة استجلاء تفاصيل المكان. غرفتان يتوسطهما صالون أقيم على كومة كدّان[٢] بدون أساس، تطلُ باحتها الصغيرة على سهل الروج الشمالي، تتسع الأرض حول المدرسة من كلّ الجهات،ويسرق طوروس البصر مع سلسلة جبال العلويين والأقرع. اصطدمت نظراتي جنوباً بجبال الزاوية فحجبت عني الرؤية! فأرحتها على منظر لا يمكن للعين أن تتجاهله. هبّت النسائم الشمالية من جبال الدويلا الّتي اتخذت شكل الجمال.

أصعب الأوقَات في بلادنا استقبال الضيف مساء، مع ذلك اضطررت لقرع باب صطوف مع عودة الرعاة، خرج إليّ في هيئة كئيبة،

---

[٢]- الكدّان : حجر كلسي هش .

توقف دقائق يرمقني باستغراب، ثمّ افترّت شفتاه عن ابتسامة. ازداد ارتباكاً حين علم غرضي من الزيارة. صطوف الصديق الذي جمعتني به مقاعد الدراسة في مدرسة نزيه الأهلية، كان مؤمناً بنظرية واحدة يرددها دائماً، إذا هبّت رياحك فاغتنمها، فهو كالبحارة يقرأ أحوال الطقس، ويغيّر الدفة بالاتجاه المناسب. كان محمود يتهمه بالانتهازية، لكنّ صطوف المحنك زعيم الفلاحين في الصّف. وقد قارب الأربعين من العمر وطحنه الدهر وغمسه بالحكمة على حدّ تعبيره. كان يرى أنّ الانتهازي هو العالم ببواطن الأمور الذي يستغل الفرص، ففي السياسة تداس المثالية بالأحذية، وتتبدل المواقف: (الجمود غير محمود يا محمود)، هكذا كان يردد، بأنّه لن

يتخلى عن الاشتراكية، فهو اشتراكي قبل لينين وستالين، وليس أديب الشيشكلي وحده الذي سيسقط مع حركة التحرير، كان يراهن أنّ كلّ النظريات ستسقط، ويبقى الإسلام ديناً وسياسة!

استقبلني بحياد فهمته فيما بعد، فقد شعر بالإهانة لعدم تقديمه لي ذبيحة تليق به!

اثنان كنّا، أنا و عبد السلام الذي أصبح مديراً! لم نكن منسجمين، فهو من جماعة قدري بيك، انتقل من الحزب الوطني إلى حزب الشعب، إلى حركة التحرير، وقد عجز الأستاذ هاشم عن مصالحتنا، وبقي الاختلاف الحاد جمراً تحت رماد المصالحة الظاهري.

تخاطفنا أهل القرية بالولائم، عند كلّ أسرة سواء أكانت فقيرة أم غنية. في القرية جماعتان، جماعة الحاج عارف، وهو من أغنياء القرية، طويل القامة، كبير الرأس، في العقد السابع من عمره، عارك الحياة فعجنته بالنفاق والركوع على أبواب الموظفين الكبار في القضاء، وكان من عملاء فرنسا، يخيف النّاس بزبانيته من عسكر المستشار. وقد ضعفت شوكته بعد الجلاء. وجماعة عبد الباقي، الرجل الوطني

الضخم، كان مجاهداً متحمساً لوطنه وقومه، عانى من السجن والتعذيب أثناء الاحتلال، يتمتع بقدر كبير من البساطة، تقترب من السذاجة، يمشي حاسر الرأس، حافي القدمين، يحلق رأسه بالموسى، ويقود البسطاء، لكن لا سلطة له لدى الحكومة!

اخترت أن أكون في صف عبد الباقي، وامتنعت عن السهر في أوضة الحاج عارف رغم إلحاحه في دعوتي. وأقمت عند شريك والدي "أبو رفعت" في غرفة فوق السطح تسمى علّية فرشت لي ابنة شريكنا بساطاً ملوناً وفراشاً بسيطاً وبعض الوسائد، كانت كافية لإقامة مؤقتة لمعلم وحيد. شعرت ببعض الراحة حين أغلقت الباب، وتناولت عشائي، الجدران المطلية بالكلس بدت لي في ضوء القنديل الشاحب سماء فضية واسعة تحتضن ذلك الطائر الصغير في قلبي وتهدهده، فقد اقتربت من تحقيق الحلم. تلمست جنبي في المكان الذي شعرت فيه يوماً بتلك اللسعة الغريبة الّتي أججت فيَّ ناراً كلّما حاولت إخمادها اشتعلت من جديد. بحثت أصابعي بحركة تلقائية عن الجيب العميق الذي كان يقبع في هذا المكان فارتدت خائبة، ضحكتُ من أحلام ذلك الصبي الهزيل بجلابيته القذرة الممزقة، مع تلاشي الضحكة ساد صمتٌ أقلقني واضطربت له دقات القلب، الّتي انتظمت تدريجياً مع أنفاسي في حضرة سلطان النوم.

كانت خرما ابنة شريكنا تقتحم الدار صباحاً بالحليب وابتسامة تضيء وجهها الصبوح، ويرتفع صوتها مشاكساً بنبرته وهي تدعوني للغداء، فإن اعتذرت شتمتني وأصرّت على الدعوة. خرما ذات العشرين عاماً، كانت مُعرضة عن شباب القرية، ترفض الزواج، مع أنّها تمتلك قدراً من الحسن والذكاء الفطري، وهي صريحة حدّ الوقاحة، لا تخجل من حديث، وتوقف محدثها عند حدّه بنظرة متعالية، تحمل

التحذير والجدية الّتي تتسرب إلى ملامحها فتطفئ ابتسامتها والتماعة أسنانها.

كنت أضطر لمجاراتها خوفاً من لسانها وإكراماً لأبيها، فإن رفضتُ دعوته، اعتبرها إساءة له.

عادات القرية تسمح للفتيات بقدر من الحرية في العمل والحركة والتحدث إلى الشباب والمزاح، لكن متى تجاوز إلى الجد عاقبته الذبح!! مع الأيام كنت ألحظ انخفاضاً في صوت خرما وتردداً في شتمي، لكنّي لم أتوقف عند اكتشافي ذاك، إلاّ أنّها كانت تذكّرني حين يرتعش صوتها وتتلعثم دون سبب ظاهر - مع بعد الشبه - بعزيزة الهادئة الناعمة فيرتعش القلب، عزيزة زينة حي الميدان ببسمتها الرائقة، وعذوبتها! أذكر تلك التفاصيل الصغيرة للقائي بها حين كنت أبحث عن سكن وطرقت باب دارهم.

وقتها لم أنتبه إلى يدي الممسكة بحلقة الباب، اختلّ توازني فجأة وهي تفتحه، ووجدتني ارتمي عليها، تراجعتْ إلى الوراء وهي تتساءل:

- مين أنت؟

استدرتُ موارياً وجهي في الجدار، تلعثمتُ وأنا أحاول إفهامها أنّي أبحث عن سكن، استنكرتْ قولي:

- نحنا ما قلنا للدلاّل " أبو درويش" بدنا نأجر غرفة السطح!

ثمّ استدركتْ مفسحة المجال لي كي أدخل لأرى الغرفة، وأرسلت وراء أبيها. خطواته المتكسرة على الدرج أنهضتني من جلستي المتأملة، مددت له يداً مترددة، رحّب بي بكلمات مقتضبة وأملى شروطه:

- الأجرة خمس وعشرون ليرة، ممنوع أن تستقبل أحداً.

حاولت مساومته، لكنّه نهض عن الكرسي وقد احتدّ صوته، وطلب مني الانصراف، نظرة مختلسة إلى وجه عزيزة جعلتني أرضى بالشروط مكرهاً. غرفة عالية باردة، وفراش موحد! نفس الصندوق أستعمله طاولة للكتابة وخزانة لملابسي، وفراغ معبّأ بأنفاس أحلام تستيقظ في الجسد والروح. تولت عزيزة تزيين الصفحات بوجهها المضيء وعينيها الواسعتين، تنهمر الخضرة منهما أشجاراً، تورق على حواف القلب، فيزهر الحزن، وأستظلّ بفيء الزيزفون!

كنت أستعير الكتب لأعطيها لها، تبتسم وهي تعيد الكتاب:

- كنت أتمنى لو تعلّمت مثلك، أبي ما رضي أدرس في "التجهيز"، البنت مصيرها الزواج، وقبرها بيتها.

تضحك مفصحة عن صفين من اللؤلؤ، ضحكة تغري شيطان الجسد بالاستيقاظ، لكنّه نائم تحت ركام الفقر والحاجة والتردد!

عزيزة فتحت بيدها الناعمة مغاليق الأبواب، وشرّعتها للريح، أفهمتني بدون بوح، أنّها لن تكون لغيري. كانت تصرّ أن أقرأ لها، تنسل إلى غرفتي حاملةً الثياب المطوية، تنظف الغرفة، تحضر الطعام، تكوي الثياب، وترعش القلب.

مراراً حاولت التملص من زياراتها، بالتحذير حيناً، واللامبالاة حيناً، لكنّها لم تر أفقا يحملها على جناح الحلم بعيداً عن قبضة الجدران غيري، تنام على (حديقة النبي)، وتصحو على (الأجنحة المتكسرة).

كانت ترجو أن ينبت لها جناحان صغيران، تحلّق بهما بعيداً عن حي الميدان، تتجاوز الزقاق الضيّق ببيوته الفقيرة، حيث البساتين الواسعة، والأكواخ الوهمية، وعرائش العنب. حاولت أنْ أصف لها

واقعاً لا يعترف بخيالها، لكنّها رفضت تصديق ما يقطن خارج أحلامها.

ملاك في جسد إنسان كانت عزيزة، وعجزٌ على شكل إنسان كنتُ. لم أستطع سوى الانسحاب حين وضعتني أمام الاختيار:

. في الغرفة هو مع أبي، زوج الاثنتين، تجاوز الأربعين، ما بعرف كم ولد عنده.

حاولت إقناعها أنّ ذلك أفضل، فهو مقتدر، يستطيع أن يصرف عليها لتعيش بكرامة، صرخت بوجهي:

. وأنا بدي إياك أنت.

وأنا أريد لو أضمها وأطير، حيث لا بشر، فأكون آدم وتكون حواء.

انسحبتُ بدمع غسل القلب، أدركت عزيزة الوهم الذي عاشته، وأدركتُ متأخراً الآمال الّتي بنتها على قصص المنفلوطي وجبران، والغسيل والكوي والتنظيف.

رمت لي ((حفّار القبور)) وخرجت.

تذكرتُ قول أستاذي: (دعك من جبران، وابتعد عن المنفلوطي، هذه الكتب ستدخل الظلمة إلى روحك، عليك بالجاحظ والمتنبي وابن خلدون، ولا بأس أن تقرأ لطه حسين). مع غرقي في كتب هؤلاء، تأكدت من عمق حبي لعزيزة، تلك الّتي جمعتُ كلّ ما كتب من شعر في الغزل بنظرة ترميها بشكلٍ عابر.

لكنّي اتخذت قراري بمغادرة البيت كي لا أصبّ الزيت على النّار. كدت أنتهي من ترتيب الثياب والكتب في صندوقي حين دخلت عزيزة الغرفة كزوبعة وصفقت الباب خلفها، شيء ما أرعش القلب، لكنّ تصميمي لم يفارقني (يجب أن أتوقف هنا، نعم يجب أن أغادر قبل أن...) تقدّمت مني وعيناها مليئتان بالدموع، نظرت إليّ بغيظ

وارتمت على الفراش وهي تنشج بحدة. وقفت حائراً للحظات، ثمّ مددت يدي لأنهضها:

- يكفي عزيزة، سيسمعك أهلك.

نظرت إليّ نظرةً غائمة حزينة:

- أهلي برا، ما في غيري هون، راحوا يشتروا الجهاز، ما بدك تشوف ثوب عرسي؟

ذبحتني لهجتها المنكسرة الغاصّة بالدمع والرجاء، تركتُ يدي تتدلى بجانبي وشعور عارم بالعجز يطحن جسدي، ماذا يمكنني أن أفعل لعزيزة حبة القلب؟

رأيتها كحلم تتمدد على الفراش البائس وتسحب فوقها الغطاء وهي ترتجف، وعيناها تدعوني، والرغبة تشتعل في أطرافي. اندفع الجسد تحت الغطاء، طلباً للدفء أم عجزاً أمام ألقها؟ لا أدري، كلّ ما أعرفه أنّ عزيزة كانت ترتعش بين يدي، وأنا أكفكف الدمع بشفتين تزدادان اشتعالاً كلّما تلاشت همساتها وتراخى جسدها وكأنّه من أثير!.

كانت خرما تحدّق بي وهي تقول متلعثمة:

- والله بكرهه، زوج الاثنتين، بس هو مصمم يتزوجني، إيش أعمل؟ ضربته، طردته، شكوته لزوجتيه، ما في فائدة!.

قلتُ محاولاً تخفيف انفعالها:

- ولكنّه يحبك، ومستعد للمهر الذي تريدين.

رمقتني باستغراب وقالت بصوت متهدج:

- حدّ الله ما بيني وبينه.

وركضت هاربة وهي تداري دموعها!.

كنت أنوي محادثة شريكنا رفعت وإقناعه برفض طلب صطوف فالفرق بينهما كبير، لولا تلك الحادثة الّتي أنستني موضوع خرما

ورجاءها الهامس بالتدخل لأمنع تلك المجزرة ـ كما وصفتها ـ فقد استخدم عبد السلام صلاحيته كمدير للمدرسة وفرض ضرائب على التلاميذ لبناء دورة مياه، لم يلتفت لمعارضتي، فجاءت ردّة الفعل رجالاً أحاطوا بنا ورمونا بالحجارة، حتّى جاءت النجدة من "أبو رفعت" وأولاده تتقدمهم خرما، و رغم إلحاح "أبو رفعت"، بقيت في المدرسة يرافقني صطوف. لا أدري لم شعرت بشيء غير مريح ليلتها، رغم أنّنا استعدنا ذكريات مدرسة نزيه الأهلية، مشاكستنا للمعلّمين، مشاجراتنا، نزهاتنا، اتحادنا في وجه الظلم، كلّ ذلك جعل كوابيسي تنجلي عن ضيق في الصدر. لم ينشرح صدري إلا لحضور خرما الصاخب صباحاً وهي تحمل دلو الحليب، تنير ابتسامتها عتمة الصالة، وتزيح بقايا الرطوبة وخمول العظام. نظرات صطوف إلينا لم تكن مريحة، لكنّي تجاهلته، لعلمي أنّه يغار من نجاحي. ثلاثون مرّت لم يستطع خلالها الحصول على الشهادة الّتي سعى إليها، باع أرض أبيه، أعياه اللهاث وراء تلك الورقة المكتوبة ليثبت أهميته، دون جدوى!.

بعد يومين كان القائم مقام ومدير المال ومفتش المعارف، وقاضي ادلب، وقائد الفصيل على مائدة الحاج عارف. لغبائنا أنا وعبد السلام أفندي، لم ندرك أنّ الحاج عارف كان وراء الأمر برّمته. وجاء المفتش للتحقيق معي، أصررت على شهادة التلاميذ، ورفضت دعوة الحاج للغداء (كمينه لتلافي نتائج الدعوى الّتي أقامها أبو رفعت على زبانيته) لكنّه ترك الأمر لأبي، فأسقط بيدي!.

على مائدة الحاج عارف، كان القائم مقام، والمفتش ومدير المال يتصدرون الطاولة الغاصّة بالخراف. عند دخولي، التفت القائم مقام إلى الشاويش قائلاً :

ـ هذا هو البطل؟

كانت سخريته استفزازاً واضحاً دفع الكلمات لتخرج حادّة فجة من أحشائي:

ـ البطل من يستجيب المستشار لرغباته، وتقدّم له الخراف مُكتّفة، أما أنا فمعلّم قرية، أكبر هدية تقدم لي باقة نرجس.

غمزني المفتش عاضّاً على شفته، اهتزت قامة القائم مقام، ورفع إليّ وجهه الأسمر الطويل يتأملني مغتاظاً بعينين جحظتا للتو، تمتم بكلمات غير مفهومة، ثمّ شدّني من يدي وقال:

ـ تعال أستاذ وقّع.

المفتش حاول إضفاء جوّ المرح، لكنّي بقيت مصرّاً على طلب النقل قبل توقيع المحضر.

خرما استقبلتني ببرود، بوجه هجره ألقه، نظرت إليّ بعينين اشتدّت العتمة فيهما وقالت وهي تلوي شفتيها:

ـ ما بعرف كيف قبلت دعوته، فكّرتك صاحب مبدأ.

سخرية خرما وخزت قلبي، لم تترك لي مجالاً للشرح، وماذا كنتُ سأقول؟ وقفتُ في وجه الأعداء، وسخرت من الجميع، وتحديت الحاج عارف، لكنّي وقفت كفأرٍ أمام إرادة أبي!؟ هل تفهم خرما معنى تلك السلطة الخفية الّتي يمارسها عليّ ذلك الحدّاد الضخم الذي ما زال يلوي الحديد المحمى أمام نظري ويدفعه إلى ماء الجرن، فلا تنطفئ ناري؟ هل تقبل خرما ببساطتها واندفاعها الفطري إلى جانب الحق أن تراني مهزوماً على مائدة الحاج عارف بسبب حجة تزيدني صغاراً في عينيها؟

هزت كتفيها بلا مبالاة، حملت جرّة الماء، ومضت وهي ترشقني بالشتائم، دون أن تتلعثم!

في الصباح التالي لم أجدها تقتحم الغرفة بدلو الحليب وصحن البيض.

تابعت طريقي نحو المدرسة حيث أعدت سيرتي الأولى، أبدأ الدرس بالسخرية من الخونة، وأضع الحاج عارف مثالاً في أفعال الماضي الخائن، والمضارع المنافق. رحم الله فريد أفندي، دائماً تلوح ابتسامته الساخرة من نافذة الصّف، يهتز طربوشه بعصبية، وأسمع شتائمه وصراخ جودت.

الصراخ لا يزال يمزق سكون الليل، صراخ حاد أعقبه طلق ناري، أقدام تداري وقعها، وصوت ذئاب في البعيد! قمت من الفراش وقلبي ينتفض، أهو كابوس أم حقيقة؟ الريح في الخارج صفقت النافذة المتداعية، أجفلتني، ثانية نظرت خارجها، لا صوت، سكونٌ تصفر فيه الريح بكآبة، لا أقدام عابرة، الوقت تجاوز الفجر! عدت إلى الفراش. أنينٌ خافت زحزح الروح من مكانها، هناك ما يريب، لكن كيف أخرج في هذا الجوّ؟ متأكدٌ أنّ الأنين حقيقة تتسرب من غرفة أم خرما العالية فوق السطح، أهي...؟

نبذتُ الفكرة، غسلت وجهي ببعض الماء، ودفعت بعضه إلى حلقي الجاف، ارتديت ملابسي، وجلست أنتظر خيوط الشمس دافناً رأسي في كتاب لم أفهم من تشابك سطوره أمام عينيّ شيئاً.

بشكل آلي تحركت قدماي خارج الغرفة، يدفعني فضولي نحو بيت "أبو رفعت "، ويرجعني ترددي نحو الطريق العام. على كتف الرابية، قبل وصولي المدرسة بأمتار، رأيتها، لم أكن أتخيّل! متأكد أنّها حقيقة، الشمس تغمرها، هي خرما، متأكد مما رأيت. رغم إجماع أهل القرية على تكذيبي، ورغم نظرات أبو رفعت العاتبة، وأنين أمها الخافت المفجوع، متأكد أنّ ذلك لم يكن كابوساً كما قالوا، خرما لم تهرب، لم تغادر القرية، وإن أقفلوا التحقيق بشأنها. ابتسامة الحاج عارف الخبيرة، ومائدته المفتوحة، وخرافه! متأكد أنّها هي، خرما الّتي...

لكنّ الصفحة طويت، وحياد أهل القرية تجاهي كان حاداً، وجاء قرار نقلي من المدرسة تأديباً.

بعد سنوات طويلة التقيت صطوفاً في السجن، مفارقة لم تكن تخطر على بالي!

أقمنا في قاووش واحد، وفي لحظة صفاء ذهني سألني:

- أتذكر خرما؟

انتفض شيء قاس في القلب، أعاد إليّ وجهها الأسمر وضحكتها المشاكسة، ونبرة صوتها العالية، رأيتها تندفع نحوي بدلو الحليب وكأنّها تهجم على عدو. هكذا كانت، تنزل كصاعقة تشقّ القلب نصفين، ثمّ تمضي ضاحكة. وكيف لا أذكرها؟ لا أذكر النرجس، و الأماسي الدافئة الّتي كانت تمطرني فيها بودّها، وتخصّني بالزبيب والجوز،كيف لا أذكر صباحها؟ صباح الحليب الأبيض كابتسامتها، كيف لا أذكرها! وهل نسيتها يوماً؟ هزتني يد صطوف لتنتشلني من حضورها:

- لقد أحببتها؟

سؤال صطوف كان تقريرياً وفجاً، لم أسأله لنفسي يوماً، لم أفكر أنّي يمكن أن أحبَّ خرما، ربّما كان بيننا ودٌّ عميق، ربّما ... لا أدري.. لكنّي لم أفكر أبداً أنّي أحبُها، رغم أنّها اختلطت بكثير من الوجوه الّتي مرّت في حياتي فكنت ألمح أحياناً ابتسامتها، وأحياناً أرى عينيها، تمسُ سمعي نبرة صوتها العالية، أشياءٌ كثيرة التبست عليّ، لكنْ الحبّ؟ شيءٌ دافئ في داخلي همس لي: (وهل يحتاج الحبّ لكلام وتصريح وأسئلة؟) هززت رأسي وأنا أرد على نفسي وصطوف... ربّما.. ربّما..

تابع صطوف حديثه وكأنّه يكلم نفسه: (هي كانت تحبك، قالتها لي بصراحة جرحت قلبي، قالتها بصوت عالٍ صفعني، رحت أدور كالمجنون حول نفسي، حاولت إسكاتها مراراً، قلت لها: لا، لا يمكن أن تحبيه، وهو لا يمكن أن يحبك، أنت لي، لي أنا، لكنّها ضحكت ساخرة،

سخرت من غبائي وشكلي، قارنت بيننا وهي تصفك وكأنّها تتعبد إلهاً، لا يمكن لخرما أن تفعل ذلك، أنت لم يمض على وجودك بيننا سوى أشهر، وأنا أعرفها مذ كانت طفلة، لكنّها حمقاء، من يدري لماذا قالت لي ذلك؟ كانت تفتح النّار على نفسها، خرما قتلت نفسها). نهضتُ مذعوراً وأنا أصرخ به:

- أنت؟ أنت من قتلها؟ كيف جرؤت؟ لمَ لمْ تسألني، يا إلهي كم أنت غبي، لم تخطئ خرما أبداً بوصفك، غبي.

ثورتي خمدت بعد دقائق، صطوف نفّذ حكم الإعدام بخرما لشدّة حبّه لها، لكنّه مصر أنّها قتلت نفسها، والقضية طويت وسقطت بالتقادم! لكنّ خرما بقيت في الذاكرة سيفاً مشرعاً فوق عنقي، يسبق سيوفاً تقطر دماً تتسابق إليه، والرصاص ينهمر غزيراً، وهي غارقة في بحيرة من الدماء، والسماء لا أفق لها.

لكنّ وجه أمينة الطالع من فرجة السماء الداكنة، كان يغمرني بسكون غريب في ذات اللحظة!

❖❖❖

لاحقتني عينا خرما طويلاً، فرحت التفت حولي معتقداً أنّ شبحها يختفي في المنعطفات الضيّقة، حتّى ارتجف قلبي وأنا أتصور جثتها مطروحة قرب الإسطبل في زقاق المنزول المعتم...

تتابعت خطواتي بسرعة أطارت حذري فغاص الحذاء بمياه الزقاق القذرة تلفظها البيوت بكثافة أيام العطل. رميت جسداً منهكاً على فراش بائس تحيط به الأوراق المبعثرة من كلّ حدب وصوب!

أحاط بي هؤلاء المهمشون الذين رافقوني حين كنت طالباً في التجهيز، حينها تملكتني رغبة قوية في كتابة رواية عن حياة هؤلاء،

والآن عاودني الحلم! فتشت أوراقي لأجد ذلك الولد الصغير يمدّ لي لسانه مشاكساً وأنا أعيد قراءة سطوره.

كان الليل قد انتصف وهدأت الأزقة من طرق الأقدام العابرة، وهجعت كلّ المخلوقات إلا قلبي. بين النافذة المشرعة على برد أيلول والقنديل المتأرجح في السقف، كانت نظراتي تنتقل بعصبية، كيف أبدأ؟ القصّة أثارت حماسي، وأصابتني في مقتل، شطبت أوراقاً، ومزّقت أخرى، ولم تأت البداية اللعينة لتجرح صمت الورق الأبيض! لكنّي اخترت أن أبدأ...

(لقد كانت هناك تمرح في الزقاق حين كان طفلاً، تناوله كمشة تين يابس وتهمس له:

- هل رأيت محمداً؟ إنّه سر، لا تقل لأحد، فهمت؟

بحدس طفل تجاوز العاشرة، وحميمية السر، كان يخبئ التين اليابس في فمه، يمضغه على مهل ويرقب الزقاق ليمرّ محمد زين الشباب فيقول له:(مريم تنتظر خلف الباب الموارب)، يطول وقوفه فينتابه الملل، يمشي نحو غرفة أحمد اليتيم، و يغوص في لعبٍ يستهلك الضوء الأخير للشمس وينسى ما قالته مريم!)

أهي بدايةٌ جيدة؟

(كثيراً ما تساءل عن أحمد، ماذا حلّ به؟ لم تكن ذكراه لتفارقه بعد تركه البلدة بحثاً عن مستقبل أفضل وهرباً من ألسنة حرقت جلده بنار الشائعات الّتي لا ترحم عن أصله وأمه، وذلك اللقب المقيت الذي التصق به كظله، يدركُ كم كان ذلك يعذبه.

مريم كانت ترمقهم وهم يلعبون، فيرى وجهه يحمرّ خجلاً، ويتوارى خلف جدار أو يبتعد من الزقاق. أحمد كان يعرف معنى أن تحبَّ مريم محمّداً، وما يقهره أكثر أنّ محمّداً تزوج فيما بعد

من عائشة وتركها ليد الزمن تحفر الهزال والأخاديد في الروح، فتذبل كوردة مهملة.

هل كان أحمد يحبُ مريم؟ لم يخض معه يوماً في هذا الحديث، ربّما لأنّه حديث في المحرّمات، وربّما لأنّه لم يعرف وقتها معنى أن يحبّ ولدٌ يتيم وفقير مثل أحمد فتاة مثل مريم، يزيّن الذهب معصميها فتبدوان تحت الملاءة السوداء كشمسٍ تتوارى في عتمة المغيب، كثيراً ما شدّه بياضها وهي تمدّ ذراعاً عارية في قيظ الصيف لتناوله تيناً أو زبيباً ترشوه به، فيتساقط أرضاً مصحوباً بابتسامته البلهاء.

كثيراً ما كانت ابتسامتها تنتزع دفقة دم حادّة تصعد رأسه ثم تهبط أسفل الصدر، فتتعثر خطواته مبتعدة صوب البيت.

لم يدرك ماذا تعني له مريم، حتّى رآها تفلي شعرها الطويل المخضب بالحناء ذلك العصر البعيد بين يدي أم الصادق! ضحكتها الخافتة، أسنانها المنضدة، وعبارتها:

ـ اقتليهم خالتي، الله يلعنهم.

كانت ببساطتها تلك وتلقائيتها، ترسم في مخيّلته صورة وطن مسلوب، وعساكر يعيثون فيه فساداً، وسواد يخيّم على الأفق. أكانت مريم فتاة مختلفة، أم هي مخيلته جعلته يراها على الصورة تلك؟

لا يشكّ في تميّز مريم، فقد رفضت زينة شباب البلد وفاء لحبها لمحمّد، لكنّه شكّ كثيراً أنّ محمّداً كان يستحق ذلك الحب.

بعد زواجه من عائشة بأشهر قليلة فاحت رائحة القلق في الزقاق، وتناقلت النسوة همساً أسراراً تقول إنّ خلافاً بينهما تطور إلى ضرب محمّد لعائشة، ثم سمعهن يقلن إنّها نزفت كثيراً من الدم وأنّ أم خيرو النقّاشة قد أخذتها لعند بدرية!

مـا لم يفهمـه دور أم خـيرو، ودور بدريـة، مادامـت تنـزف فهـي بحاجة لطبيب! هذا ما تفوه به مذهولاً أمام خالته فاطمة، الّتي صرخت في وجهه بحدّة:

. اخرج من هنا، لقد كبرت، التلصص على أحاديث النساء عيب، ثمّ لا تبدي رأياً في أمور لا تخصك.

انتبه وقتها أنّه كبر فعلاً، وأنّ نبضه تسارع حين خرجت مريم من بيتـهم كـسماء شـباط دامعـة العـين، لكـنّ دمعتـها مـشرقة بابتسامة. حال مريم العجيبة تلك هي الّتي لم يستطع فهمها، لكنّ أحمد قال له مفسراً حين التقى به بعد صلاة المغرب في ذلك اليوم:

. مريم سعيدة لأنّ محمّداً طرد عائشة، تلك دموع الفرح، ربّما تـصورت أنّ الطريـق إليـه أصـبحت ممهـدة أمامهـا. الطريـق إلى محمّـد؟ لا بـدّ أنّهـا تـشبه الطريـق إلى حلمـه، معبـدة بالأشـواك، والأسلاك الشائكة!

دون قصد سأله تلك الليلة:

. ماذا لو تزوج أخرى كغيره من رجال الزقاق؟

تنهد أحمد، وأطلق عينيه في إثر حماره، وتابع خطواته السريعة إلى بيته، دون أن يرد على السؤال قال:

. تفضل أكمل السهرة معي.

دعوته مغرية في معرفة المزيد، لكنّه تردد، لاحت له عصا والده المرفوعة غضباً، ما زال يراه طفلاً، رغم تنبيه خالته المستمر: (لا تدخل مجلس النساء بعد الآن).

لم أشعر بتلك الإلفة الّتي تجعلني أستلقي قرب التفية[٣] التماساً للنوم، فحملني قلقي إلى الزقاق ثانية، ووجدت نفسي أستقرُّ على كرسي قشٍ في مقهى مرسال، أسرعت عائشة بإحضار القهوة، فردتُ الأوراق الصفراء، ورحت أشطب وأعيد الكتابة، وأتأمل ما صنعتُ بعدم رضا. تذكرت لحلوحة فجأة، حضرني وجهها المجبول بكبرياء مطعونة بخنجر الزمن، لحلوحة، تلك الّتي كان وجهها المضيء ينير عتمة الخان وخيال الرجال بمختلف أنواعهم، حين رأيتها في (ملهى الشهبندر) الواقع في زاوية وراء شارع بارون شمالاً. تقصيّت عن تلك المرأة الّتي فرّت مع خادمها، كما أشيع في ذلك الوقت، فوجدتها امرأة أخرى باسم مختلف وحياة مختلفة، حاولت أن ألتقيها، الصدف لم تفتح

ذراعيها لي، وحارسها طلب الحصول على موعد مسبق!... موعد مسبق! هل أقف بباب الوزير؟ فيما بعد عرفت أنّ الوقوف بباب لحلوحة يعادل الوقوف بباب المخابرات العامة، فرئيسهم (بدر) ملك يمينها. وكان عليّ التراجع عن قراري الأحمق برؤيتها. كيف أصبحت لحلوحة كذلك؟ ليس من الصعب على امرأة في جمالها أن تدير رؤوس الرجال وتمتلك حواسهم، لكن عقولهم ومصائرهم! استغرابي لم يطل فما سمعته عن ذكائها الفطري الذي دعّمته بمعاشرة الرؤوس المهمة جعلها تصل إلى ما تريد. (لم تكن بحاجة إلى أكثر من فرصة استطاعت استغلالها. دخلت بعدها لعبة السياسة وتخلّت عن لعبة الحب الفاشل الّتي تلهت بمصيرها طويلاً. فمنذ رأت محمد زاهر في تلك المظاهرة الّتي خرجت ضدّ الانتداب الفرنسي وتحطمت فيها هيبة الدرك، وكُسرت شوكة العملاء، تلقف قلبها الإشارة بمزيد من اللهفة والتوق. نظرة واحدة تجاه نافذتها في الخان، كانت كافية لاتقاد الشرر

---

[٣]– التفية : موقد لطهي الطعام والتدفئة .

الذي أطاح ببقايا ودٍ حملته لحويسي سيّد الخان ومالكها. ليال قضتها تفكّر (بأيّ حق يمتلكها؟ ألأنه أنقذها؟) لقد قضت سنوات طويلة حبيسة الخان لقاء معروفه معها، لا تنكر أنّها أحبته، لكنّه حبٌ لم تختره، حبٌ فرضته ظروفها، فرضه مغتصب قتل أهلها واعتدى عليها ورماها للمجهول، لا تستطيع الآن تحديد هوية قريتها، من أين جاءت؟ تذكر المكان، تعرف بحواسها تفاصيله، لكنّ المسميات غابت عن ذاكرتها، تدرك أنّها كانت طفلة تلعب قرب سنديانة، وكانت مغرمة بطفل مشاكس يلحقها إلى العين، ويتوغل معها في الغابات لالتقاط الفراشات الملوّنة، أين ذلك كلّه من حاضرها؟ لم تعد تهتم، رغم اقتحام الماضي لأحلامها على شكل كوابيس، تجد نفسها فيها مربوطة إلى شجرة توت، يحيط بها جند مدججون بالسلاح، يتناوبون على اغتصابها. لا زال وجه حويسي يبرز لها ملوّحاً بسلسلة يقيّد بها قدميها، وتسمع أصوات أقفال تتوالى على زنزانة تحيط بروحها فتستيقظ مذعورة، لتؤكد وجودها بالصراخ وإضاءة المكان! كثيراً ما خرجت إلى الشرفة مُعرِّضةً جسدها للبرد والمطر أحياناً، لتتأكد أنّها ليست هناك!

اختلف الزمن كثيراً، لم يعد للروح مكان ترتع فيه وتقطف الأحلام الطازجة، حلّ زمن تتزين فيه للصباحات الخاملة، وتخرج للقاء الوقت الهارب من عمرها، فتجده شهوة عارمة في أعين الرجال الذين تضعهم ظروفهم في طريقها، فتعبث أقدارها بابتسامة ترتسم على الشفتين، متقنة، تناسب الوقت وحجم المهمة الّتي تقوم بها، ثم تعود لإلقاء وجهها وزينتها وابتسامتها في بالوعة الحمّام، تدعكه بالصابون، تعطره بماء الورد، وتنام، لتصحو ليلاً لأجل زينة مختلفة، تناسب مقامه هو، وضيوفه هو، ومزاجه هو. تتنهد أمام المرآة لتتذكر آدميتها، ثم تغلق بالشمع مسام الجلد جيداً، وتخرج لملاقاته. تحاذر التنفس بحريّة في

حضوره، تحاذر أن تبرز لها لحلوحة الّتي تحبُ بكيانها وتغطي حتّى آخر قطرة من روحها، لقد علّمها أنّ الجسد ينفصل عن الروح حين يدلف فراشاً بارداً تحكمه قوانين القوة والسلطة. فهمت اللعبة مبكراً فاعتقلت مشاعرها وسجنتها خارج الوقت الذي تقضيه معه. السجن قاسم مشترك للزمن الذي تعيشه بكلّ مراحله، طالما عذّبها سجن الحبّ، فقررت الفرار منه، الآن تعيش عذاباً مماثلاً، يفرضه الخواء المسيطر على مشاعرها، تنتابها رغبة برفض كلّ شيء والهرب من جديد، لكن إلى أين؟ حين هربت من الخان، خيّل إليها أنّها بدأت تعيش حريتها، اختارت الطريقة، والمكان والشخص، أحياناً ينتابها ما يشبه اليقين أنّها افتقدت سعادتها في اللحظة الّتي استطاعت أن تملك القرار، اكتشفت بعد زمن زيف تلك السعادة الّتي غرقت بها سنوات مع محمّد زاهر بعيداً عن العيون. هل حقّاً عاشت سعيدة معه؟ تكاد تجزم أحياناً أنّ تلك الحياة كانت أتعس مراحل عمرها على الإطلاق. حين راح يتخبط في متاهة الشك، أدركت أنّه لم يعد يعني لها شيئاً، وأنّ عليها أن تختار حياة أخرى تليق بها بعيداً عن إنسان مهزوم ومشتت مثله، كان لها ما أرادت. حاولت مراراً ألا تنظر إلى الخلف، أن تنسى، لكنّه يصر على ملاحقتها، قررت مرّة أن تنسفه وتنتهي من تلك الذكرى البغيضة الّتي تصيبها بالغثيان، لكنّ الكلمات انتحرت في حلقها، وضعفت عن تنفيذ القرار. هل ما زالت تحبه؟ هل أحبته؟ مما لا شكّ فيه أنّ محمد زاهر كان يعني لها الحريّة الّتي اشتاقت إليها وهي بين جدران الخان، وتحايلت على حمندوش وحويسي والمجذوب صدّيق، حتّى استطاعت نيلها، هل هي نادمة؟ أحياناً تفكّر أنّها اختارت الطريق إلى سجن مختلف، وأحياناً تعتقد أنّ ما حدث هو قسمتها من الحياة وعليها أن ترضى لتعيش. بإرادتها فارقت رضاها بقربه واختارت حياةً أخرى بين قضبان جديدة بعيداً عن بؤرة القهر، عليها

أن تعترف أنّها كانت السبب في تلك النهاية المأساوية لحبهما، لكن ذلك لم يكن بيدها، أعطته كلّ شيء وانتظرت، لم تجرؤ على المطالبة بأكثر مما يمنحها،كانت تأمل من الأيام إنصافها، رضيت العيش في الظل، والالتحام بالعتمة، طالما اشتاقت إلى الشوارع، إلى المطر، إلى الزهر يتفتح أمام عينيها، تستنشقه بعمق فتنفتح رئتاها، طالما اشتاقت لاحتضان يده في الأماكن العامة، دخول السينما، لكنّ وجهه العابس كان يعيدها إلى أرض الغرفة الرطبة فتنهض لتكنس وتحضر الطعام، وتجلس قبالته صامتة، لم يكن هذا ما حلمت به حين التقت عيناها بنظرته المرتعشة في ذلك الزمن الغابر، لن تنسى رعشة القلب وهي تتسلل من السلم الخلفي للخان، وتعبر الساحة الخالية ليلاً معرّضة نفسها لخطر القتل لتلقاه، يومها قال لها:

ـ سأنقذك من بؤرة العفن تلك، سنهرب سوية، أحبك، لن يقدر حويسي على فرض سيطرته عليك بعد الآن.

صدّقت الحلم، صدّقت قوله أم صدّقت ما تمنته؟ مضت وإياه تحت جنح الظلام وصدّيق المجذوب يخطط للحصول عليها، رمت على الخان نظرة وداع، ورأت حمندوش غارقاً في الحشيش، خطواته المتعثرة تشدّه إلى الأرض وصدّيق يحاول ثنيه عن الصعود إلى غرفتها. اختارت الوقت المناسب، وهربت من حارسها وذلك الذي يدّعي الهبل رغبةً في الحصول عليها، لم تتصور أنّ رحلتها تلك ستنتهي إلى قبو رطب تحت الأرض لا يرى النور، فيختلط الليل بالنهار، ارتبط وقتها بحضوره وغيابه، ألحّت كثيراً ليخرجها من القبو إلى الحياة، إلى الشارع، لكنّه رفض، غيرته العمياء أسعدتها في البداية، ثمّ بدأت تُشعرها بالضيق، لم تهرب من الخان لتعيش في قبو، لم تهرب من سطوة حويسي لتقع تحت سطوة رجل مهزوز الشخصية تحت اسم الحبّ، يجب أن تخرج من الغرفة، السجن الجديد. وافق أخيراً أن تخرج معه في وضح النهار،

دارا طويلاً في الشوارع، أخذها إلى القلعة، سعادتها جددت الدم والروح، لكن لم يكن في حسبانها أبداً أن تلتقي في ذلك اليوم من يعرفها، لقد فوجئت بأحدهم يصرخ بدهشة: لحلوحة!

تشاغل بالفرجة على واجهات المحلات مبتعداً في خطواته عنها. منذ ذلك اليوم باتت تدرك ماذا تعني له، رغم إصراره على أنّه يعشقها ويخاف عليها من النسيم، إلا أنّها لم تعد تصدّق تلك النظريات الّتي حشا رأسها بها عن طهارتها ونقائها، من أين يأتي بالكلمات؟ تعترف أنّه أوّل معلّم تلقّت على يديه أبجديات الحياة، الكتابة والقراءة والحب والكذب، والجنون، والخداع. نعم، معه عرفت كلّ شيء ولم تكن تعرف عند حويسي سوى أنّها ملكه وعليها طاعته، تعطيه جسدها راضية، تأكل وتنام وتنتظر، وتجلس في نافذة الخان تسمع مواويله العاشقة وتستمتع بنظرات الرجال الولهى إليها، أما هو فقد أحبته وأعطته روحها وجسدها، تألمت لأنّه خجل منها، فهمت أنّه لم يكن يغار عليها، بل يخاف من أن يراها أحد معه، أدركت أنّه لم يكن يحبها لأنّها لحلوحة البريئة النقية النفس، الطاهرة الروح - كما كان يقول - بل لأنّه فشل في حبّ آخر، صدمه فارس بيك باستئثاره بحسنة، واغتصاب حقّه بها أمام عينيه، صدمته تلك جعلت منه مجنوناً تحدى حويسي بخطف حبيبته. فهمت ذلك جيداً، وكان عليها أن تقرر، لكنّها لم تملك ناصية القرار حتّى رأت أحواله تتغير، راح يغيب عنها طويلاً، يتركها دون طعام ويعود سكرانَ. كانت في البداية تقلق حد الخوف، لكنّ جارتها شجعتها على الخروج للبحث عن عمل. وجدت نفسها فجأة في مواجهة قاسية مع عالم لا تعرف عنه شيئاً، عالم غامض، زاخر بالتناقضات، ماذا تعمل؟ رأت نفسها تبحث عنه حتّى وجدته في ملهى الشهبندر، لم يعد كما عرفته، لا، ليس هو، كان عليها دين لذاك

الحب، لم تستطع أن تفي به، فتركته يهيم على وجهه، وخطّت لها طريقاً آخر بعيداً عنه).

وضعتُ القلم جانباً وسحبت نفساً عميقاً من سيجارتي، ترى ماذا تفعل لحلوحة الآن؟ تساءلتُ بهمسٍ جعل مرسال يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ويهز رأسه باستنكار.

❖❖❖

على هضبة صغيرة في أقصى الشرق من قرية منطف، فوق صخرة تحيط بها أرض جرداء، بُنيت غرفتان من حجارة الصوان، يتوسطهما صالون ينتهي إلى غرفة ثالثة صغيرة، جدرانٌ مطلية بالإسمنت الأسود، وشبابيك مفتوحة على ساحة من الصخور تصدم النظر بلونها الأبرش، رؤوسها مدببة، تسعى الحشرات فوقها فزعة. غرباً يصطدم النظر بكتلة صخرية جرداء.

سحبت كرسياً وجلست في الساحة، هاجمني انقباض مفاجئ قلّص أنفاسي، امتدّ بصري إلى البساتين في الجنوب، واستقرّ أسفل الوادي حيث عين الماء الرومانية. يا الله، كم هو موحش هذا المكان! الطريق وعرة لا تسلكها سوى سيّارة "الجربان" العتيقة المحشورة بالركاب، تغادر صباحاً إلى المعرة، وتعود في المساء. أبو أحمد الجربان سائقٌ متمرس في الجبال، وسيّارته من مخلفات السفر برلك، سطحها من قماش مشمّع أصفر اللون. يمشي باكراً بعد صلاة الفجر متكلاً على الله، ينزلني حيث لا أهل ولا أصدقاء. الأغوات غرباء، ولا أحبّ أن أكون ضيفاً ثقيلاً على أحد، مع ذلك اضطررت لطرق باب مشهور آغا حين نسيتني سيّارة الجربان وقد حلّ المساء!

بدت ابتسامته المفتعلة شاحبة وسط سحب الدخان الّتي ملأت جوّ الغرفة بضباب خانق، استطعت التقاط ملامحه الحيادية، وهو يشرق

برشفات القهوة، وينفث المزيد من دخان اللف، ويتحدث عن ضيق ذات اليد وسوء الحال:

- القرية ما فيها دخان أجنبي ولا بيض ولا لحم، ولا لبن ولا زبده.

وقبل أن يكمل الآغا حديثه، دخل رجل يحمل صحن زيت ورغيفين من الخبز وبيضتين وبصلة يابسة وملح، وقال:

- حضرتم ولم يحضر واجبكم، تفضلوا للعشاء.

تطلعتُ إلى الرجال الذين غصّت بهم الغرفة، تظاهرت بالشبع، لكنّ الآغا أصرّ عليّ وشاركني العشاء!

بعد تلك الليلة، جاءني أحد التلاميذ راكضاً:

- أستاذ، زلمة جميل بيك يريدك.

على الرغم من أنّ منطف أصغر قرى الجبل مساحة وسكّانا، إلاّ أنّها تمتعت بزعامة الجبل الشرقي، وهي القرية الوحيدة الّتي تحوي مدرستها خمسة صفوف وثلاثة معلّمين. ورغم استبداد أغوات القرى المجاورة، إلاّ أنّ سياسة الحاج جميل وكرمه مع المسؤولين جعل السطوة لقريته. والحاج جميل معروف من عهد الملك فيصل، إلى احتلال الفرنسيين، إلى العهد الوطني، وكان شاغله الأوّل شقّ طريق لقريته يصله بإدلب مباشرة دون المرور بأريحا. ومع أنّه بلغ الثمانين عاماً، إلاّ أنّه يجالس الشباب وينافسهم في التدخين ويجادلهم في السياسة.

استاء جميل بيك من مبيتي عند مشهور آغا في ليلتي الأولى وعدم ذهابي إليه، فأرسل إلى المدير يدعوه للغداء، وطلب إليه أن يدعو معه ابن الحدّاد وابن الحلاق. والأغوات يعتبرون من يعمل في هذه المهن (دون) من الطبقة السفلى، وقد أراد جميل بيك الانتقام لنفسه بهذه الدعوة، لكنّي رفضتها. مدير المدرسة جوهر أفندي ألحّ - وهو يتصبب عرقاً - على ذهابي ومصطفى، شدّ رقبته من بين كتفيه محاولاً أخذ

كمية من الهواء، ومسح شعره الغزير الأسود، أدرت له ظهري لأمضي في طريقي، استوقفني قائلاً:

- أكاد لا أصدق أنك بعثي!

حدّقت في قامته المضغوطة تحت ثقل كرشه الكبير، خرجتْ من حلقه غرغرة وطقطقت كلماته طاردة حرف الراء من ساحتها:

- هؤلاء جماعة ماسو نيون كفرة.

بالتلميح طعنت جوهر في مقتل، حين ذكّرته بماضيه في حزب البعث الذي لا يعرفه غيري. عندما حققت الجيوش العربية انتصاراتها في فلسطين فرّ من هناك لاجئاً إلى بلدتنا الصغيرة، سكن التكية، وعمل معلّماً، ولسبب كنّا نظنّ أنّنا نعرفه انتسب إلى حزب البعث، ولسبب أجهله انسحب منه وطلب مني أن أكتم معرفتي أمره، وحين رأى إصراري على معرفة السبب قال بحدة:(لن يكون بعثكم بعثاً وبينكم الأوباش، وأنتم صورة مصغرة عن الشيوعية، انظر ماذا فعل ستالين، لقد أعدم أكثر من خمسة ملايين، اليهود جاؤوا بالشيوعية ليقضوا على المسلمين والكنيسة الأرثوذكسية في روسيا، وأنتم بدأتم نضالكم بفصل الدين عن الدولة.) أدرت له ظهري وصعدت الزقاق المؤدي إلى طريق الجبل. **تذكرت حينها ذلك اليوم البارد حين اتخذت مكاني أمام سينما حلب على مفترق الطرق في نهاية شارع بارون، وبيدي عريضة طويلة، أجمع تواقيع المارّة وبصماتهم. انتحى بي رجل يبدو بلباسه الشعبي أقرب إلى البساطة، وقال لي بعد أن شرحت له قضية التوقيع: ((ممكن يصير رئيس الدولة يهودياً! الصوت اليوم في الانتخابات بمائة ليرة واليهود أغنياء، يدفعون بسخاء، ويأخذون أصوات الأكثرية! روح الله يرضى عليك شغلتك وسخة. وانسحب وهو يتمتم: قال فصل الدين عن الدولة قال، شوف الغباء!))** شعرت بتلك الوخزة الّتي شقّت صدري حينها، تعاودني ثانية من كلمات جوهر الّتي لا يني يرددها:

ـ نحن لم نكن بحاجة للحرب الّتي شنها العرب في فلسطين، كنّا متعايشين مع اليهود كشعب واحد، لكنّهم عندما رأوا سبعة جيوش عربية، شنوا علينا حرب إبادة، بانهزام الجيوش العربية كانت هزيمتنا، ولن نستطيع استعادة وطننا إلا بحرب دينية مقدسة، متى أعلنّا الجهاد المقدس يُكتب لنا النصر.

أخذته من كتفه وقرّبت وجهي من أذنه:

ـ أتدري أنّك تقول الحقيقة مع إضافات لا حاجة لك بها، تكرار هذه الكلمات يجعلني أرغب بالتقيؤ، أنتم فعلاً تعايشتم مع اليهود كشعب واحد لأنّكم تشبهون بعضاً، ونحن كنّا أغبياء حين فكّرنا بالحرب لأجلكم. وأراك تميل الآن للإخوان.

أراح جسده المنتفض على كرسي قريب، وقال بلهجة حاول أن تكون هادئة:

ـ وما بالهم الأخوان؟ لقد أبلوا بلاء حسناً في قناة السويس، كلّ يوم شهداء وغارات على مستعمرات الإنكليز الذين دعموا اليهود، لكن ماذا فعل البعث مقابل ذلك؟ ألم ينشر الكفر والإلحاد، ألم ينشر الماسونية؟ إنّ أكبر بيت للماسونية موجود في أرقى شوارع اللاذقية، هل تنكر هذا؟

قلت بهدوء:

ـ أنت ضدّ حركة التحرير إذا؟ أرى أن تسأل العقيد الشيشكلي عمن باع فلسطين، فقد كان هناك في جيش الإنقاذ يقاتل لاستعادتها حين وقّعتم صك البيع.

احتقن وجه جوهر، وصعد الدم إلى رأسه، نهض ببطء وعيناه زائغتان. خاف جوهر من تقرير يطيّره من منصبه، لذا لحق ببيت جميل بيك ليثبت ولاءه للمدعوين والرئيس. ولم تكن مفاجأة أن يكيد لي، فقد لاحظت تغيّر لونه كحرباء.

أرسل الحاج جميل ابنه فؤاد ليدعونا إلى الغداء، رغم أنّ حضور فؤاد ـ معنوياً ـ يُعدّ اعتذاراً من البيك عن طريقته المهينة في دعوته لنا،

إلاّ أنّي لم ألبِّ الدعوة قبل أن أشرح لفؤاد السبب مذكّراً إياه بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (أرى الرجل فيعجبني، فأقول: أله صنعة؟ فإن قالوا: لا، سقط من عيني). وتحت إلحاح فؤاد آغا وطئت قدميّ الأوضة. وليمة كبرى نُحرت فيها الخراف مع الفريك واللبن، وقد دعي القائم مقام، ومدير المال، والتحصل دار، والقاضي، والطبيب الشرعي ومفتش المعارف. عند عودتنا من جولة في البساتين، بقينا في الفسحة دون أن يدعونا أحد للدخول إلى الأوضة! حاولت إقناع مصطفى ابن الحلاق بالعودة إلى البيت فقد كان واضحاً أنّهم تعمدوا إهانتنا، لكنّه لم يفعل. أدخلونا الغرفة الشمالية المخصصة للأجراء ومعنا كبيرهم، وجيء ببقايا الطعام، وضعت أول لقمة في فمي وأمسكت أمعائي، تقيأت وأنا أتلوى، أحضروا لي الطبيب، فنصحني بمغلي النعناع وتدفئة جسدي. غادرت المكان لا ألوي على شيء، وبقيت أتلفت حولي طوال الطريق علّ الجريان يمرّ بي، دون جدوى حتّى وصلت أريحا مشياً.

في اليوم التالي رأيت فؤاد بيك يعتلي التلّة مقترباً من المدرسة، تجاهلته وأنا أدير له ظهر الكرسي وأخاطب التلاميذ في الفسحة، تقدّم نحوي بابتسامة باهتة، حاول مداراة ضيقه بها:

- ليش عملت هيك يا إبراهيم أفندي؟ أنا بعرف إنك ما كنت مريض، بس بدك تهرب من مساعدتي في إكرام الضيوف وأنت من أهل البيت.

التفت نحوه بابتسامة مماثلة:

- أهلا فؤاد أفندي، تفضل استرح، المكان غير لائق، لكن لا بأس، الحقيقة أنا لست من أهل البيت، ومعدتي ترفض مالاً حراماً.

ظنّ فؤاد آغا أنّه سيغلبني بأسلوبه الناعم، لكنّي خضت في لحمه عميقاً مما أرعش أصابعه، فسقطت سيجارته. حاول إخفاء احتقان

وجهه عني وهو يلتقطها، واختنقت الكلمات في حلقه وهو يدافع عن مصدر أموال أبيه. جميع أهل القرية يعرفون أنّ جميل آغا كان عميلاً لفرنسا وأنّه سلّم لهم (حميد الصعب) حين لجأ إليه لحمايته، وأنّه التحق بالكتلة الوطنية، فأصبح بغمضة عين من حزب الشعب، وهو موالٍ لحركة التحرير الآن، وربّما سيكون له دور في الحركات القادمة!

أمام دفاع فؤاد آغا المستميت عن والده، قلت بلطف:

ـ ربّما مسّت الطعام يدٌ نجسة قبل تقديمه لنا، من يدري!

نظر إليّ فؤاد آغا حانقاً وقد تخلّى عن أدبه المفتعل، رمى سيجارته أرضاً وسحقها بقدمه، وأدار لي ظهره وهبط الشارع الرئيسي دون كلمة. كان جوهر يراقبنا بخبث، فضحت نظراته ما يعتمل في صدره حتّى أنّ الكلمات كانت مرئية على شفتيه، شامتة تمدّ لسانها بتحد في وجهي:

ـ أرأيت، لم تُدعَ مع الأفندية لأنّهم يعرفون أصلك، وفؤاد آغا يعلم جيداً أنّك ـ وإن أصبحت معلّماً ـ ستبقى ابن حدّاد.

كلمات جوهر المسمومة أطارت صوابي، فاندفعت دون وعي أطرحه أرضاً وأدوسه بحذائي، ولا أدري من أين جاء مصطفى الذي أفرغ غلّه فيه إلى أن خلّصه أهل القرية من أيدينا.

ظلمة غرفة السجن، تحرك الحشرات فوق ساقي، الرطوبة، وتقوّس فقراتي المنكمشة واللعنات المُنصبّة على رؤوس مجهولين، ولسع السياط في الأقبية، أشياء رسخت قناعتي بصواب ما فعلت! لكنّ الجدران الكئيبة وكفت ديداناً خلتها تتسلل في مسامات الجلد، فتلمستُ جنبي، علّ تلك الصورة الصغيرة الّتي استقرّت يوماً في جيبٍ عميق لجلابية مهترئة تؤجج في داخلي نارَ التحدي، ابتسامة صغيرة على شفتين رقيقتين، وفراشة تحط فوق شعر مرتب، وثقة توحي بها

تلك الوقفة المستقيمة. لكنّ يدي اصطدمت بجلد يشتاق لظفر حاد يهرشه حتّى يدمى.

أحصيت الأيام العشرين بدقائقها. تقلّبت عليّ أثناءها الوجوه، فتارة أرى وجه جوهر يرفع بغتة خنجراً دسّه بين ثيابه محاولاً طعني، وتارة أرى جميل بيك يدسُ لي السم في خروف تتصاعد منه أبخرة شهية!

لم يستقبلني أحدٌ استقبال الأبطال، عودتي كانت متوجة بالخيبة والتشفي في نظرات جوهر الذي بدا صمته أبلغ من الكلام، فبتّ على يقين أنّ جميل بيك بريء من دسّ السم، ولا زلت ألمح الخنجر يلمع بين طيات ثياب جوهر أفندي!

لم تمض أيام حتّى وصلني قرار مدير المعارف، بنقلي إلى قرية حاس تأديباً، ونقل ابن الحلاق إلى كفر لا ته!

عبّأت جعبتي بحكايات القرية وأنا أودّعها الوداع الأخير، غير آسف على فراقها.

رافقتني تلك الحكايات زمناً وشغلت تفكيري، خاصّة حكاية جميل بيك الذي زوّج حفيدته لمشهور آغا مقابل ابنته الصغيرة. مع الأيام تحوّلت المصالح المشتركة بينهما إلى عداوة باطنه بسبب تلك المصاهرة الّتي جلبت للحاج جميل ابناً مشوّها. أمّا حفيدة الحاج جميل فلم تنجب، ولم يستطع الآغا تطليقها لخوفه من سطوة جدها الذي كانت له صولة وجولة في الانتخابات البرلمانية، ومشهور آغا - كما علمت - لم يكن من القرية بل جاء من المعرة أيام الفرنسيين، استقطع أرضاً كبيرة، وبنى بيتاً فخماً، واستقدم أجراء وعُرف عنه البخل والقسوة، وأحيط قصره لسنوات بالغموض، إلى أن خرجت حفيدة جميل بيك عن طورها وغادرت البيت في ليلة مظلمة وهي في حالة هيجان شديدة، كانت تصرخ وتشدّ شعرها وتهذي بكلام لم يفهم منه جدها

وأهلها شيئاً، حتّى صحت من إحدى نوباتها لتخبر أمها أنّ مشهور بيك كان يرغمها - بعد تقييدها - على رؤيته كلّ ليلة وهو يعتدي على فتيات يختارهن من القرى خطفاً، أو بطريق الحيلة، فكلّ فتيات القرى اللواتي ذُبحن في الفترة الأخيرة مررن بقصره أولاً، يحضرن أوعية اللبن أو الخبز،ولا يخرجن حتّى يملّ منهن، وأنّه كان يخفي عنها ذلك في البداية ويبات معظم لياليه بعيداً عنها، ويضربها مدعياً أنّها عاقر، تجرّأت ذات ليلة وقالت له:(إنّه السبب) فقضت على نفسها. وكي يقتل الحاج جميل الإشاعة - كما سمّاها - أعاد حفيدته إلى القصر بنفسه، بعد اتفاق تمّ بينه وبين مشهور آغا لم يعرف تفاصيله أحد. لكنّ جميل بيك أشاع بين النّاس أنّ حفيدته مريضة، وأنّ أطباء من العاصمة نصحوا زوجها بإرسالها إلى مكان بعيد للاستشفاء. هل قُتلت حفيدة جميل بيك كي لا تهذي بمزيد من الأسرار؟ أم أودعت مستشفى للأمراض العقلية كما أشاعت رواية أخرى؟ لم أستطع معرفة مصيرها رغم محاولاتي الكثيرة لاستدراج أجراء جميل بيك للحديث، فقد كانوا يبتعدون عنّي بحجة الانشغال بالعمل بمجرد فتح الموضوع.

وما كنت أظن أنّي سألتقي بفؤاد آغا في المحكمة وقد تجاوز التسعين، يطالب أولاده بالنفقة، بعد هذا العز والمجد، وما كنت أتوقع أن أرى جوهر مديراً للتربية بعد أن انضمّ إلى حزب البعث العربي الاشتراكي!

❖❖❖

أهو حدس ذاك الذي أعاد سعيد إلى الذاكرة؟

لم أصدق ما سمعته حين شدّني خلدون - في ساحة البازار - من يدي قائلاً:

- ألا تريد أن ترى نتائج تحرير فلسطين؟

لم تفُتني سخريته، لكنّي لم أفهم قصده حتّى قال:

ـ لقد عاد سعيد.

ليست فرحة تلك الّتي شعرت بها وأنا أتخيّل سعيد قريباً من صدري، أشم فيه رائحة التراب والزرع، وانكسار الحلم، انحبس الدمع في مقلتي، تأملتُ خلدون ملياً وكأنّي أودُ التأكد أنّها لم تكن إحدى مزحاته الثقيلة، ما لمحته في وجه خلدون شغلني للحظات، لم يكن جاداً، لم يكن مازحاً، جمود غريب يعلو وجهه، جمود يسبق لحظات الموت القريب! فرحتي بلقاء سعيد المنتظر، أطاحت بوجه خلدون من مخيلتي. حثثت خطواتي صوب التكية. لماذا إلى هناك؟ توقفت قليلاً، لم أسأل خلدون أين أجد سعيداً! يا لحماقتي، سعيد، يا إلهي، هل يعقل أن أضمه إلى صدري من جديد فتصطدم يدي بعظام كتفه البارزة!

كدت ألمح ظلّه يخطو في فسحة الدار، اعتدال تسحب الدلو من البئر، وهو يتنحنح (يا الله، يا ساتر) ويمضي في الزقاق، جعبته ملأى بالخرطوش، البندقية الانكليزية...الـ

كم من الخطوات تفصلنا يا سعيد؟ ذكرياتنا تدفقت أمام ناظري شلال وهم، وسعيد توّج بعودته نظريات الخيبة!

قررت: (لا بدّ أنّه في التكية). سبقتني خطواتي، وامتدّ الشوق يخترق زحمة الرجال، لتصطدم نظرتي بما لا يوصف، ولا يمكن لعين أن تقبله أو يسعه قلب. كيف أتلقّى سعيد بحضني؟ وكيف أتحسس عظام الكتف بود يعيد إليّ ماض دفنّا فيه أحلاماً غضّة؟ بادرني سعيد ريّما ليزيل حرجي:

ـ لقد أصبحتَ طويلاً جداً يا إبراهيم!

وما الفائدة؟ يا إلهي إنّها ملاحظة تشبه الطعنة، لطالما تمنّى سعيد أن أكون طويلاً لأرافقه في رحلته المشؤومة تلك، خرستْ الكلمات،

وتهالكتُ على أقرب كرسي (القوم يتداولون طريقة التكريم المناسبة للاحتفاء بالبطل العائد! الحرقة في حلقك تحتفظ بالكلمات الجافة أشواكاً تدمي الحنجرة، عن أيّ بطلٍ يتحدثون، وعن أيّ احتفاء؟ هل يحتاج سعيد إلى احتفال وخطابات وأوسمة!؟ كم من الحماقات يرتكب الرجال وهم يظنون أنّهم يعلون من شأن أفعالهم؟ ليقيموا له تمثالاً يذكّرهم بخيباتهم الّتي لا تنتهي! انظر إليه جيداً، لماذا تهرب نظراتك باتجاه النافذة؟ إنّه صورة حيّة لتشوهات دواخلنا، صورة تتحرك، تتنفس، وتبول على نفسها، لكنّها لن تنهض أبداً. انظر إليه.

بالأمس مضى سعيداً، تطرق خطواته بلاط سوق الصغير بثبات، وقد امتلأ رأسه ثقة بالنصر والتحرير، بالأمس كان يقول لك:

- لنسكن سوية، انت تتخلص من " انّون " وقبوها القذر، وأنا اتخلص من هؤلاء.

يشير بيده إلى رفاق السكن المتحلّقين حول صحن الفول، يأكلون بشراهة ويتسابقون في عد د الأرغفة، سعيد يحلم بأنْ يصبح ضابطاً، ثقب رأسك بأحلامه، لكنّ حسرة صغيرة تتوسط حديثه دائماً:

. لو كنتَ أطول قليلاً يا إبراهيم...!

قصر قامتك كان غصّة لسعيد، ومنقذاً لك من دخول الجيش، سعيد يراهن على حلمه في التغيير لأنّه مدرك لواقع يسيطر على مقدرات الأمة:

. الخائن دائماً هو الأقوى، أسياده يضعونه في القمة، وللخائن أسياد كُثر، إن أزال الشعب واحداً، تعامل مع الآخر وظهر وكأنّه انبثق من صفوف الشعب، اترك الصحافة، لن تطعمك خبزاً، ولن

تحل القضية، لكن... لو كنتَ أطول قليلاً يا إبراهيم لاستطعنا معاً تحقيق المعجزات!

تذكر تلك الليلة وأنتم عائدون من السينما، حين دعوته للدخول في الحزب، قال لك ساخراً:

- أخشى أن نضطر عندها لتدخين قش الحصير بدلاً من (خصوصي للجيش).

ضحك محمود حينها وقال له:

- بل سندخن تبناً إن شاء الله.

تغاضى سعيد عن سخرية محمود وسألك:

- ألن تأتي للسكن معي، وتترك بيت أنون؟

وضع سعيد يده على مكمن الجرح، كنت حائراً، تنتظر قراراً حاسماً، ممن؟ لا تدري!

" أنّون " صاحبة المنزل الذي تسكنه، طوّقتك بقيد جديد بطلبها أن تخطب حفيدتها.

زادت الغرفة ظلمة في عينك، وامتدت رطوبتها إلى الرئتين، فتناثر سعالك شاقّاً السكون حولك، وعيون العجوز تنسجان حولك شرنقة العجز والأسئلة الفضولية، تتدخل بالتفاصيل الصغيرة، أكلك وشربك، أصدقائك وتوقيت عودتك إلى المنزل، تسهر منتظرة أوبتك، فإذا سمعتْ نحنحتك وأنت تفتح الباب، طرقت البلاط بقبقابها معلنة عن وجودها، محذرة حفيدتها من انتهاز الفرصة لرؤيتك.

اعتدال تختلق الفرص، تخرج لتملأ الدلو من البئر، تقف على حافة الجب، ترفع الحبل بعنف، وتسقط الدلو فتسمعُ صوت ارتطامه بالماء، صوتٌ أصم ثقيل، إنّه مملوء، لكنّها تعيده إلى الجب ثانية بنفس العنف والنزق! داخلك يعاني خواءً مرّاً، كم مرّة

اقتربتَ من طبق الورد ذاك، لكنّ الشوك القاسي يحذرك، فتبتعد. أنت لست أهلاً للزواج، يعذبك هذا الإحساس، طعمه المُر فوق لسانك يؤرقك ليلاً، فتبدو أمام مرآتك حشرة محاصرة بآلاف الأحذية، سعيد ينتشلك بأحاديثه من عمق البئر:

تبرز اعتدال، تسقط الدلو في البئر، تخرجه، وتقرع البلاط بقبقابها، تترك المنديل ينحسر عن وجهها، وتنظر إليك بغيظ، سعيد أيضاً يحمل في عينيه نظرة مشابهة وأحلاماً لا تنتهي، يكره البعث والصحافة، ويرى القوة السبيل الوحيد للوصول إلى هدفه، يؤمن بحجاب جدته واختياراتها، وكتبه الّتي ستحقق الحلم، ينكفئ عليها، ويطالبك بالمثل.

أثقلتْ رأسك الأحلام في طريق عودتك ليلاً، كنت تسمع صدى خطواتك تقرع الصمت في الزقاق الضيّق دافعة بإيقاعها خوفاً مقيماً في الضلوع من الزوايا المعتمة، وهدوء الليل المريب. فتحت الباب محاذراً أن تستيقظ " أنّون " فتقبض عليك بالجرم المشهود (العودة في ساعة متأخرة). أطلّت اعتدال نافرة كجنية من الجدار! للوهلة الأولى ظننت السواد المنفصل كالسهم ظلاً لشجرة النارنج، لكنّها أطبقت على فمك بأصابعها قبل أن تصدر صوتاً يفضح وجودك، شددتها نحو المدخل والدم يتصاعد إلى الرأس ويسيّر أصابعك الباحثة عن رعشتها في شقّ الثوب الرقيق، لأوّل مرّة تحسّ بتضوّر شفتيك جوعاً إلى حرارة جلدها الناعم، تدفقت في رأسك نشوة أعمت عينيك، وأصمت أذنيك، فوجدت نفسك وراء باب غرفتك تحتضنها بعنف، وتتحسس وجودك من خلال لمساتها الخبيرة!

هل كان ذاك صوت " أنّون " الغاضب الذي سحبك من سكرتك ليرميك في الشارع الخالي؟ أم رغبة سعيد في اجتماعكما؟)

لقد عاد سعيد، كيف عاد!؟

لا أدري ما الذي جعلني أتذكّر خلدون، فكّرت فجأة بملامح وجهه الجامدة الصفراء، تلك الملامح الّتي رأيتها في وجه جدتي أم عمر وهي تفارق الحياة! وكأنّ شيئاً لسعني، نهضت مسرعاً وغادرت التكية. من ساحة البازار عدت أدراجي إلى مقهى مرسال، نقّبت عنه الطرقات والأماكن فلم أجده. (خلدون! كثيراً ما صدمك بتصرفاته، لكنّه هذه المرّة جعل حواسك كلّها تستنفر، عقلك يعمل بسرعة، منذ زمن لم تعد تهتم لحاله، منذ زمن لم يقترب منك ليهمس:

- أرأيت؟ ألم أقل لك، اللعنة على الدنيا الّتي تقسم لك العيش مع أهل كهؤلاء.

(ما الذي جعل حبات السبحة تنفرط؟ أنت وخلدون وجودت وسعيد ومحمود ورياض؟

أهي تلك الاختلافات الفكرية الّتي رمت بكلّ واحد منكم في وادٍ؟ أم تراها ظروف المعيشة الّتي تفرق الأصحاب بقسوة فلا تبقي منهم إلا رائحة ذكرى لا تميّز فيها؟ تذكر ذلك الالتحام الحميم بينكم في التجهيز الثالثة، يوم خرجتم في أول مظاهرة ضدّ شكري القوتلي وصدر قرار وزير المعارف بإغلاق المدارس ثلاثة أيام. يومها راجت شائعات بأنّ شكري بيك وجماعته قد خانوا الوطن وباعوا السلاح للأعداء وأنّ صفقة جرت بين الحكام العرب واليهود على بيع فلسطين، وتولى حزب المعارضة الدعاية بأنّ الدولة لا تريد الحرب، وظهر (حزب الشعب) على أنّه المنقذ. ولم يبق أمامكم سوى اجترار الخيبة في نقاش عقيم ختمه رياض وهو ينفض بقايا المعركة عن ملابسه فيعج الغبار في الغرفة الرطبة: (لسنا بحاجة لتلك الشائعات، ففي اعتقادي أنّ - الحزب الوطني - رجعي إقطاعي، وهو ينضم إلى العملاء، لذا لا داعي للتأكد من صحة الشائعات). يومها ضحك

محمود من كلّ قلبه وقال لك: (أكاد أصدّق أحياناً أنّ رياض بعثي ولا علاقة له بأولاد العائلات). رد خلدون بجفاء: (مفهومة، السلطة ستقسم بينه وبين شقيقه كلّ واحد في جبهة!). جودت الوحيد الذي لم يظهر يومها ولم يشارك في نقاش واكتفى بهز رأسه باستهزاء وهو يزدرد لقيمات الفول الباقية في الصحن دون أن ينظر إليكم!

برز لك فريد أفندي فجأة - وأنت بمحاذاة المدرسة - من بين أشجارها، ابتسم متهكماً، رأيته يضرب رأس جودت بالجدار، كلّ الأمور تتشابك لتخبرك عن أمس دافئ لصغار كانوا هنا في هذه الساحة، يتدلّون من النوافذ ويهربون إلى البساتين! ابتسمت، رحم الله فريد أفندي، لو أنّه عاش إلى هذه الأيام ماذا سيكون رأيه فيما يحدث؟ كدت تضحك وأنت تتخيله يشتم ويتراجع بقامته المحنية إلى الخلف مستغرباً ما تفعلونه، طرق صوته سمعك وهو يصرخ بغيظ: (اللعنة عليكم، أخذتم سلام لديغول!). انتبهت إلى أنّك ما تزال في الشارع، دلفت المقهى وناديت عائشة لتحضر القهوة.

فتحت مجلة المصور، العدد الممتاز، كنت تتوقع أن تجد خبراً جديداً عن أزمة حزب الوفد، طالعك الفاروق بطلعته البهية، وخبر زواجه السعيد من جلالة الملكة ناريمان، تمليت جيداً في الملامح، لولا الثوب الملكي الفاخر لهتفت من أعماقك إنّها (ناريمان)، لكن شتان بين حياد يسكن الملامح الملكية الجامدة، وابتسامة(ناريمان) الّتي تفترّ عن أسنان مصنوعة من لؤلؤ شديد الصفاء. فتغوص العينان في بحيرة العسل، وتغرغر بكلمات ترفّ بأجنحتها في أفق روحك، شتان بين شعر مصفف أنيق وآخر تداعبه الريح فيسبقها لاختطاف أنفاسك. هل نسيتها؟ صحيح أنّ تلك الأيام تضحكك أحياناً، **وترى فيها فورة الشباب الأولى وسذاجته، لكنّك لا زلت تذكرها!**

(أذكـر شـقيقها نـادر رغـم محـاولتي تجاهلـه، شـكله الـشديد النعومـة كـان ينفرنـي، هـل كنـت فلاحـاً جلفـاً أم كـان متـهاوناً حـدّ الميوعة؟

رجّحـت مـن تـصرفاته أنّ العيـب لـيس في ريفـيتي المفرطـة، فتـصرفت معـه بخـشونة. اسـتوقفتني أمـه معاتبـة علـى بـاب الفـرن، بصوت رقيـق دعـتني لزيـارتهم لكنّـي تملّـصت مـن حـصارها وركـضت بـالخبز الـساخن. يـداي تحترقـان وذاكرتـي تستحـضر وجهـاً أليفـاً لحمدي رفيق الطفولة، وجهه اللافت بجماله الأخاذ، قضبان نافـذة الصّفّ المحاطة بعيون التلاميـذ المحدّقة باسـتغراب! وجـه الـصباهي المقيت، وعصا زكريا أفندي وتلك الذكرى المقيتة لاغتصابه!

أم نادر لوّنت صوتها بحنان عميق:

- وين الغلط؟ الأخوة يقبّلون بعضهم، نادر أخوك الصغير!

كـلّ صـباح يتمهـل نـادر وهـو يمـرّ بـي، يـربكني شـكله الأنثـوي، وبدانتـه الملفتـة للنظـر ومـشيته المتراقـصة، يـشبك يـده بـذراعي، ويسترسل في الحديث عن الأغاني الّتي يبثها المذياع..

ذات يـوم همـس لي بـأنّ شـقيقته تـدعوني إلى الغـداء في بيتـهم، كـان ذلـك أمـراً غريبـاً، لم يـسبق في حيـاتي أن سمعـت بمثلـه، فتـاة تـدعو شـاباً للغـداء! (لمحتّـك مـن النافـذة.) أضـاف نـادر. قولـه ذاك هزّني بقـوة، أخـذتني نـشوة غـرور، تبعهـا اسـتغراب، فـذهول، لا أدري كيف مضى ذلك اليوم، لكنّي أدرك الأسـباب الحقيقيـة الّـتي جعلـتني أرفض دعوة نادر وشقيقته!

قـرب العتبـة في الفـراش الرقيـق انحبـست أنفاسـي تحـت لحـاف يشكو سـوء الـدهر. حـاولـتُ تـشكيل صـورة ناريمـان علـى شـكل نـادر، ألهبتّ مخيلتي ببياضٍ يشف عـن دورتهـا الدمويـة، لاحقـتني مـصرّة على سلبي نعمة الرقاد، وفشلت كلّ محاولاتي للتخلص من طيفها.

كان انغماسي اليومي بالدرس وتلبية طلبات البيت المنقذ الوحيد من صورة متخيلة لفتاة حاولتْ أن تستحوذ على مشاعري وأفلحت. فتحت ناريمان بيدها باب الجنة، بلكنة تركية رحّبت بنا، خصّتني بنظرة متفحصة ومضت، تَبِعتَها خطواتي إلى فسحة الدار، واستقرّ الجسد على كرسي خلف طاولة الطعام الأنيقة. بعيداً جلستْ تخالسني النظر، تكشف ابتسامتها عن دعوة غامضة، وحركات ساقيها عن عدم اكتراث، ويعلو أنفها شامخاً كأنّه نُحت من صخر، ذهلتُ عمّا حولي، أمها أخذت المبادرة، فتوجهتْ إليها بكلمات تركية، شعرتُ أنّها توبخها! نهضت مقتربةً منّي، سكبت لي الطعام، وتركت شعرها ينسدل ملامساً كتفي من الخلف، هاجمتني رائحةٌ أسكرتني، أمها ابتسمت:

- ليش ما عم تاكل؟

نظرتُ إلى الأيدي، أرقب السكاكين والملاعق، تتوه النفس، وتستقرّ على لقيمات تندفع بخجل إلى معدتي، تتعثر أفكاري بواقعها المر (هناك في نهاية سوق الصغير على كتف الرابية، تنتهي الحياة في غرفة ضّيقة وفراش بائس، هناك أستعيد بدء الخلق، وتتجلى ناريمان ربّة تنظر من علٍ بفوقية ودلال، هناك أدفن حلماً وأخلق آخر.)

أم نادر عرضت عليّ العمل عند ابنها الطبيب في العيادة، أنام هناك، وأؤمن مصاريف الدراسة، وأصبح طبيباً فيما بعد، وتزوجني ناريمان. يا إلهي! أيتسع الحلم لما تفوهت به تلك المرأة بلكنتها التركية؟

الأفكار السوداء طرقت رأسي بفجاجة (أيعقل أن تزوجني هذا الملاك؟ ماذا رأت فيّ؟) ليس معقولاً أن أعمل في عيادة طبيب، أمسح وأكنس، و...

رفضت أن أكون أجير حائك، فهل أصبح خادماً؟ لم تكن هذه الفكرة سبباً كافياً لهروبي من وجه ناريمان، كان هناك ما يغصّ به الحلق فيندفع أشواكاً تدمع لها العين، هيئتي، طريقة عيشي، وذاك الحلم الذي يهرب أمامي كسراب في صحراء قاحلة، أركض إليه ولا أصل!

طلب الأستاذ منّا كتابة موضوع تعبير ((صف حريقاً)) ليلتها لم أنم، حاصرتني ناريمان ثانية، لا أدري ما الذي جعلها تتسلل بين السطور، وما الذي جعلني أصبح بطلاً منقذاً؟ لكنّها ألحّت بحضورها حتّى غلبني النعاس.

ما أشعرني بالبطولة الحقيقية تغلبي على (حمو) الطالب المجد الأثير لدى مدرس العربية. حمو الأوّل في الإنشاء، الأوّل في القواعد والفصاحة، تفوقه حزَّ في نفسي، فدفعني لمنافسته. هل كانت ناريمان سبباً في بطولتي تلك؟

قال الأستاذ:

- المنفلوطي لا يأخذ مئة في الإنشاء لذا ارتأينا أن نضع لك تسعين علامة، ستكون كاتباً عظيماً في المستقبل إذا تركت شيئين، التشاؤم والسخرية من الآخرين.

لم أر العيون المحدّقة بي أثناء القراءة، كنت أخفض الصوت مناجياً طيفها، ويرتفع ضارعاً لشفائها، حتّى شعرت باختناق وغصّة تقبض على حنجرتي وأنا أحملها بعيداً إلى المقبرة بعد فشلي في إنقاذها من الحريق، تراكم الدمع في حلقي، وساد الهدوء القاعة، وعلت أنفاسٌ تترقب الحرف، وأيد تفصح عن توتر يوشك أن ينفجر.

لم يكن البعد عنها بالأمر السهل، يدٌ تدفعني إلى الباب الموارب، وقدمٌ تركلني بعيداً لأصل نهاية الزقاق بسرعة.

أدلف الصّفّ، أنغمس من جديد في مهاترات الشرق والغرب، والتكتلات الحاقدة، علّي أبعد طيف الأنف الشامخ، والنظرة المتفحصة.)

قلّبت الصفحات، أنستك صور القصور والأشخاص، ما كنت تبحث عنه، عدت إلى البداية لتتأمل صورة شادية في دعاية فيلم (الصبر جميل)، تنهدت للمفارقات الّتي وضعك بها أصحاب المصور (إميل وشكري زيدان)، دعاية لفيلم (زينب) لمحمد حسين هيكل باشا، والدكتور حسين هيكل باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين، يغتبط بزواج الملك ويضرع إلى الله أن تسعد الأمة بسعادته، وأن يمن الله على الملك بوريث لعرشه. توقفت طويلاً على أطلال الكلمة! أترثي نفسك أم الأمة؟ وضعت العدد (الممتاز) على الطاولة، تحسست جيبك الفارغ، أكانت تلك الوجبة الملكية من الصور والأفراح والشخصيات تستحق أن تصرف آخر قروش قبضت عليها زمناً لتحافظ على توازنك؟.

❖❖❖

على فرس قطعتُ المسافة إلى قرية حاس المنفية بين الجبال الوعرة.

استقبلني وجه كريه لرجلٍ قصير أصفر اللون، يرتدي عباءة وعقالاً. صاح بأحد الشباب:

ـ خود الفرس من الأستاذ.

وتشاغل عني بالحديث مع بعض القرويين، سألته عن فندق أقيم فيه، هزّ رأسه ساخراً:

ـ لسنا في المدينة، في المعرة ما في فندق.

الغريب يأوي عند معارفه ولا معارف لي في القرية، فقصدت بيت المعلّم السابق. استقبلني سامي بالترحاب، مستعيداً ذكرياتنا في

الابتدائيـة، إحـسـاسـي بـأنّي أقطـع رزق سـامي تـشبث بحنجرتـي مـع الظـلام الـدامس والرطوبـة العالقـة بالجـدران. أشـعلت عـود كبريـت وتلمّست علبة الدخان، لم تكن الغرفة تتسع لهواء فاسـد أنفثه بضيق مـن صـدري فـأزداد اختناقاً. التمست الخـلاء قـرب الجـامع المهجـور شمالاً، هبّت نسمة لسعت مؤخرتي، فشعرت بالـصحو ينبـه أعـصابي إلى واقع لم أصدق أنّي حُشرت فيه رغماً عني وعليّ التأقلم معه! لم يكن لي يد في سير الرياح، لكنّي غالباً أقف في وجهها متحدياً رغم قناعتي أنّها قادرة على اقتلاعي كقشة على بيدر، تذروني حيث تريد!

عند (أبو عبود) حططت الرحال في (علّية) مربعة الشكل، نظيفة. استطاع هـؤلاء البسطاء أن يغرسوها بالود مما جعلني أتعلّق بالقرية وناسها، لدرجة شعرت معها أنّي مسؤول عما يحدث من مغالطات بشكل مباشر، فدخلت معمعة الصراع القائم بين رجال البيك وشباب القرية الذين تحلّقوا حولي مبدين إعجابهم بالأفكار الّتي غذيت روحهم بها، كانوا متحمسين لنزع الملكية من الإقطاع بعد اقتناعهم أنّ أمواله نهبت من عرق الفلاح وجهده، وقوت أولاده، أو من عمالته لفرنسا أيام الاحتلال. بدأنا بالمختار علي مصطفى ذلك الكريه الذي انطبع وجهه في مخيلتي فور نزول قدمي بأرض القرية.

استقبلني أبو عبود بوجهه الهادئ بعد عودتي من أحد الاجتماعات وأسنانه تتحرك مع سيجارته فيسقط فكه العلوي بشكل لطيف مغيّباً شفته السفلى ليعبّر عن عدم رضا لا يقصده:

ـ قال أستاذ بدكن ترجعوا لنا الأرض؟ صحيحة الخبرية؟

قبل أن أتم شرح المسألة للشيخ العجوز قاطعتني كنته (أم تركي) باقتحامها الغرفة دون استئذان وهي تحمل طبقاً من القش يحوي أطباق الطعام:

- والله يا أستاذ، أنت زين الشباب، ايش رأيك تخطب من عنا وتفرّح قلوبنا؟

أم تركي البسيطة ألقت بجملتها المعتادة الّتي تظن أنّها ترضيني بها. ربّما يكون اهتمام فتيات القرى بالغريب نابعاً من تطلعهن إلى جوّ المدينة الغامض، وقد كانت عجائز القرية كلّهن يتمتعن بتلك البساطة الّتي تقترب من السذاجة أحياناً، يضحك الصباح في تحيتهن لي مع باقة ورد بلدي:

(قواك الله أستاذ، لسه كتير لتصير دركي؟ والله بدّنا نفرح فيك).

كنت أضحك ملء رئتي: (أمامي الكثير من الزمن).

دخل حسون عليّ يجرُ ساقيه بصعوبة، ارتمى بجسده النحيل على الفراش منهكاً، أحنى رأسه محدّقاً في الأرض، فبرز تقوّس ساقيه وانحناء ظهره فبدا لي غريباً عن شكل الإنسان. تأملته بعطف، منظره مثير للشفقة، كنت أمازح أمه قائلاً: (من أين أتيت بهذا العبد الأسود يا أم عبود؟) فترد ضاحكة: (والله البطن بستان يا أستاذ، فيه أشكال ألوان).

حسون لا يفقه شيئاً في الزراعة الّتي يسيّرها شقيقه عبود القوي كحصانه المشهور بهدوئه. لكنّه قليل الكلام دائم الشرود، يحملني بعربته مع المزروعات كلّ خميس إلى المعرة، وأحاول أثناء الطريق أن أجرّه للحديث في الأوضاع العامة للقرية، فيكتفي بهز رأسه وابتسامة رضا لا تفارق شفتيه، فاجأني الخميس المنصرم بتسمية ولده الجديد إبراهيم متمنياً أن يصبح معلّماً في المستقبل! لم أستطع سبر غور هذا الفلاح القوي الذي يرفض الحديث في السياسة ولا يفرحه سوى الزرع وهو يشقّ التربة معلناً عن موسم قادم. أمّا حسون فنادراً ما كنت أرى أسنانه الشديدة البياض تلمع بين شفتيه الغليظتين. اليوم جاءني على استحياء، فعرفت أنّ هناك ما يحرجه البوح به، تنحنح قليلاً وابتعد

صوب العتبة، ثمّ أقبل بشكل مفاجئ يقبّل يدي. تراجعت إلى الخلف مستعيذاً بالله متسائلاً عمّا حدث، بصوتٍ رفيع متقطع قال:

- دخيلك يا أستاذ توسط لي عندها.

قلت بدهشة:

- من؟ من هي الّتي تريدني أن أتوسط لك عندها؟

- آمنة الجمل يا أستاذ، أوجعت قلبي، رفضتني.

بهتُ من قوله.. آمنة؟ هل يعقل هذا! تلك السمراء الممتلئة الّتي تقف في الشجار تقاتل عشرة رجال! ماذا تفعل بحسون وهو لا يملك شيئاً من حسن الشكل ولا قوة الرجال، ولا منطق العشاق. ولا حتّى جمال الصوت! ولا أدري لماذا سمّته أمه حسوناً؟ آمنة! ألم يجد في القرية غيرها؟ كان يستجديني معبّراً عن قهر يتحكم بروحه وجسده. لم يفارقني استغرابي، من حقّها أن ترفضه، وكيف تقبله وهو هش ضعيف لا يحتمل منها لكمة على صدره؟ لكنّي بحكم المودّة الّتي جمعتني بهذه العائلة الكريمة لم أستطع رفض طلبه، رغم قناعتي بعدم جدوى الوساطة مع آمنة.

كنت أتمشى في البساتين صوب العين، حين لمحتها قادمة في جمع من الفتيات. تحت وشاحها الأسود المقصّب تنساب ضفيرة سوداء ناعمة، وقد شدّت ثوبها المزركش الطويل بحزام مقصّب، اختالت الورود فوق سواد الثوب حمراء قانية، وانسحب اللون إلى وجنتيها. هي بعينها، آمنة الجمل، فتاة يميّزها الطول والبنية القوية، والمشاكسة تنفر كغزال من عينيها الودودتين الواسعتين بسوادهما القاتم، مع نعومة في الضحكة لا تناسب بنية جسدها وقدّها.

حين اقتربتْ مني، رمقتني بنظرة متفحصة، وهمستْ لرفيقاتها، فتعالت ضحكاتهن وهن يتجاوزنني ويلتفتن للخلف. لم أجرؤ على الحديث معها، لقد سمعتهم يقولون: (إنّ آمنة بعشرة رجال، لا أحد

ينافسها بضرب العصا). عند المنحنى، التفتتْ نصف التفاتة وابتسمتْ مشجعة، لكنّي بقيت مسمّراً في مكاني، أنتظر خلو الطريق. عندما حلّ المساء، كان حسون ينتظرني قلقاً:

- أي أستاذ، خبّر.

تملّصت من الجواب، موحياً إليه أنّ الفرصة لم تسنح لي.

كان لا بدّ لي من تلبية دعوة "أبو موسى" الرجل الذي أبدى كرماً في استقبالي منذ وصولي إلى القرية، وهو شاب في العقد الثالث، مفتول الساعدين، طويل القامة، فقد إحدى عينيه في معركة مع رجال البيك. حين وصلت داره رأيت علم البعث يرتفع فوق سطحها، قلت في نفسي: جيد سأجد مناصرين هنا. لكنّه خيّب ظني حين قال لي إنّه من رجال أكرم الحوراني، وشرح لي باستفاضة محاربة أكرم للإقطاعيين، وأردف بأنّ البعثيين لا يشعرون بمآسي القرى ويكتفون برفع الشعارات، بينما أكرم همه الأوّل القضاء على الإقطاع والرجعية وخلق مجتمع اشتراكي.

وقد اصطحبني إلى أوضة الآغا ليريني عملياً كيف تتم معاملة الإقطاعي لرجاله وللمختار وللفلاحين، وأشهد أنّ ما رأيته هناك من إذلال الإنسان البسيط جعلني أقدّر مواقف "أبو موسى" وأفكاره.

صباح اليوم التالي استلمني هامساً في أذني:

- صحيح أستاذ ستتوسط لحسون عند آمنة؟

حذرني أبو موسى من التورط في الوساطة فآمنة سترفضها حتماً، الكلّ في القرية يعرف أنّها تحبّ شاباً يدرس في حلب، وهي تلتقي به في البساتين أثناء الإجازات، ودون حراسة من أحد!

قوله كان صحيحاً. ساقتني المصادفة لتضعني في طريق آمنة ثانية. كنت أشعر بضيق يتشبث بروحي، أقف على السطح أتأمل الغروب، الشمس تغطس في عين حمئة واللهيب يتصاعد من عيوني. نزلتُ الدرجات منوّماً دون أن ألقي التحية على أم تركي الّتي اعترضت

طريقي سائلة عن وجهتي، لم أكن أشعر بالموجودات من حولي، أهو الحر؟ أمْ القهر؟ أم اللاجدوى الّتي بتّ أشعر بها هذه الأيام؟ لم يترك العوام شيئاً لم يسجلوه في أمثالهم، حقّاً بين تشرين وتشرين صيفٌ آخر، لكنّه صيفٌ يطبق على الروح، صيف مختلف، سكون النسيم في البساتين يسدّ مسامات الجلد فيغدو لزجاً مقرفاً، والأشجار مسمّرة بلا حراك. جلستُ بين أشجار الزيتون وران صمت ثقيل جعلني أغمض عينيّ بحثاً عن مستقبل مبهم، وألحَّ عليّ السؤال: (أهذا ما كنت أريده؟) معلّمٌ ينتقل بين القرى ولا يجد بيئة نظيفة للعيش؟ لا، ليس هذا ما حلمت به، كنت أريد... ما ذا أريد؟ أن أصبح كاتباً!؟ فاجأتني ضحكة هاشم منطلقة من عمق البساتين، ضحكةٌ مجلجلة نفضتْ الحلم من رأسي، هل أحلم وأنا يقظ؟ مرّة أخرى سمعت الضحكة، تلاها همسٌ نسائي عذب، لا، لم يكن حلم يقظة، هناك فتاة بين الأشجار ومعها... نعم، ران صمتٌ آخر قطعته نحنحة فظة، بعدها اقتربتْ خطواتٌ متعثرة خلف خطوات واثقة تضرب الحصى بقوة. مرّت أمامي يتبعها رجل قصير القامة، نحيل، محني الكتفين، راقبت انسلالهما الهادئ، كانت آمنة تبدو في العتمة الّتي يضيؤها البدر ضخمة تسدّ الدرب، حبيبها يسير متتبعاً خطاها. لم أرتح للمنظر، هناك شيء شاذ، لم تحسن آمنة الاختيار، هذا أوّل ما تبادر لذهني، وجعلني مصمماً للتوسط عند أبيها لحسون العاشق المسكين.

استقبلني والدها مُرحباً:

- أهلا بالأستاذ، زارتنا البركة.

دخلتُ مباشرة بالموضوع، شرحت له قصّة حسون، سمعت ضحكتها الخافتة كنهر بارد عذب في هذا القيظ المقيت، التفتُ فوجدتها تتغامز مع أختها بخبث. أدخل والدها لفافة التبغ بين شفتيه، ورمقني بعينين صغيرتين، عبّ الدخان من عود طويل مثقوب (مشرب) وأخذ يحكي لي

حكايات عن العشاق في القرية، ومصير البنات اللواتي يخرجن عن إرادة أهلهن، وكاد يخرجني عن طوري فأفصحُ عمّا رأيتُ ليلاً في البساتين، لكنّي تمالكت نفسي لأجل حسون. أخيراً عدّل حطّته، وأطرق قليلاً وهو يلف السيجارة العاشرة ويضعها في المشرب. نفث الدخان وأفصح عمّا بنفسه:

ـ شوف أستاذ، الفرس بدها خيّالها، آمنة ما بدها حسون، وهو ما بيناسبها، آمنة ما بتليق لغيرك، إذا بدك إياها ما عندي مانع.

اصطدمتُ بآمنة الّتي تحمل كأس الحليب وأنا أغادر مسرعاً دون وعي، ووالدها يناديني.

كانت نظراتها الساخرة تلسع ظهري، أشعر بها حادّة تنغرس كأنياب في عمودي الفقري والعرق يسيل أسفل ظهري حارقاً، مشبعاً برائحة الإهانة.

بعد يومين التقيتها بدرب وعر خال من المارّة، صدمتني بصدرها بعنف، كدت أقع على إثره لولا تمسكي بها، انتفضتُ بقوة، وابتعدت وهي تمطرني بعباراتها الساخرة.

جاءني حسون هذا الصباح، جلس على الكرويت رافعاً رأسه لأوّل مرّة، ببطء نطق كلماته:

ـ ليش عم تتهرب مني أستاذ؟ رح أتزوج آمنة.

كانت كلماته الواثقة مفاجأة لي، تطلعت في وجهه علّي أفهم أكثر، لم أصدق ما سمعته، اشتراها! كيف؟ حاولت أن أفهمه أنّ الحب لا يشترى بالمال، لكنّ حسون أصمّ أذنيه، أيعقل أن يكون حسون بهذا الخبث؟ نارٌ اندلعت من الرماد، نعم، كان جمرة تحت الرماد، لم أرها، ربّما لثقتي الزائدة بفراستي الّتي خابت عندما رأيت نظرة حسون الّتي رماها عليّ قبل مغادرته الغرفة وهو يعرج بتثاقل.

أبوه كان يلهث بقلق: (المجنون سيرده والدها خائباً). الرجل الهادئ العجوز امتلأ غيظاً، لم يكن ليصدّق أنّ آمنة سترضى بحسون، كان يخشى على عظامه من الكسر، وعلى قلبه من التحطم عند قدمي سيّدة نساء القرية، لم يبح لي بما يشغله، بقي على جلسته القلقة تلك، يقلّب حبات السبحة بتوتر، ويتمتم بآيات قرآنية نافخاً صوب الباب، حتّى قطعت زغرودة مفاجئة مصحوبة بالبكاء - من أم عبود - على كلينا رحلة الغيظ والقلق، لقد وافق مصطفى الجمل على طلب حسون! أصابني الذهول، كم دفع حسون ثمناً لآمنة؟ وكيف رضيت هي بالصفقة؟

دخلت آمنة شامخة الأنف، رمقتنا بلا مبالاة، وخطت إلى غرفتها قبل أن تحفّ بها الصبايا. لقد حظي بها حسون. وبين ليلة وأخرى ظهر لحسون وجه لم أكن أعرفه، فكنت أسمع شجارهما ليلاً، ويده تهوي على وجه آمنة، فيتملكني الذهول، آمنة وحسون؟! كيف حدث كلّ هذا؟!

لم يطل الأمر حتّى ردّ حسون احتقار آمنة الصامت إلى نحرها بقوله الحقيقة الّتي تركتنا مسمّرين كلّنا في باحة الدار ننصت إلى غضبه المتصاعد دون أن يتدخل أحدنا. انتحى عبود جانباً بزوجته، همس لها، ودخلا غرفتهما وأغلقا الباب، شعرت بالحرج فانسحبت إلى العليّة. لكنّ صوته اخترق خلوتي وهو يقول لها: (لقد تركك، بمالي، أنا اشتريتك منه، أتفهمين؟ لقد دفعت لهما، أبوك أخذ مني خمسين إنكليزية ذهب، وعشيقك...). آخر ما كنت أتصوره أن تكون الصفقة على شراء آمنة قد تمّت مع عشيقها النذل الذي آثر أن يبيعها بالدراهم ليشتري مستقبله بعيداً عن القرية. والحبّ؟ طحنني السؤال هازئاً من مشاعري. لمست جنبي بتردد، الحب؟ إنّه صاعقة اخترقت القلب، هناك حيث كانت واقفة تتأمل الأشجار المثقلة بالكرز، تحاذر

على حذائها الجديد اللامع من الغوص في التراب، يريكها النسيم الذي يداعب ثوبها القصير، كم كان يدهشني ذلك الثوب، كنت أتأمل تلك الزهرات البنفسجية الزاهية، تحطّ عليها فراشات ملونة، وأزرار كحبات اللؤلؤ، ما كان يدهشني أكثر كيف كانت تحافظ على تلك النظافة والأناقة! تابعت عيناي المتلصصتان حركاتها وسكناتها، طريقة جلوسها، تأمل النظرة الهادئة في البعيد، وتلك المحفظة الصغيرة التي تحملها في يدها وتحاذر أن يلمسها أحد. شيءٌ كان يغلي في داخلي، أغلبه فضول لمعرفة تلك الأسرار الدفينة داخل الجلد المخملي لحقيبتها الصغيرة. كنت أراقبها من وراء تنكات الزرع وهي تجلس كأميرة على النصيف[4] وتسرّح نظرها في الخضرة الداكنة لأشجار الجوفية. وأنتظر كقط جائع فرصة الانقضاض على فريستي. وجاءت الفرصة تسعى على قدميها فقد نهضت أمها وأمي لزيارة أم محمد جارتنا، وطلبت منها أن تنتظرها. حينها كنت أفكر (كيف سأخدعها وأسرق الحقيبة؟) قلت لها بخبث:

- هل تعرفين الخضراء؟

قالت باستغراب:

- لا، من تكون؟

أقنعتها بالنزول إلى القبو لأريها حمارتي العجيبة، التي تفهم الحديث كالنّاس، وعلى الرغم من نظرات الشك في عينيها إلا أنّها قبلت أن تصحب ولداً متسخ الثياب إلى القبو المظلم لترى الحمارة التي تتكلم! بعد أن سرقت محفظتها وأودعتها جيبي، كانت تبكي من الخوف، ماذا ستقول لأمها؟ إذاً هي مثلي تخشى العقاب، رقّ قلبي لبكائها، فصرت بطلاً! كنت المنقذ من العتمة والحمارة العجيبة،

---

[4]- النصيف : بتسكين النون ، مكان للجلوس أمام الغرفة المبنية على سطح البيت

وأعدت لها حقيبتها. حدّثتني بعد زمن أنّ قلبها ظلّ يخفق بسرعة كبيرة كلّما تذكرت منظر الحمارة الهائجة التي كادت أن تعضها، كانت تتخيلها كبيرة جداً، لا بد أنّها أوهامها التي صورت لها ذلك. وأقنعتها ببساطة أنّ الحمارة يمكنها أن تمد يدها لتسرق أشياء النّاس الذين تحبهم! كم من الحكايات اخترعتُ لها! كم... لكن أهو الحبّ؟

ظهر السبت وأنا عائد إلى غرفتي، فوجئت برجال الدرك يحتلون غرفتي، افترش الجاويش لحافي فوق الكرويت بجزمته الوسخة، وباقي الدرك جلسوا على الفرش أرضاً، المنظر أفقدني اتزاني، فصحت بالشاويش:

- ارفع رجلك عن اللحاف، أنا أضعه فوق رأسي عند النوم.

صعق الشاويش من كلامي وكان يتصدر الكرويت مادّاً رجليه بوجوه القرويين الذين ملؤوا الغرفة وهو ينقر على جزمته بالخيزرانة، توجهت إليه لأزيحه عن اللحاف، فرفع عصاه بوجهي وأحاط رجاله بي. انتحى بي أحدهم جانباً، ورجاني أن أهدأ وأعتبرهم ضيوفي.

أعرف أنّ ابن بلدي ذاك كان يريد تجنيبي ورطة احتكاكي بالشاويش والمختار، لكنّ الدم فار في عروقي ولم أعد أرى بعينيّ، سحبني عبود خارج الغرفة وهو يعتذر، وركض يرفع الفراش وينفض عنه الغبار، ويحضر الخراف ممدة فوق طبيخ البرغل، ومعها أوعية اللبن. وضع خروفاً كاملاً أمام الشاويش، وبدأ الدرك سباق الأكل الرهيب، الدهون تسيل من ذقونهم وأنا في ذهول من الأمر. تساءل الشاويش وهو يرمقني بلؤم عن سبب عدم مشاركتهم الطعام، سؤاله كان فخاً، سحبني عبود منه بمناداتي لشأن هام!

جيء بالمتهمين ووضعت الأسلحة والخيزرانات بحالة تأهب، الشاويش يأكل ويتجشأ ويلهث من شدّة التعب، والدرك يقومون بربط شاب طويل أسمر إلى الفلقة بعد أن طرحوه أرضاً وكتّفوه، بدؤوا

بجلده حتّى أغمي عليه، رشوا وجهه بالماء، وعادوا إلى بطحه أرضاً بعد إيقاظه بدلو ماء، وأخذوا يجلدونه من جديد وعبارة واحدة يرددها الشاويش:

- ستقول وين هي يا ابن ال...

لم أستطع تحمل ما يحدث، كنت أصيح مهدداً برفع الأمر للمحافظ. الشاويش ابتسم لي، ابتسامة تقطر دماً ودهناً، وهددني هو الآخر بتحريض أوباش القرية على ضربي حتّى أغادر القرية مذعوراً!

تشقق حلقي وأنا أصرخ: (سنرى من سيفر).

لم أفطن في المعمعة الّتي حصلت أن أسأل عبود عن سبب حضور الشاويش إلى بيتهم، لكنّي فهمت فيما بعد أنّ آمنة مطلوبة لأنّها طرحت ثلاثة رجال أرضاً، وضربتهم بشدّة! لقد سَمعَتهم يضحكون من قصتها مع حسون، صحيح أنّها لم تحبه يوماً، لكنّها لم تحتمل ذلك التلميح إلى ذلها.

(بعد أكثر من عشر سنوات، وقفتُ في المحكمة لأدافع عن آمنة في مقتل حسون. كبرت آمنة، وتغيّر شكلها، لم تفقد لسانها السليط ولا ضحكتها الطريّة الشديدة العذوبة والّتي تنبه حواسك إلى الأنثى الكامنة وراء المظهر الخشن لتلك السيّدة القوية، لكنّ جسدها الممتلئ، أصبح أكثر ضخامة وترهلاً وإن احتفظت بمشيتها الواثقة كمشية العسكر. قالت لي وهي تتنهد بحرقة:(والله يا أستاذ يستاهل القتل).

رغم ما قالته آمنة، كنت مقتنعاً ببراءتها، فقد أذاقها حسون من الإهانات مالا يحتمله بشر، خصوصاً أنّها لم تحمل منه واتهمها بالعقم، في فورة غضبها تركت له البيت، وطلّقها حسّون، لكنّه راح يعضُ أصابعه ندماً حين تزوجت من عشيقها السابق وأنجبت منه، لم يعد حسون المطعون في رجولته يرى أمامه، ركبه الحمق فصار يقطع عليها الطريق مطالباً إياها بالعودة إليه، وصار يُشيع أنّه لم يطلقها وأنّ

زواجها باطل. وجدوه ذات ليلة مقتولاً في البساتين، وقد قطع لسانه وحشر في...

آمنة لم تترحم على حسون أمامي ووقفت قبالة القاضي بثبات لتنفي أنّها مذنبة، لكنّها أصرّت على عباراتها، كان يستحق القتل.

بعد تلك الحادثة بسنوات، فوجئت بعبود وزوجته أم تركي ينتظرانني أمام المحكمة، ركض عبود يقبّل يدي والدموع في عينيه، وفهمت من تلعثمه أنّ الأمر يخصّ إبراهيم. ذاك الذي تمنّاه معلّماً، قتل خاله وابنه. القصة كانت مريعة، فالشاب الذي يخدم في الجيش، عاد إلى قريته ليلقى خطيبته (ابنة خاله) فوجد عندها شخصاً آخر، عرف من النّاس أنّ خاله يضحك عليه، ويأخذ نقوده ويريد تزوجيها للثاني! ضرب الدم دماغه فحمل مسدسه ولقي خاله في البستان وهو يعمل، أطلق عليه النّار وعلى ابنه الذي يساعده. ماذا أفعل لإبراهيم؟ قضيته لا حلّ لها لأنّه سيمثل أمام محكمة عسكرية. ذهبت إلى دمشق وقابلته في السجن، وأعلمته أنّ أمامه طريقاً واحداً لتخفيف حكم الإعدام، ونفّذ إبراهيم، وادّعى الجنون، لكنّه فيما بعد جُنّ حقّاً وهام في البرية لسنوات حتّى وجدوه ميتاً من الجوع والبرد وقد مزّقت الذئاب جثته.).

تقدّم علي المصطفى بشكوى إلى المعارف، باشر عبد القادر أفندي مفتش المعارف التحقيق معي ظنّاً منه أنّه وضع يده على جريمة ستؤدي إلى تسريحي وأحالني إلى مجلس التأديب. اختصرت الطريق ووقفت على مفرق تفتناز لآخذ السيارة إلى دمشق. وصلت ليلاً وأعياني البحث عن فندق. ليست المشكلة في الليل وحده، بل في النهار! أخيراً صادفت غريباً أخرجني من متاهة وضعني بها أولاد البلد، وأرشدني إلى قصر العدل. حين مثلت بين يدي الرئيس سألني مستغرباً:

ـ أنت محال إليّ بتهمة الاختلاس وتحقير المفتش أثناء قيامه بالوظيفة.

بهدوء أخرجت الوصولات الّتي تثبت أنّي لم أدفع بعد ثمن المقاعد الجديدة الّتي اشتريتها للمدرسة، ولا أجرة عمال البناء الذين أقاموا جداراً يفصل الغرف لتوسيعها، وشرحت للقاضي أنّي رأيت عدد التلاميذ كبيراً، وأردت أن يستفيد عدد ممن لم يدخلوا المدرسة بعد، فقسمت الصفوف إلى ثلاثة وأحضرت خلف ليساعدني في التعليم، ودفعت أجره من راتبي. ضحك القاضي وهو يقول بصوت منخفض:

ـ ذهب المفتش من القرية بدون خروف؟

قلت:

ـ نعم، وبدون غداء.

ضحك ثانية وأعفاني من تهمة الاختلاس، لكنّه لم يستطع الحكم لي بقيمة المقاعد، وطلب مني أن أقيم دعوى مدنية على الدائرة، وحكمني بجرم تحقير المفتش بحسم خمسة بالمائة من الراتب لمدّة شهرين ناصحاً إياي بعدم تحقير المفتشين!

لا أدري إن كان عبد القادر أفندي (ابن بلدي) معاون مدير المعارف قد كذب عليّ حين تنصل من مسؤوليته عن التقرير المرفوع بي إلى الوزارة، ووعدني بتصحيح الوضع. وصحح الوضع بنقلي تأديباً إلى قاضي لار.

❖❖❖

لم يغادرني دفء الصباح الربيعي مع طعم قهوة عائشة بعد، حين رأيته قادماً من الغرب يجرُ خطواته بتثاقل، نَحيّتُ الأوراق جانباً، ونهضت لاستقباله، بادرني متخلياً عن عادته في التحية:

ـ ابق جالساً، وصل السلام.

ورمى جسده على الكرسي متجنباً مواجهتي، حاولت فهم حالته تلك على أنّها رغبة في الانفراد بنفسه، فتشاغلت بأوراقي ثانية، لكنّه اندفع فجأة محطماً الصمت بنبرة صوته العالية:

- هل يعجبك ما يحدث؟

لم أحدد الهدف من كلماته، إلاّ أنّ مجريات الأحداث كلّها لم تكن تعجبني، لم أرتح لما يحدث على الساحة السياسية، ولم تكن البلدة بأجوائها الغارقة بالجهل والتخلف تريحني، وعلى الصعيد الشخصي كنت أحرث البحر، فيعتليني الموج حتّى أشعر بقرب نهايتي، فأخرج مبللاً بالخيبة، مطعوناً بالهزائم. لم أحاول إيجاد صيغة مناسبة للدخول في حوار مع الأستاذ هاشم، توقعت أن يكون الموضوع الذي سيحدثني فيه يمس خصوصياته، لكنّي لم أتوقع أن يحدّثني هذه المرّة عن المرأة كإنسان قرر أن يوجد في حياته! لم أُخف دهشتي، فقد تصورت يوماً أنّ الأستاذ سيحمل لواء الرهبنة خارجاً عن تعاليم الإسلام فيكون أوّل رافض للحياة الأسرية في بلدتنا الصغيرة، لكنّه نفث معتقداته مع دخان النارجيلة، وقال باستسلام:

- شرٌ لابدّ منه.

من أجل ذلك ابتعد عن المرأة جهده، لكنّ النظرية - على ما يبدو - تبقى قابلة للتطويع والتغيير، مما جعلني أقرّ أنا أيضا بأنّ لا شيء ثابت في الحياة، بل لا شيء حقيقي.

لا أدري لمَ أحبّ هذا الرجل، يشدّني إليه خيط متين من المودة، رغم كراهيتي لأولاد العائلات وطنيين وعملاء،لاعتقادي أنّ تلك الأسر الدخيلة كانت تتظاهر بالانقسام في الرأي، فريق يتحدى شعور الجمهور بموالاته للأجنبي مستنداً في تحديه على حرابه، وفريق يتقنع بالوطنية فيثير ضجة مصطنعة يلهي بها الجمهور عن رؤية مشاكله الكبرى. لكننا نشترك في كره الجَهلة من رجال الدين والمشعوذين.

كلانا انزوى مع أفكاره جانباً حتّى حلّ المساء، وبدا قرص الشمس المضرج بدماء الوحدة منبوذاً في الأفق، لا أحد يتطلع إلى تضحيته اليومية في سبيل يوم آخر ينقضي من العمر مسرعاً مُضخماً الحلم، مُقلّصاً الواقع.

رطوبة دار "أبو حشيش" نخرت عظامي، وبتّ أخشى أن أصبح عاجزاً عن الحركة، تراءى لي سعيد، لم أكن أستطيع تصور شكله، فررت من مواجهته هذا المساء في ساحة البازار بتغيير طريقي إلى البيت. مللت من هؤلاء الذين رافقوا أحلامي وخيباتي، أريد تجديد حياتي، لكن كيف؟

أحياناً يخطر لي أنّ الكتابة تنتشلني من واقع لا أريد العيش فيه، وتخلق لي عالماً ممتعاً، أنسج تفاصيله كما أريد، و أملك أقدار هؤلاء الذين أكتب عنهم. انتابتني رغبة خبيثة في تحطيم بعضهم، نهضت أدفئ جسدي بكأس شاي، وأدفئ روحي بمزيد من الحبر، أسكبه على الورق فأخلق حاضري ومستقبلي، أشكّل مصائر، وأدير أحداثاً، أميت وأحيي، هل أستطيع بث الروح في هؤلاء؟

كثيراً ما خطر لي أنّ صنعتي تلك تشبه صنعة الخالق في ترتيب الكون. لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا على حال من الانكفاء على الورق، حتّى سمعت صوت الشيخ ناجي ينطلق بآذان الصبح من الجامع القريب، عندها أيقنت أنّ عالمي ذاك أورثني سقاماً استقرّ في العظام، وتصلّباً في الشرايين. حملني يقيني على إلقاء الأوراق للنّار، فالتهبت ألسنتها وتطاولت مضيئة عتمة الروح، مفككة مفاصل الجسد، استرخيت قربها، حتّى أيقظني البرد مجدداً.

لاشكّ أنّ الشاي اختراع عظيم في أيام البرد، أشعر أنّه أفضل من اختراع الكهرباء بقدرته على تجديد حركة الدم في جسدي، وإنعاش ذاكرتي. لملمتُ بقية أوراقي المبعثرة ونظرت إليها بإشفاق، تطلعتْ إليّ

عائشة ومريم وأحمد اليتيم بعتب، هل نسيتهم في زحمة الحديث عن لحلوحة ونفسي؟ ربتُ على الأوراق بحنان، نعم، أشعر أنّ الرواية أخذتني في مجاهل غامضة وشتّتت تفكيري ولم أعد أمسك بخيوطها. يخطر لي أحياناً أنْ أترك هؤلاء يتحدثون عن أنفسهم، بدلاً من فرض نفسي عليهم والحديث عنهم، لكنّي أجد صعوبة في تقمص ألسنتهم، أراهم يتسربون من أصابعي كالماء!

لم أنسَ مريم، كانت أكثر الشخصيات قرباً لقلبي، وألصقهن برائحة الزقاق والحياة فيه. أعدت قراءة ما كتبت.

(كان يمرّ أمام دكّانه كلّ صباح، يسلّم، ويسحب كرسياً ويجلس، ويبدأ بمحاضرة في الدين والأخلاق، وطاهر يهز رأسه موافقاً. لشدّة إيمانه بالشيخ كربوج كان طاهر يكره كلّ من يمسّ الشيخ بكلمة أو لمزة. في الصباح يستقبل الشيخ على باب دكّانه الصغير ويتابع عمله في ترقيع الأحذية العتيقة وهو يحلم بقرب تحقيق أمنيته في الزواج من مريم. لقد رفضته مراراً، لكنّه ما زال يأمل بتأثير أحجبة الشيخ كربوج وسلطته العليا. أمّا الشيخ فقد أقنع طاهر أنّه سيحصل على مريم وإن طال الزمن.

لم يطل الزمن، فقد وجدت مريم نفسها تتساق وراء أم خيرو النقاشة إلى تكية الشيخ ليكتب لها حجاباً بالمحبة تضعه لمحمد في ملابسه بعد أن طلّق عائشة لأسباب تضاربت على ألسنة النسوة منها أنّها لا تنجب، ومنها أنّها ليست بكراً ومنها ...

عاد الأمل لمريم ثانية وحلمت أنّ محمّداً سيأتي على فرس بيضاء ويخطفها بعيداً عن الزقاق والنّاس. لكنّها فوجئت ذات ليلة بزغاريد تلعلع في الفضاء من بيت جارتهم أم حسن، لقد خطب محمّد جميلة الّتي تصغره بخمسة عشر عاماً. جميلة! انفتح الجرح حتّى آخره، ونزف القلب بشدّة تلك الليلة، كان صوت نحيبها وشهقاتها يجرح

صمت العتمة والليل والسكون المخيّم على البيت، أطلّت من الشباك على الفسحة السماوية، نظرت إلى أشجار الليمون الّتي تقطر بياضها على الأرض، أهو الزهر الربيعي أم قلبها؟. كانت مريم في تلك اللحظة كدجاجة مذبوحة ترقص من الألم، ولم يسعفها تفكيرها سوى بزيارة الشيخ الذي ابتسم بخبث قائلاً:

- لا بدّ أنّك لم تضعي الحجاب في المكان المطلوب.

لم تفكر مريم، كانت على يقين أنّها مخطئة، لا تعرف أين، لكنّها أخطأت مادام محمّد لم يأت لخطبتها! أشرق الصباح على جسد طاله المرض، وراح يذوي، محمد طعنها بقسوة وتركها لذئاب الوحشة تنهش جسداً فقد الإحساس بما حوله. كانت أمها تنظر إليها بفزع وتتشاور مع أم خيرو الّتي أسرعت إلى الشيخ تستشيره، أكدّ الشيخ أنّ جنيّاً سكن جسد مريم. كانت مهمة أم خيرو صعبة في إقناع مريم أنّ الجني العاشق الذي سكن جسدها لن يدعها تتزوج من محمّد، وأنّ عليها أن تزور الشيخ كربوج ليخرج ذلك الجني من جسدها. تحاملت على ضعفها وأم خيرو تسندها حتّى التكية، كان الشيخ كربوج يستند إلى وسائد ملونة بقامته الضخمة وينظر بعينين جاحظتين إلى الجمر الملتهب والبخور المتصاعد ويرتجف متمتماً بألفاظ مبهمة. تهالكت مريم على الحصير وأومأ الشيخ لأم خيرو لتخرج من الحضرة. لم تر مريم شيئاً في تلك العتمة، كانت عصا الشيخ تنزل بقسوة على جسدها ويعلو صراخها حتّى فقدت القدرة على الحركة وتلاشى صوتها وراحت في نوبة إغماء. عندما صحت مريم أدركت أنّ النزف لم يكن طبيعياً!

أم خيرو لم تسكت، كانت تشعر أنّها مسؤولة عمّا حصل لمريم، واجهت الشيخ كربوج في الحضرة، وتشاجرت معه، وقيل إنّها رمت عمامته بعصاها، ورغم إصراره في البداية أنّ مريم لم تكن بكراً لدخول

الجني العاشق فيها ! إلاّ أنّ أم خيرو بفطرتها السليمة لم تصدق ذلك القول وكشفت الشيخ على حقيقته فوعدها بإصلاح الأمر.

لم يجد الشيخ كريوج صعوبة في إقناع طاهر بأنّ جنياً اعتدى على مريم وأنّ عليه أن يسرع في خطبتها، ووجدت مريم نفسها تساق إلى بيت عريسها الذي لم تر وجهه. في كلّ مرّة تحاول مريم أن تجتاز عتبة الرهبة وتبوح لطاهر بالحقيقة ينعقد لسانها بالخوف من ردة فعله فتصمت.

بعد زواج مريم بأيام كان عرس محمّد على جميلة، من خلف تنكات الزرع على السطح كانت ترقب العروس، ترقب محمد وهو يرقص، أمسها وحاضرها، وتنشج.

تعالت دقات الطبول والزغاريد وقلب عائشة النازف يضرب بشدّة وهي تجتاز الزقاق في العتمة وتلتفت خلفها جزعة حتّى وصلت التكية.

كان المكان موحشاً، شعرت بالفزع، وترددت في الدخول، لكنّ قهرها تغلّب على حذرها فاندفعت إلى غرفة الشيخ تقبّل يده وترجوه أن يجد لها حلاً. سحب الشيخ يده وهو يسترق النظر إلى وجه عائشة البيضاوي ببشرته الحنطية المشربة بالحمرة، وعينيها السوداوين المنتفختين من البكاء. أمرها بالجلوس وهو يراقب انثناء الجسد الغض بتفاصيله المربكة، شعر ببداية الحريق، تصاعد اللهب من كفيه، وجحظت عيناه وهو يرى الملحفة تنحسر عن ساعدي عائشة. استدعى الجان وتكاثفت الأبخرة في الغرفة حتّى شعرت عائشة أنّ أنفاسها تضيق. شربت عائشة منقوع الأعشاب لتطرد الروح الشريرة الّتي تتشبث برحمها، وتمنعه من احتضان نطفة زوجها. ودارت بها الحضرة، كانت ترى ملامح رجل ضخم يقترب من جسدها ويطبق بساعديه على كتفيها، شيء يشبه الغثيان قلب أمعاءها، وأطبق على حنجرتها. لم تصحُ عائشة إلا وهي مكسرة الأضلاع. ابتسم الشيخ

بهدوء وهو يخبرها بخروج الجني من جسدها، وبعدم وجود مانع بعد الآن من الحمل!

في ظهر اليوم التالي، خرج الشيخ كعادته إلى الجامع ليؤم المصلين، ركّز في خطبته على سفور المرأة وحقّها في التصويت، وكفّر كلّ من يذهب إلى السينما، وقد دعمه الأخوان في موقفه، فاضطر أصحاب السينما الغرباء إلى ترك المستودع الذي استأجروه في القسم الشمالي من البلدة، وعادوا بالخيبة إلى حلب. وأفتى الشيخ أنّ الراتب حرام، لأنّ الدولة تأخذه من النّاس عنوة، وتأخذ ضرائب من بيوت الدعارة وتعطيها للموظفين، والدولة لا تطبق أحكام الشرع فهي كافرة، وابن الحكومة كافر!

كان هذا النصر للشيخ كريوج بمثابة تأكيد على علو مكانته وسلطته على النّاس، فراح يتمادى في استهتاره بهم. مرّ به إبراهيم ومصطفى وهو جالس أمام دكان طاهر، وصوته العالي يصل أسماع من في السوق وهو يقول:

- هذا ربكم.

مشيراً إلى حمار مرّ به. اقترب منه مصطفى وقد أمسك برسن الحمار وسأله بأدب:

- شيخي، أنت تقول إنّ روح الله تحلّ في الأشياء، وقد أقررت الآن أنّ روحه حلّت في هذا الحمار، قم بنا لو سمحت.

قال الشيخ باستغراب:

- إلى أين؟

- إلى الجامع.

ساق الشباب الشيخ والحمار أمامهم حتّى توسطوا ساحة الجامع، فدهنوا الشيخ بروث الحمار وطلبوا منه أن يصلي بهم، تراكض النّاس

من السوق وخلّصوا الشيخ من أيدي الشباب، وكانت آخر مرّة يراه فيها سكّان البلدة).

هل أنهي الرواية عند هذا الحد؟ أم يجب أن أذكر أنّ جميلة لم تنجب، وأنّ محمّد عاد إلى عائشة بعد ظهور الخبر السعيد بحملها! وأنّ مريم لم تحتمل ما يحدث لها فحرقت نفسها؟ أشكّ أنّ هذه النهاية مرضية، أشعر بالملل، لم أعد أحتمل هذه الشخصيات الّتي تشاركني أنفاسي. فليذهبوا جميعاً إلى الجحيم. ليس هناك أقرب من جحيم التفية! هل احترقوا فعلاً وأصبحوا رماداً؟ أشك أنّهم يسكنون الورق، بل يعششون في الجدران، أرى وجوههم تتلوى ألما وفرحاً، يرقصون ويبكون، ثمّ يهمد كلّ شيء وتتلاشى أصواتهم.وأجد يدي تتلمس بخوف جنبي، هل سُرقت صورتها؟

(تذكر أنّك سطوت عليها دون إرادتها، تأملتها ملياً وهي ترجوك أن تعيدها إليها، كانت مشرقة بنور غريب، يضحك البحر خلفها، لم تكن كتلك الصور المفزعة التي التقطها لك مصور البلدة حين قدّمت على الشهادة، ولم تكن كتلك الصور العائلية البائسة الّتي يبدو فيها أفراد العائلة يحملون وجهاً واحداً مكرراً رُسمت عليه بإتقان ابتسامة بلهاء واحدة، أو تكشيرة خبيثة. لكن إلى الآن لا تعرف من سرق الصورة منك؟ كيف أضعتها مع محاولاتك المستميتة للحفاظ عليها؟).

❖❖❖

لأوّل مرّة أجتاز هذه المسافة من الحزن والزهر في حديقة المسلمية التابعة للثانوية الزراعية قرب محطة القطار حيث يقيم أخي محمد ويعمل محاسباً. كنت أغوص في عمق الحديقة تشدّني روائحُ عطرية لم أشمُها في مكان آخر، ولم أر مثل تلك الزهور في حياتي. غموض أحاط بي مع عتمة المساء القادم، ليرمي بي للمجهول. لم أهتم في البداية،

لكنّي الآن أحس وأنا أسير خلف مدير المحطة لأركب القطار لأوّل مرّة، بأنّي أسير إلى حتفي. لماذا؟ لا أعرف بالضبط، لكنّ لامبالاتي فارقتني، وشعرت أنّي أغوص في لجّة سوداء تقذفني إلى هاوية لا قرار لها. قرى جبل الزاوية كانت مألوفة لديّ، أما هنا فأنا ذاهب إلى غرباء بلسان غريب، ستقف اللغة حاجزاً بيني وبينهم، وستطعنني ثارات قديمة لابدّ أنْ تندس في علاقتي بهم. ضمّني القطار مع مجموعة مختلفة الأجناس والهيئات والمشارب، أكراد، وشركس، وأتراك وعرب. لكزني أحدهم سائلاً عن وجهتي، حين أجبته، أغلق فمه واتجه بنظراته إلى العتمة وراء الزجاج القذر. سألني آخر عن بغيتي من الذهاب إلى قاضي لار. رحّب بي حين عرف أنّي معلّم منقول إلى هناك وأخبرني أنّه من الصعب عليّ الذهاب إليها ليلاً. وقف القطار في جوبان بك ونزل المفتش والسائق وصعد بدلاً منهما تركيان. استبدل المفتش بطاقتي بأخرى تركية وجمع النقود من باقي الركاب، وهو يرطن وأنا أحملق في الفراغ!

تحرك القطار بسرعة، وصعد الركاب وهو يمشي، قرقعت العربات وارتجّت وهو يصفر بحزن ويتصاعد الدخان ملتفاً حول قناديله متحداً بالظلمة الممتدة إلى قلبي.

حقيبة من الجلد الأصفر مستطيلة مملوءة بالكتب والأمتعة والطعام، بيتي الذي أحمله على كتفي، لكنّي لا أستطيع الاستقرار فيه، بيتٌ أحمله ولا يؤويني. وضعته أمام مفتش المحطة التركي الذي راح ينبش بين الأغراض وكأنّه أضاع إبرة في كومة قش. حين انتهى سألته كما علّمني رفيق السفر (عريجا بيليرم؟) أجاب بالنفي ولكنّه نادى الأونباشي علي الذي جاء مسرعاً بقامته القصيرة وظهره المحدب وثيابه المرقعة الرثة، انحنى أمام المفتش، الذي طلب منه بالتركية أن يرى ما أريد. التفت علي إليّ قائلاً:

- السلام عليكم.

أنعشتني الكلمات وكأنّي شربت دلو ماء عذب، وددت وقتها لو عانقت علياً الدرويش المسكين لأنّه انتشلني من قسوة غربتين، المكان واللغة. شرحت له أنّي أقصد قاضي لار للتعليم فيها، فأخذني جنوباً إلى باب من الأسلاك الشائكة وقال لي:

- اسلك هذه الطريق الترابية توصلك إلى القرية، لا تغيّر اتجاهك مهما تفرعت الدروب، لو أنّي أتمكن من تخطي هذا الباب لأوصلتك إلى القرية.

كلمات علي أشعرتني بالدفء، ذاك الذي افتقدته منذ زمن، دفء النّاس الغرباء الذين يبنون لك وطناً بكلمات بسيطة. سألته إن كان يريد شيئاً من حلب حين أعود، فطلب قليلاً من التمر وقدّاحة بنزين وجاكيت من البالة. هذه الأشياء بالنسبة للجنود تُعدّ حلماً وسط الفقر الذي يعيشونه والمعاملة القاسية الّتي يتلقونها من رؤسائهم، فالنظام عندهم يعطي الحق للضابط بضرب الجندي وركله وحبسه، والمجندون يعاملون باحتقار وكأنّهم من طينة أخرى.

ودّعت الأونباشي، ودخلت سهلاً فسيحاً منبسطاً، أكلته الحرائق، وتشققت تربته، واتخذت الحشراتُ الشقوقَ بيوتاً. لم يكن ضوء القمر الخافت كافياً لإنارة الطريق أمامي، على الرغم من أنّ النجوم كانت تلمع في سماء صافية. تذكّرت قول القدماء بأنّ النجوم نوافذ يُشرق منها المعنى (الإله) بنوره على الكائنات. فهل يتجلّى لي في هذا الصمت الخانق والهدوء الرهيب الذي يقطعه صوت خطواتي المتعثرة حيناً، الثابتة حيناً، الفزعة أحياناً؟ الحقيبة الوطن على كتفي، أئن من ثقلها فأضعها أرضاً، وأقف لدقائق ثمّ أتابع سيري وقد نقلتها إلى الكتف الآخر. مع مرور الوقت أصبحتْ أثقل وجسدي أقلّ احتمالاً، قفز فأر من بين الشقوق، فتراجعتْ خطواتي متعثرةً بحجارة متناثرة على

الدرب، تبعه حردون ذكّرني بخوفي ووحشتي في هذا المكان المنعزل، فانكمش جسدي مقشعراً لذكرى خوف لم يفارقني رغم تشبثي بشجاعة تتبدى وهماً في معظم الأحيان. أذكر أنّ السجن لم يُدخل الفزع إلى قلبي، ولا عسكر الفرنساوي وأنا صغير، فقط ذلك السنغالي الأسود على باب الخان، وذاك الحردون اللزج، وهذا الخواء القاتل، عتمة ولزوجة! حفيف ودبيب أشعراني بالوهن، أم هو الجوع وطول المسافة؟ جلست قليلاً لأستعيد بصري الزائغ، حدّقت بالشقوق القريبة من جسدي، مدّدها الظلام فأضحى الظلّ خندقاً كبيراً، نفرت منه جيوش الترك تسدد إلى صدري السهام المسمومة، الوهم تمدد في أعصابي، فبتّ أخشى ألاّ أصل إلى القرية الّتي لاح ضوءٌ ينوس في نافذة أحد بيوتها، رافقه نباح كلاب علا من الجنوب، ردّ عليه نباح من الشمال! تنفست الصعداء (حيث الكلاب يكون البشر!).

عرفت مع اقترابي أنّ الضوء تابع للمخفر، فقد خرج شاب على صوت النباح، وجّه إلى صدري بندقيته، واقترب مني طالباً أن أرفع يدي، حين تأكد من هويتي أنزل البندقية ورحّب بي، واصطحبني إلى المخفر المؤلف من غرفتين بُنيتا من الطين فوق رابية تطلّ على الحدود التركية من بعيد. الجنود الخمسة كانوا من حمص والجاويش من حماة، شممت رائحة العاصي في شايهم وأحاديثهم، ورافقني أحدهم إلى القرية رغم ثقته أنّ مختار القرية البخيل لن يستقبلني.

طرقنا الباب مراراً، فخرج إلينا رجل عجوز أخبرنا أنّ المختار غير موجود، و رفض حتّى أن يتركني أبات عندهم بالأجرة، لكنّ الجندي أجبره على استضافتي، وعرفنا أنّ المختار موجود في البيت لكنّه ادّعى العكس. بتُّ ليلتي تلك في علّية مبنية فوق إسطبل يُصعد إليها بدرج اهتز تحت وقع أقدامنا، سقفها من العيدان والقش. فرش لي الجندي فراشاً وأعطاني لحافاً ووسادة والعجوز يحملق بضيق.

لا أعرف لماذا تلحّ عليّ تلك الذكرى كلّما ضمتني جدران جديدة وحيداً؟ فأرى يدي رغماً عني تتلمس جنبي في الموضع الذي أخفيتُ فيه صورتها المسروقة يوماً، أتحسسها وكأنّها موجودة. أتحسس الذكرى البعيدة لعطرها، أشمه بعمق، زهر دراق مخملي الملمس تفتح لتوه، ألمس تفاصيله الأنيقة، ويبهرني لونه.

لا أعرف كيف غفوت!

استيقظت على صوت العجوز يرتل القرآن بعربية مكسرة ويطلب منّي النهوض للصلاة. نادى حفيدته:

- خرما أحضري الماء.

دخلت فتاةٌ في العشرين من عمرها يغتسل القمر على محياها، وبرزت نجمتان على جانبي فمها، فشهقتُ بقوة، هل يعقل هذا؟ خرما! تقدّمتْ ببطء وخجل، صبّت الماء وأنا أنظر إلى بياض الوجه وعقلي يصرّ أنّه أسمر، وتقذفني العينان بنبال خضر، فيرشح قلبي سواداً كان لعيني خرما! اليد امتدت، اصطدمت بالإبريق، وقلبي يرسل للساني ألحاناً، والفتاة تحدّق بي باستغراب، أيعقل أن تكون هي؟

الفتاة بقيت صامتة، لم تفهم حرفاً، ولم أفهم ردّها، حين انتهت قلت لها بتركية عوجاء:

- تشكرات إدارم.

فرّت خجلة، لا، ليست هي، أين ذلك الاندفاع كبركان، أين تلك العينان المنفتحتان على أفق الروح الزاهي بالأقحوان وشقائق النعمان، هي، لا، هي؟ طوال اليوم بقي ذهني مشوّشاً، الاسم والطول والعمر، لكن كلّ واحدة من شجرة مختلفة، واللغة اللعينة تقف حاجزاً بيننا!

حين أشرقت الشمس، وعلت أصوات الحمير والبشر في الأزقة، رافقني حفيد العجوز إلى المدرسة، طبعاً دون فطور ولا حتّى فنجان قهوة أو شاي.

تتكوّن المدرسة من ثلاث غرف، غرفتان تنفتحان على صالون طويل، وغرفة في الصدر للإدارة. في كلّ غرفة تسعة مقاعد. وهي بدون سياج ولا مراحيض. استقبلني سقّا المدرسة الذي يقوم بمهام المستخدم وأخبرني أنّ المفتاح مع المدير والمدير غير موجود! فذهبت إلى المخفر أزور الشباب هناك.

أخيراً وصل، كانت مفاجأة كبيرة، كاظم بشحمه ولحمه، ذلك المشاغب الذي ضجرت منه المظاهرات في حلب أيام الثانوية، أخذ البكالوريا وأصبح مديراً، وأنا اكتفيت بالبروفيه، فاجئني صباحه والخمر تلعب برأسه، عانقني طويلاً حتّى كدت أختنق، أبعدته بلطف، وتأملت شكله ثانية، هو، عيناه تشربان لون بشرته الخمري وتجحظان في تعبير عن الدهشة والقلق، تطفو الزرقة الباهتة فيهما فوق الأحمر فتعطي انطباعاً لا مبالياً يزيده انغماساً بذاته بعيداً عن المحيط القذر كما يسميه، قال بلامبالاة:

- كنّا البارحة سهرانين عند ناظم آغا في عرب عزي وهو زعيم هذه القرية وحراميها المشهور ويبدو أنّي شربت كثيراً.

ابتسمت، هل هذا من آثار البارحة، أم أنّه فطور الصباح!؟

تأملني بدهشة وقال غامزاً:

- ماذا حدث؟ هذا غير معقول! أكاد لا أصدق، أهو أنت حقّاً؟ عهدتك هكذا.

وأشار بيده قياساً لقامتي الّتي عهدها قصيرة، مستغرباً أن أبدو أطول منه. حركته تلك، حرّكت غصة في حلقي استعادتْ عبارة سعيد المعهودة: (لو كنتَ أطول يا إبراهيم!). الآن أصبحتُ مناسباً للجيش؟ كم بعُدت المسافة!

أخذ كاظم عهداً على نفسه بأن يجرّني إلى طريق ناظم آغا لنعود معاً كلّ فجر على تلك الهيئة. خلال ساعة كان الطعام جاهزاً، اصطفّ

التلاميذ على الباب وبيد كلّ منهم رغيف خبز صاج ساخن وبيضة وطاسة لبن! ولمّا سألت كاظم عن الأمر، شرح لي بأنّه فَرَضَ ذلك على التلاميذ، فأهل القرية بخلاء، لا ولائم، ولا دكاكين، وعليه أن يحصّل طعامه من عيونهم. وأتبع كلامه بضحكة سمعها القاصي والداني. قلت لكاظم وأنا أتهيّب مما يفعله:

- أهذه اشتراكيتك؟

ردّ موضحاً:

- يا عزيزي السياسة لا تُطبّق هنا في هذا المنفى، ثمّ، معظم السكان هنا أتراك، على من تريدني أن أطبق الاشتراكية؟ ثمّ،أبعد من قاضي لار لا يوجد! فليفعلوا ما يريدون.

لم نصل لقناعة مشتركة، لكنّنا احتفظنا بمساحة للود القديم تجمعنا على رأي واحد، نداوم أسبوعاً ونفر أسبوعين، نعطي درساً ونعطل باقي اليوم. قرية في المنفى لا يصلها المفتشون، ونحن تعلّمنا التركية بدلاً من تعليم التلاميذ العربية فقد أعيتنا طرق التفاهم.

كاظم يقسّم البيض على أيام الأسبوع، والخبز يعطي منه للسقا الذي يجلب لنا بدلاً منه في أيام الإجازات ساخناً من بيته، ويقضي ليله عند ناظم آغا ونهاره في البحث عن الصحو. كلّ ثلاثة أيام نذهب إلى محطة القطار لنجلب البرتقال اليافاوي الذي يأتيهم من يافا بأسعار رخيصة، والمكسرات بأنواعها، يأخذنا الأونباشي علي إلى دكاكين المحطة لنشتري لوازمنا ونأخذ له (خرما[5]) أو (واحد جقماق[6]) هدية.

---

[5]- خرما : تمر

[6]- جقمق : حجر صوان يستخدم لقدح الشرر

وأنا أسير على سياسته في المدرسة لكنّي لم أستطع السير عليها في التدريس،كنت أحاول جاهداً التفاهم مع التلاميذ وفرضت عليهم رسم خريطة سورية بحدودها الطبيعية إلى جبال طوروس، وأكّدت على رسم اللواء داخل الحدود السورية، لكنّ التلاميذ أتوا بالورق أبيض، لا خرائط، وكأنّهم لم يفهموا شيئاً مما قلت. لا، بل يتحدونني بصمتهم ولا مبالاتهم، ففرضتُ على كلّ من يأتي بلا خريطة عقوبة، لم يفاجئني خلو الصّفّ من التلاميذ في اليوم التالي! جلست على الكرسي أرقب المسافات الخضراء خارج الساحة، وأغمضت عينيّ لدقائق، شدّني من غفوتي صوت ربابة تئن قريباً من أذني، فتحتهما لأجد أمامي شاباً أعمى في الثلاثين من عمره، أستأذن وجلس على الأرض قريباً مني، وقال بعربية تبدو سليمة إلى حد ما:

ـ تحبّ الموسيقى أستاذ؟

وراح يعزف لي لحناً شجياً يترافق مع تنهداته، ثمّ صمت مطرقاً، ورفع رأسه صوبي وكأنّه يراني:

ـ أستاذ أنا أحببتك لله بالله، وقد جئت أنبهك، لا تتحدث ثانية عن اللواء أمام الأولاد، اليوزباشي مصرٌ على تلقينك درساً لن تنساه إن أنت طلبت من الأولاد حفظ خريطة سوريا بضم اللواء إليها، لقد سمعته يهدد ويتوعد في سهرته البارحة عند ناظم آغا.

عثمان الأعمى نهض ليغادر لكنّي استبقيته متسائلاً عن صاحبة اللحن، تنهد وهو يخبرني أنّ اللحن لحبيبته زهرة، ووعدني أن يقصّ عليّ حكايته يوماً.

أكدّ كاظم الخبر قائلاً:

ـ اتركهم، أنا مكانك لا أعلّمهم شيئاً، ثمّ، ليبقوا حميراً كما هم، ماذا ستستفيد إن عرفوا الحدود الطبيعية أو لم يعرفوها، ثمّ، يا أخي لماذا تحمل السلّم بالعرض، أنزله عن كتفك واسترح.

كلام كاظم زاد من عنادي، فليفعل ما يشاء، هل أخافه؟ هل أتخلّى عن الحقيقة لمجرد تهديد من نذل تركي في ساعة عربدة وسكر؟

السقّا جاءني اليوم مهرولاً وهو يلهث، توقف عند باب الصّفّ ليقول لي: (سمعت اليوزباشي يقول - والله أستاذ ليس قصدي هو قال - سيكسر رجلك ويعلّقها في رقبتك إن لم تكف عن ذكر اللواء- احذر أن تذهب للمحطة. لكنْ أرجوك لا تقل أنّي نبهتك للأمر. كلّ أهل القرية جواسيس له وسيقطع رزقي إن علم بأنّي أخبرتك).

ركبت رأسي وحلفت يميناً أنّي سأسافر نهاية الشهر بالقطار، وسأركب من المحطة، وسأرى ماذا سيفعل ابن ال.. ذاك.

إلى عرب عزي دعاني كاظم لمرافقته بعد مضي أشهر على محاولته الأولى في جرّي إلى سهرات ناظم آغا. عرب عزي، قرية صغيرة فوق رابية جميلة على الحدود التركية، فيها نهر صغير، ينساب ضمن واد جميل، على ضفتيه أشجار صفصاف تغمس مناقيرها الخضراء في الماء، يجرفها التيار مسافة فتنتفض خارجة منه.

يحيط بالنهر سهل فسيح، يزرعه الأهالي بالقطن والرز، تبعد جورتن عن قاضي لار مسيرة نصف ساعة على الأقدام. بيوتها طينية وأهلها فقراء غارقون بالجهل والقسوة، ومنها يأتي المعلّم الوحيد فيها (عادل)، ومعلّم عرب عزي، وأنا وكاظم، ووكيل المخفر للقريتين برتبة وكيل ضابط. وقد كان يسخر مني لأنّي لا أشاركهم الشرب فرحت أشرب وأرمي لهم القناني في النّهر مدّعياً السكر، وقد اكتشف الوكيل أمري فأخذ يحتاط في المرّات التالية.

المناقشة الحامية بين كاظم ومسعود جعلت عادل الذي يحبّ الإنفراد بنفسه على حافة النّهر دائماً كي لا يشترك معنا في ثمن الطعام، يتقدم منا باهتمام، عادل يتميز بقامة معتدلة وقسمات متناسقة، تنطق بالحياد، ورغم حبه للعزلة والاحتفاظ بقناعاته لنفسه

إلا أنّ فضوله غلبه حين سمع حديث كاظم الذي كان يؤكد أنّه لا حلّ إلا بثورة اشتراكية تقودها الطبقة الكادحة، ومسعود مصرٌ أنّ الحل في العودة إلى اشتراكية الإسلام، ضحك عادل وهمس لكاظم:

- يا عزيزي، عملية النزوع الثوري نتاج محلي، فقد تبلورت في الصراع بين الثورية التقدمية، والطبقة المحافظة في سوريا، كلا المعسكرين يقاتل في سبيل البقاء، وله اتجاهاته الدولية. احمد ربك أنّك بعيد هنا عن يد أديب.

التفت كاظم بحدّة قائلاً:

- أظن يكفي وجودك هنا ليعرف الشيشكلي ما يدور في المنافي ضدّه.

احمرّ وجه عادل واختنق صوته، فتدخل ناظم آغا لينهي الخلاف بمنع النقاش في السياسة أثناء السكر. بعدها قال لي كاظم: (صحيح أنا متهور أثناء الشرب، لكنّي واقعي ومدرك تماماً أنّ عليّ معايشة الواقع ريثما أتمكن من قلب مفاهيم المجتمع وفق عقيدتي، ألا ترى أنّنا غرقنا في أوحال هذه القرية؟ وإن كنّا لا نستطيع تبديل أحوالها فلنبدل أحوالنا، لقد قررت ترك هذه القرية الظالم أهلها والسعي لنقلي إلى مكان آخر).

أسرني المكان ببهائه وقد اكتست الأرض حلّة خضراء تنبئ بربيع مسالم.

لا يحلو لناظم آغا السكر إلا على طرف النّهر، ينتشي في الطبيعة ويحلّق في المكان والزمان، فيغدو شخصاً آخر، مسالماً وبريئاً، وقد تتجرأ دموعه فتنفر من عينيه أحياناً وهو يروي لنفسه قبل الآخرين قصص حب عاشها، وربّما تكون من نسج خياله لكثرة ما فيها من أحداث لا تقترب من العقل. هل كان ناظم آغا ممثلاً؟ وهو المعروف

بقسوته واضطهاده لأهل القرى، وحل القضايا المعروضة لديه بالعنف، بالإضافة إلى التهريب والجاسوسية و...

أحياناً حين أراه على تلك الحال أتمنّى لو كان باستطاعتي الدخول إلى نفس ذلك الإنسان الذي يبدو وكأنّه يعيش بشخصيتين إحداهما للصحو والأخرى للسكر!

وقد اكتشفت في إحدى الجلسات أنّ الآغا كان يعاني عقدة نقص، تفرز في الصحو قسوة وبطشاً، وفي السكر قصصاً عن حبّ وهمي لم يعشه، وقد عرف بعض سكان القرية مشكلته فابتعدت عنه النساء، ولم تفارقني دهشتي حين علمت أنّ ناظم آغا طلب خرما ابنة المختار لكنّه رفض تزويجها له، فأشاع الآغا أنّه سيقتل كلّ من تسوّل له نفسه أن يخطبها، فبقيتْ دون زواج. لم يكن شكل الآغا بجسده النحيل وقامته القصيرة يوحي بذاك العنف الكامن في داخله. ها هي خرما ثانية تبرز لي وهي تحمل إبريق الماء، تداري خجلها بابتسامة وتفرّ من أمامي، لأراها تقتحمني ثانية كصاعقة. تتناثر نجوماً، فشهباً في ليل هادئ، تقطعه ضحكة الآغا مبللة بدموعه، قيل لي إنّ الآغا تزوج امرأة رائعة الجمال، جاء بها من استنبول فلم تعجبها الحياة في هذه القرية النائية، تحمّلته سنوات خمس، في البداية قيل إنّها لا تستطيع الإنجاب ثمّ ظهرت عليها علامات الحمل فجنّ الآغا وجمع رجاله، قتل البعض وعذّب البعض الآخر لكنّه لم يجد غريمه، وفرّت زوجته إلى أهلها أو إلى مكان لم تطله يده، فبقي فترة معتزلاً في بيته ثم ظهر للنّاس أعنف مما كان، السر الذي خبّأه، باحت به فتنة الّتي لم تحتمل عجزه وقلة حيلته تجاه أنوثتها.

عثمان كان يستثير دموع معظمنا بألحان قلبه الّتي تنفثها الربابة ويلاعبها النسيم البارد بعذوبة، كان يقول لي: (أشعر يا أستاذ أنّي لا أجيد العزف ولا أعرفه، أصابعي اليابسة بمجرد ما تلمس الربابة، تلين

وترق، وتنتشي وتطير، ويتطاير النغم دون شعور مني، كأنّها هي زهرة من يحرك الوتر، وتر روحي والربابة معاً). فضولي وأنا أزور المحطة جعلني أتحرّى عن زهرة لأراها، لكنّ الصدفة لم تجمعني بها مرّة، وسمعت من يقول: إنّ زوجها يمنعها من الخروج خوفاً عليها من شراسة الأتراك، والحقيقة أنّ زوجها يخاف من قصتها مع عثمان، فقد كانت ألحانه تعبر القرى لتستقرّ على شبّاكها على شكل عصفور أو يمامة، تبثها الحبّ، وزهرة تجاوب بالدمع. عثمان روى لي قصّة خلافهما قائلاً وهو يتنهد بحسرة:

(يا أستاذ كانت النور الذي أبصر به، حين اقتربت منّي لأوّل مرّة، شعرت أنّ العالم يتلاشى ويتحوّل همساً رفيقاً يمسّ أذني ويتلاعب بي، فلا أستطيع حراكاً، أنْصتُ إليها طويلاً، لم أفهم من ذاك الهمس شيئاً وإن خفق له قلبي، فقررت حينها أن أتعلّم العربية لأجل خاطرها، ولجأت إلى صديق لي، حذّرني بشدّة أن أهمس بالكلمات الّتي يعلّمني إياها أمام أحد كي لا يفتضح حبي لها، فيقتلها أهلها. كانت تعرف بضع كلمات من التركية تناديني بها، فأفهم ما تريد، أصابعي تسافر في شعرها، ويوقّع القلب ألحانه على رعشة يدها. أتدري؟ بقيتُ ليالٍ طويلة وأنا أردد تلك الكلمات الّتي ستوصلني إلى قلبها، حتّى قابلتها ونادتني، فأقبلتُ عليها صارخاً بكلمات الحب تلك، أتعرف يا أستاذ ماذا حصل؟ لقد ضربتني زهرة وشتمتني، وركضت مبتعدة عنّي وأنا أغوص في رمال متحركة لا أعرف ما الجريمة الّتي اقترفتها، وبقيتُ في حيرتي تلك أياماً، وقررت أن أتعلّم العربية، أتدري أنّي اكتشفت أنّ معنى تلك الكلمات قذر جداً؟ وأنّ زهرة محقة في تركي والزواج بغيري!) كوت الحرقة حلق عثمان وهو يغصّ بعبراته مع كلماته الأخيرة ويتناول ربابته ليكمل لي الحديث من خلالها.

كنت قد نسيت تهديد اليوزباشي إلى أن ساقتني قدماي إلى المحطة في هذا المساء الكئيب، أحاط بي رجاله على حين غرة وأوثقوا يدي ورموا حقيبتي ومزقوها، لم أعرف من أين أتتني الركلات واللكمات، دخلت غيبوبة لم أستيقظ منها إلا على صفير القطار، فتحت عينيّ على الأوحال الّتي لطّخت ثيابي، والدماء الّتي جفّت على فمي، جررت نفسي بصعوبة إلى العربة، وسار القطار شمالاً.

❖❖❖

لم يكن هدفي أن أثير هاشم بآراء أعرف كراهيته لها، لكنّي قلت قناعاتي في تلك الأمسية في مكتبة البلدة الّتي أنشأها هاشم مع بعض مثقفي البلدة. مقال أخذ مني الكثير من الجهد والوقت، لكنّي كنت على يقين من ردود أفعال الجهلة الذين أعيش بينهم. قال هاشم وهو يغتصب ضحكة عالية:

- ألم أقل لك خفف من حدتك ولهجتك الساخرة، كدت تشعلها ناراً في القاعة، نحن لا نريد أن يهاجمنا النّاس، يحتاجون إلى مقدمات طويلة وسنوات كي يأخذوا أفكارنا على جرعات، أمّا أن تنادي برفع الحجاب، وينادي الإمام بتكفير النسوة، ويطلب رجمهن، فهذا ما لا نريده.

تابعنا الحديث على كرسيين من الخيزران انزويا في ركن بعيد من المكتبة، نفث الأستاذ الدخان بشدّة، وأكدّ أنّه سيدعمني - رغم كراهيته للمرأة - فهو على يقين أنّ المجتمع يظلمها، ويحدّ من التطور بتحجيم دورها. انحرفنا إلى نقاش في الأدب، ابتسم غامزاً بعينه:

- أتوقع أن تصبح كاتباً كبيراً، أسلوبك جميل، لكنّ مفاهيمك قبيحة!

وأطلق ضحكته المشهورة، مع اهتزاز نفسي طرباً لرأيه:

- أعجبتك قصتي؟

ضيّق ما بين عينيه، ونفث الدخان مجدداً:

ـ أظنّك بحاجة للتخلص من أجواء (ألف ليلة وليلة) والدخول في عالم القصّ الأوربي.

على دفعات خرج السعال منظفاً صدري مما علق به من أبخرة ودخان:

ـ لكنّ أندريه جيد يعتبر ألف ليلة وليلة أروع فن عاطفي من نوعه، وأنا أرى أنّها ليست من صنع الخيال العربي وحده، هي مزيج من الخيال الإسلامي كلّه، السامي والآري، ودخول عالمها معناه جمع ثقافات مختلفة.

تحمس فجأة وهو يرمي بقايا سيجارته:

ـ ارنست رينان، أيها المثقف، يتهم الفكر السامي بضيق الخيال، على عكس الفكر الآري، وهذا أمر لا أعتقد أنّ الأدب العربي يدلي بحكمه الفاصل فيه، لأنّه من خصائص العلم، لكنّ الشيء الملحوظ في الفكر السامي ـ وخاصّة العربي ـ أنّه لا يستطيع تصوير الجزء، ولا يحيط بالكل.

صعقت لقوله ذاك، فاندفعت قائلاً:

ـ أنت متحامل، بل لست متحاملاً، أنت نازي.

ضحك ضحكته المجلجلة، وقال وهو يشرق بكلماته:

ـ سهلة عليك الأحكام العرفية، لا أعرف لم لا يضمونك لحركة التحرير؟ الجاحظ يا عزيزي تحدّث في هذا الموضوع، وأنا لا أنكر أنّ العرب أدلوا بدلوهم في فن القصة، فأساطير الجاهلية، وأمثالهم مليئة بخيال خصب، وفيه غنى، حتّى القرآن الكريم لا يخلو من الخيال القصصي، لكنّي مع ارنست رينان.

ابتسمت بمكر:

ـ نحن دائماً معجبون بما يقوله الغرب، وإن غمز من قناتنا، متعطشون للتشبه به ومجاراته في انفلاته.

قال بمرارة:

ـ أيّها الدعي، الغرب يعرف الديمقراطية والحريّة، ونحن نسعى إليهما، هل تعدّ هذا انفلاتاً؟

حوصرت بشدّة، فقلت محاولاً الخروج من ورطتي:

ـ أنا أقصد الحياة الاجتماعية، انظر حولك.

مدد جسده بارتياح على كرسيه، وقال من بين شفتيه:

ـ إلام؟ أتنكر على المرأة تحررها من قبضة الحجاب وذل تبعية الرجل؟ انظروا من كان يحاضر!؟

الأستاذ زعزع إيماني بما قرأت من كتب، كنتُ بحاجة لقراءة أخرى، بدأت بالتاريخ العربي، مستنفذاً ما جاء في مجالس الأمويين من أقاصيص متناثرة في الأغاني، والعقد الفريد، ورغم أنّها ترمي لهدف سياسي، إلاّ أنّي رأيت فيها فناً قصصياً راقياً، وعرّجت على فن القص الذي برع به الرواة وأصحاب السير في عهد العباسيين، وقرأت القص الغيبي في الإسرائيليات، والفلسفي في حي بن يقظان.

جولتي تلك جعلتني أعتقد أنّي حملت سلاحاً أواجه به الأستاذ، لن يستطيع بعد اليوم أن يحاصرني كفأر، فقد خرجتُ من المصيدة!

هل حقّاً خرجت من المصيدة؟ أم سأهزم من جديد كما حدث سابقاً؟

عندما كنت في التجهيز الثالثة، قال لي مدرس العربية: (رأيتك تقرأ في الكتاب المقدس، إنّه يفسد عليك أسلوبك العربي).كنّا على خلاف مع أساتذتنا، هم في سبيل اللغة يناهضون الفن، ونحن في سبيل الفن نتخطى حدود اللغة، لأنّ اللغة في اعتقادنا لم تكن أداة

جامدة بل حيّة يمكن أن نضيف إليها كلّ ما من شأنه مجاراة روح العصر، الأستاذ يرى أنّ قراءة جبران لن تجعل منّي أديباً!

نقاشنا لا يزال ماثلاً أمامي، الأستاذ يقول لي بصوت حازم: (إنّ كلامك يمسّ العقيدة الإسلامية، فالله جمع الكلم في القرآن الكريم وتحددت معانيه، فإذا كان هناك تطور في المعاني وتغيّر في الدلالات، فهذا يعني نسف كلّ تفسيرات القرآن الكريم السابقة، ووجوب تفسيره من جديد بما يتماشى والمعاني الجديدة للمفردات). وقد كنت أعتقد أنّنا إن لم نستطع تقديم تفسير جديد للقرآن، ولم نستطع تجاوز المفسرين القدماء، فهذا يعني أنّ القرآن غير صالح لكلّ زمان ومكان، القدماء فسّروه حسب متطلبات واقعهم واستطاعوا استنباط القوانين والشرائع تبعاً لمقتضيات الواقع آنذاك، وعلينا نحن بعد أكثر من ألف عام أن نقدّم تفسيراً جديداً يبرهن أنّ القرآن صالح لكلّ زمان ومكان، ألم يذكر الله في القرآن أنّه (كلّ يومٍ هو في شأن).؟

❖❖❖

ألحّ عليّ أحد الأصدقاء للذهاب إلى قدري بيك ليتوسط بنقلي من قاضي لار.

بقيت فترة متردداً، خطوة باتجاه القناق وأخرى باتجاه السوق، تركت لقدميّ القرار، فوجدت نفسي في الأوضة أتحدث إلى (أبونا) في الموضوع، لم أحتج للتكرار، فقد اصطحبني معه إلى حلب على حسابه، ودعاني إلى تناول الفطور في مطعم اكسبريس في شارع بارون، طلب أبونا نخاعات مع السلطة. رفضت الأكل فقد اعتدت أكل الفلافل ولم يكن هذا الطعام الذي ينشط المخ - كما ادّعى أبونا - يناسبني، كان يلتهم طعامه وهو يجيب على سؤالي:

- أديب قائد عظيم ليته يلتقي بعبد الناصر، فيشكّلان كمّاشة على جسد اليهود.

قلت بلا مبالاة:

- لقد دنا أجله.

رمقني أبونا باستنكار وأنا أذكّره أنّ أديب لم يأخذه للبرلمان كما كان متوقعاً، فسخر مني قائلاً:

- احفظ لسانك، واسكت خير لك.. ثمّ ما رأيك لو تعمل مستشاراً عند أديب، لكن لا تخبره أنّك بعثي.

أبونا كان يسخر مني، ولكنّه لا يعرف أنّي لو كنت مستشاراً لدى أديب لقلبت سوريا رأساً على عقب، وهو على يقين أنّي لم أنتخبه يوماً، ولن أفعل فما زلت أذكر موقفه من تأميم الريجي، حين جئته باسم الحزب لأقنعه بالتصويت مع قرار التأميم استقبلني يومها بهدوئه المعتاد وابتسامته المراوغة:

- يا بني، الريجي تدفع لنا الضرائب عشرة ملايين ليرة سورية كلّ عام، وهذا المبلغ يعادل ميزانية سورية، فلماذا تطالبون بتأميمها؟

حاولت أنْ أشرح له أنّ تأميم الريجي سيربحنا مائة مليون، نسدد عشرة ملايين للميزانية، والباقي يصرف على الجيش والسلاح والمشاريع العامة، لكنّه رأى أنّ الريجي ستصبح بذلك مزرعة محاسيب وبلطجية من جماعة حزب الشعب، وسيحل محل العامل عشرة بدون عمل، وستفقد الخبرة الفنية الّتي توفرها الشركة، وسيضع الحزب الحاكم مديرين من أنصاره يختلسون الأموال، ويدافع عنهم شركاؤهم.

التقطتُ أنفاسي المبهورة وأنا أتابع حديثه:

- قدري بيك، أنت من حزب الشعب..

ردّ ببرود:

- كنت.

قدري بيك لا يضمن أن يكون الوزير شريكاً للمديرين والمرتشين، لذا لن يغامر بالموافقة على طلبي، وقد سمعت أنّ الريجي وزعت رشوة على النواب كي لا يصوتوا ضدها. قدري بيك نفى ذلك بمنتهى الهدوء، وقال بصراحة:

- نحن لسنا قادرين على استثمار الريجي، سيسوء الإنتاج، وترتفع الأسعار، وغداً ترى.

وانسحب من الأوضة ململماً عباءته حول قامته القصيرة، مُعدّلاً وضع طربوشه النظيف، متنحنحاً.. متمتماً بكلمات مبهمة (أظنّه كان يصفني بالغباء)!

لم يكن قدري بيك النائب الوحيد الذي رفض المشروع، بل نائب البعث أيضاً رفضه!

ورغم مواقفي المكشوفة منه سار أمامي إلى مديرية المعارف ليتوسط لي، وكانت المديرية قد نُقلت من السراي الجديدة إلى مدرسة تحت القلعة قرب سوق الزرب. تجاوزنا الفسحة السماوية، وصعدنا الدرج إلى غرفة المدير. تركني أبونا أمام الباب أنتظر حتّى يناديني. خرج الآذن ليقول لي: إنّ الحديث يدور حولي في الداخل، وإنّ البيك المدير يكرهني. فشتمته وشتمت المدير، فتحلّق حولي الموظفون، وخرج أبونا من غرفة المدير وهو يضحك، ظننت الضحكة تحمل البشارة. لكن من أين وصفحتي مثل القطران كما قال!

دعاني للغداء في المطعم العربي وهو يزف إليّ خبر نقلي إلى عين العرب.

ليكن، وما همّ، عين العرب، عين القرود، الأمور تساوت لديّ حتّى أنّي لم أشعر بوجودي طيلة المسافة إلى أريحا.

غضبي أصمّ أذني، فلم أرد على نداء هاشم، وتابعت سيري شرقاً، لم ينقصني في هذا اليوم التعس أن ألمح وجه عبد الرحمن بيك، وهو جالس أمام دكان محمد بربور ينفث دخان نارجيلته، ويلفّ ساقاً على ساق، ويتحدث بتؤدة وكأنّه بيك حقيقي، اقتربت منه دون أن ألقي التحية:

- ما الذي أتى بالدب إلى كرمك يا ابن عمتي؟

ضحك محمد وقال بمرح:

- يبحث عن بقايا عسل في قاع المطريان.

قلت مستنكراً:

- لم أعرف أنك تتاجر بالعسل! على علمي أنّك تبيع قروداً للسيرك.

نظر إليّ عبد الرحمن بيك بطرف عينه، رمى خرطوم النارجيلة ونهض مغادراً. هاجمني خاطر زاد غضبي، عبد الرحمن الدركي، العميل، الذي سلّم نجيب السخيطة للفرنسيين، ينعم الآن بأموال لا تحرقها النيران، ويتقرّب من ابن عمتي ليشاركه في تجارة الحبوب، ياله من زمن، بصقت حقدي يمين الرصيف، وكانت مفاجأة لي لم أتوقعها أبداً، بصقت نعم، ليس على عبد الرحمن بيك وماضيه المقيت، بل على أبو رقعة الذي مرّ بالصدفة معتمراً برنيطة وحذاءً عالي الكعب، تتدلى سلسلة ذهبية من عنقه، وعلى ساعده معطف! عركت عينيّ جيداً لأستوعب ما يحصل لي، للحظات تصورت أنّي أرى حلماً، اجتمع فيه أغوات الأمس وأذنابهم تحت سيباط التكية❖، لكنّ ما أراه لم يكن حلماً. أكدّ هاشم لي فيما بعد: (عاد "أبو رقعة" فعلاً يلبس البرنيطة، بعد أن ألبس العمامة لقدري بيك، أنسيتَ أنّه السبب في وجوده حيّاً إلى الآن؟ لو لم يتوسط في نقله إلى سجن اللاذقية، لقتله النّاس يوم قتلَ سامي أفندي).

تحسرت همساً: (رحم الله سامي أفندي، لقد ذهب دمه هدراً).

قالوا: ما الذي لمّ الشامي على المغربي؟ ما جمع أبو رقعة وعبد الرحمن بيك، ليس عصيّاً على الفهم أو التصديق، كلاهما يكمّل الآخر، لم تمض أيام حتّى سمعت شائعة تقول إنّهما اتفقا على إقامة مصنع، أدهشتني الفكرة، تحوّل عبد الرحمن في غمضة عين إلى رجل الصناعة الأوّل في البلدة، كانت فكرة "أبو رقعة" الذي أقنعه أنّ المستقبل للصناعة، ولينسَ التجارة ففيها ربح وخسارة، وخسارة أن يضيع شقاء العمر في تجارة الحبوب الّتي يسيطر عليها محمد بربور، والّتي لا يفهم عبد الرحمن من أبجديتها شيئاً، وضع قرشه في المكان المناسب، وكان عليّ أن أتحمّل هذه الأخبار المحبطة، وأنتظر، ماذا أنتظر؟

❖❖❖

عين العرب مصابة بالعمى، وفي أبسط الأحوال بالعمش. وعين العرب شبه مدينة على الخط الحديدي الشمالي من سورية، تلاصق محطة القطار التركية. سكانها خليط عجيب من الأكراد والأتراك والأرمن والعرب!

هاجمتني روائح الكبة المقلية مختلطة برائحة خبز التنور فور وصولي كراج الانطلاق الواقع شرقي باب الفرج. تعثرت بالنّاس الذين افترشوا الرصيف ولم يتركوا مجالاً للمرور. الضجيج والفوضى هو كلّ ما تلتقطه من الزحام، أصواتٌ تنادي بأسماء المدن (عين العرب، قامشلي، الحسكة) أناس يصعدون وأناس ينزلون، وجوه مغبرة ساهمة. ومجهول قادم، ومعاون أعور جعلني أستعيد ابتسامتي، ينادي: (على عين العرب، يا عين عمك!). صعدت الحافلة، وأكرمني المعاون بمكان ملاصق للنافذة، كنت أشعر بسقفها المتداعي سيسقط على رأسي من كثرة الأحمال فوقه، فأتحسس موضع السقوط بأصابعي. التفتَ إليّ جاري في المقعد محاولاً جرّي إلى حديث يقطع به المسافة إلى عين

العرب. رجلٌ شبه أمي، اصفرّ لونه وشحب حين سمعني أقول هازئاً: (اللهم صلي على سيدنا محمّد وعلى سيدنا إبراهيم، أي أنا وأنت!) حين سألني عن اسمي. وأدار وجهه يتأمل الركاب، إلاّ أنّ فضوله أعاده للحوار معي ثانية، عرفت أنّه يسكن مع أخته الّتي تعمل معلّمة في المدرسة الّتي نُقلتُ إليها. حدّثني عنها وعن شطارتها في الطبخ وأعمال المنزل، ثمّ قال دون مواربة:

ـ أختي في الثلاثين، أظنّها من عمرك، سوف تراها، وأتمنّى أن تعجبك ويصير نصيب.

أكبرت في جاري صراحته، وتمنيت لو كان استقراري على يديه. ألهانا الحديث وتشعب بنا إلى أن توقفتْ الحافلة فجأة وجعلت رؤوسنا ترتطم بالحديد وتتراجع للخلف.

نزلنا صحراء خالية على ضفة نهر عريض، تنساب مياهه ببطء فاتحة ذراعيها لاستقبالنا. سألت جاري فأخبرني أنّ علينا اجتياز النّهر إلى الضفة الثانية لنركب حافلة أخرى توصلنا إلى المدينة. وتقدّمت منّا سفينة غصّت بالدواب والنّاس، صاح قبطانها بنا: الدواب أولاً. فغرت فمي دهشة، لقد جاءنا بآية جديدة، فقد فضّل الدواب علينا. قال جاري ضاحكاً:

ـ انظر إليه، يشبه القرد، لذا فضّل بني جنسه علينا.

أضحكتني عبارة "أبو مستو" فهو عالم بالأجناس على بساطته، لكنّ نظراته الحيرى الّتي استقرّت على حذائي أريكتني، راح يتأملني وهو يقول:

ـ والله يا أستاذ أنت أنيق، لكنّك هزيل الجسم، ما شاء الله، طول، طقم أنيق، وشعر أجعد، حذاؤك من وين؟حذاء جيد، شغل بريمو؟

ذكّرني سؤاله بأوّل مرّة أمرّ فيها بسوق الخياطين وباعة الجوخ قرب جامع زكريا، وأوّل طقم لي فصّلته عند الخياط نهيد، وكلّف

راتب شهر كامل، استدنته قبل القبض، ووضعت" كرافيت"، واشتريت حذاء بنياً، وأصبحت أحسن أفندي بني اللون في البلدة! ضحكت للذكرى واللون!

وصل "أبو مستو" لغايته، لكنّه فوجئ حين علم بأنّي أدور(السويقة) عشرات المرّات قبل أن أشتري. فوعدني بأن يصنع لي أحسن حذاء. أحاط بي في السفينة كي لا يدوس أحد على حذائي أو يوسخ ملابسي!

شغلني منظر السوق عن حديث مرافقي، دكاكين متراصة، الحداد والإسكافي واللحام والحلاق، والسوق مسقوفة بالتنك، تتدلى منه صحائف مع قطع من الخيش والخرق البالية تصطدم بصدور المارّة! أكثر ما لفت انتباهي بملابس الكرديات تلك القبعة الّتي على شكل جمل، يتدلى منها منديل يحجب الوجه، فوق عباءة لا تحمل لوناً موحداً. علّق "أبو مستو":

- كما ترى أستاذ، نحن منقطعون هنا عن العالم، صحيح أسواقنا فيها كلّ شيء، لكن لا مجال في هذه الفسحة الضيقة من المكان لعمل مميز.

كان "أبو مستو " يبرر تركه للبلدة والعمل في حلب دون أن أستفسر منه عن الظروف الّتي دفعته لذلك.

حين وصولنا إلى البيت، استقبلتنا خيرية خانم بابتسامة باهتة، وضعت الطعام وانسحبت إلى غرفتها. "أبو مستو" كان يتدفق بحديث لا ينتهي، عن النّاس وطبيعة البلدة الجميلة بنهرها، وبحيرتها، ووعدني بنزهة جميلة، وأضاف بخجل:

- ربّما ترافقنا خيرية، فهي قليلة الاختلاط بالنّاس، ولا تخرج من البيت إلا نادراً.

ثمّ أضاف بعد تنهيدة طويلة:

- والله يا أستاذ لقد حيّرتني، صحيح أنا ابن هذه المنطقة وأحبها، لكن رزقي في حلب، ومضطر للعيش هنا من أجلها، وكم أتمنّى لو أنّ الله يرزقها بابن الحلال لأطمئن في حياتي.

وخفض عينيه وتشاغل بصب كأس من الشاي لكلينا.

المدرسة كانت مفاجأة بالنسبة لي، فهي من أجمل مدارس المحافظة، فيها اثنا عشر صفاً. المفاجأة الأجمل كانت في استقبال المدير الذي أخذني ثانية بالأحضان، فقد سبقني دون وساطة إلى عين العرب! ودبّر لي سكناً - كما فعل في قاضي لار - غرفة مؤلفة من طين وفئران وظلام، وبراغيث! قبلتها راضياً، فقد كان ذلك أفضل لي من التورط مع "أبو مستو" الطيب الذي ألح لي مراراً أنّ الدين يحضّ على تزويج البنات، وليس عيباً أن يختار عريساً لأخته يسترها ويسعدها!

اتفق المدرسون على مناوبتي منذ اليوم الأوّل، كان الأمر صعباً بالنسبة لي لأنّي أواجه عدداً ضخماً من التلاميذ للمرّة الأولى، تفاوتٌ في الأعمار والبيئات. الرهبة التقطت أنفاسي فكتمتها. لم أبذل كبير جهد، ساعدني صوتي الجهوري وصفعة أدرت بها وجه طالب كان يضحك غامزاً وهامساً لمن أمامه ومَن خلفه، على فرض الصمت في الساحة. لحق بي كاظم إلى الإدارة ووجهه محتقن فوق حمرته:

- ماذا فعلت؟ لقد ضربت ابن البرازي زعيم الأكراد في المنطقة!

ضحكت وقلت لكاظم:

- سيكون الدور على ابن الزعيم.

تمتم كاظم: (والله ستخرب بيتك هذه الكبرياء، ولن يشفع لك في هذه الأصقاع موت حسني الزعيم ووزيره البرازي، لأنّ يد الشيشكلي لا تصل هذه المنافي لترد عنك غضب الأهالي!). لقد أخطأ كاظم، وإن كنت منذ البداية ضد سياسة حسني الزعيم، فقد كنت أكره الشيشكلي

أيضاً وبدعته الّتي سلّطها فوق رؤوسنا (حركة التحرير). وكنت أرى بوضوح أنّي أعيش في دولة مستقلة ضمن دولة الشيشكلي، تحكمها عائلات لها نفوذها القومي.

لم يوافق أسلوبي هوى كاظم، أو لأقل سياسته الواقعية الّتي تنحني للريح حتّى تمرّ بانتظار اللحظة الحاسمة أو الفرصة المناسبة. ولم أقتنع بالمهادنة التي ارتضاها كاظم لنفسه بحكم انتمائه للمكان والقومية والنّاس. كان عليّ أن أحمي نفسي من اللامبالاة والفوضى والسخرية السائدة بين الطلاب، ولم يكن الأمر سهلاً وسط هذا الكم الكبير من الطلبة والبيئات والأمزجة. معظم الأسر هنا تنشئ أولادها تنشئة عرقية سياسية، حتّى أنّي سألت تلاميذ صفي، ماذا يريدون أن يصبحوا في المستقبل، فأجاب أحدهم بحماس:

- أريد أن أصبح ضابطاً، لأعمل انقلاباً وأصبح رئيساً للجمهورية!

لم يكن غريباً أن أتذكر حمو، زميلي في التجهيز الثالثة، كان حمو من القوميين السوريين الذين ينادون بسورية الكبرى تحت شعار سورية للسوريين، والسوريون أمة ً واحدة، سورية هلال تتبعه نجمة في البحر هي (قبرص).

كان يناقش الأساتذة بحدة وخاصّة مدرس اللغة العربية الذي كان يعمل محرراً في جريدة الشباب، جريدة المناضل سعد الله الجابري، وكان يلزمه الصمت بحججه القوية مما يثير الكتلة الغربية في الصف.

في الفرصة أحاطني حمو بذراعه معاتباً:

- لماذا قطعت عليّ النقاش مع الأستاذ، كنت أريده أن يكتب عنّا في جريدته.

تملّصت من ذراعه، لم أكن أحبُ حمو، ليس لخلاف عرقي، وليس لأنّه أطول منّي وأحسن هنداماً وأكبر سناً، بل لتعصبه

الشديد وكرهه للقومية العربية. كان يروّج بين الطلاب أنّ سورية ليس فيها عربي واحد فقد سكنتها أقوام كثر، سريان، يونان، رومان، وأكراد وفرنسيون. آلمتني لهجته بشدّة، نبرت في وجهه:

ـ أنا عربي من حضرموت، والهجمات على سورية مؤقتة، لم تستطع اقتلاع الجذر العربي.

ردّ ببساطة:

ـ أنت عربي، وأنا كردي، لنقتسم سورية إذاً.

بساطته تلك جعلتني أثور وأحتد وأشدّ قامتي لتبدو أكثر طولاً متحفزاً لشجار محتمل، مهدداً متوعداً مذكّراً إياه بأصلهم المملوكي، لم يفارقه بردوه وهو يذكّرني بأصله، مؤكداً أنّ الآشوريين بناة الحضارة في دمشق والآراميين في فلسطين، والكنعانيين بناة القدس وأريحا، أما العرب فرعاةٌ جاؤوا البلاد طلباً للكلأ وهرباً من العطش. تشقق حلقي وأصدر صوتاً مزعجاً، أهي إهانة مدروسة تلك الّتي توجه إليّ ((فلاحٌ غبي!)) لم يكن هناك بدٌ من شتمه مستعرضاً التاريخ العربي من غسان إلى المأمون. قُرع الجرس، فرفعَ يده لتشكّل مع ساعده زاوية، وصاح: تحيا سورية.

كاد حمو يقتلعني من جذوري وأنا لم أصحُ بعد من كارثة ناريمان ولا زلت أجد نفسي معلقاً في الفضاء، خطواتي لا تمسّ الأرض وجسدي لا يستقرّ في الفراش، فقررت الهرب منه.

كان فراري إلى الكتب أقرضها كفأر جائع، ودخت زمناً طويلاً في البحث عن العرب والعروبة، وخيال حمو يلاحقني، عربٌ عاربة، عربٌ مستعربة، و... يتوقف السؤال وتداً أمام عينيّ، يغرز حربته في رأسي، من نحن؟ لماذا لم ندرس في كتب التاريخ سوى (روبسبير) فعرفناه أكثر من عمر المختار وإبراهيم هنانو؟ أما العرب فهم

الشريف حسين و الثورة العربية الكبرى.المغرب لا نعرف عنه شيئاً، الجزائر وتونس، نترنم دائماً بحكاية الباي والداي!

والألفاظ التركية والفرنسية لم تترك لغتنا وعاميتنا سليمتين.

عندما شعرت بأنّي عرفت شيئاً عن ماضي العرب، اعترضت حمو في الباحة ملقياً عليه السلام، بدون اكتراث صحح لي:

. أنا حمورابي، أهلي سمّوني عن جهالة حمو.

فرصة الانتقام منه لاحت لعينيّ فأفهمته أنّ بعض الأكراد يطلقون هذا الاسم على الحمار، لكنّه أصرّ على أنّ معناه السيّد وأنّ العرب ينحدرون من بني جحش،وأنّ الرسول ينتسب إليهم! لقد أغاظني حمو حدّ المقت، كان ينسب كلّ الانتصارات العربية إلى الأكراد وأعظمها حطين، أمّا أن ينسف نسب الرسول إلى قريش، ويدّعي أنّه كردي فهو ما لم تطقه نفسي.

كان الحوار مع حمو . بما حواه من مغالطات . عقيماً والشجار ليس لصالحي ورغم اتهامي له بالزندقة والكفر لم أحظَ بما يشفي غليلي منه.

ضحكته أعقبت عباراته القاسية، ضجيج في روحي أصمّ أذني، وأطاح بصحو كنت أعتقده موجوداً، وتلاشى كلّ شيء أمام ناظري ليبرز حمو تِنيناً تندلع ألسنة النّار من فمه لتبتلع كلّ ما حولها!

أكثر ما كان يثيرني في حمو نظريته الحزبية، فهي لا تدعو إلى أيّ إصلاح اجتماعي ولا تتكلم عن البؤس والفقر والفوارق الطبقية، وتنادي بفصل الدين عن الدولة، بكلّ برود كان سمُ كلماته يتسرب تحت جلدي، فيقشعرُ جسدي، حاولت التصدي له واعتبرت الأمر معركتي الحقيقية الخاسرة! لكن سرعان ما عوضت خسارتي التافهة تلك بكلمات من نور على لسان أستاذ المنطق زكي الأرسوزي، الذي دخل الصّفّ رافعاً قبعته على الطريقة الغربية،

محيياً بابتسامة. رجلٌ في الأربعين، متوسط القامة، نحيل، على عينيه نظّارة مشدودة بسلك ناعم إلى أذنيه، تتدفق كلماته كنهر رائق. لأوّل مرّة سرنا معه في آفاق غريبة التكوين(ما وراء الطبيعة). لم نكن على مستوى كلامه، رغم محاولاتنا للإنصات والفهم. بلغته الفصحى المبسطة انتقم لي من حمو، فرفعت رأسي عالياً، أشرب الصوت مع الحروف:(للعرب فلسفة كاملة قائمة في ثنايا لغتهم، لم يُعبّر عنها تعبيراً كليّاً حتّى الآن، إذ لم ينتبه أحد إلى أنّ الطريق إليها تستند إلى فهم نظام اللغة العربية، فهي بما فيها من قوة بيانية خاصّة تبدع لكلّ معنى من المعاني الوجودية الكبرى صورة تستقطبه وتؤديه بأمانة، وإنشاء هذه الفلسفة يؤدي إلى نتيجتين هامتين:

١ . إرساء فكرة البعث على قواعد صحيحة.

٢ . إسهام العرب إسهاماً جدياً وحاسماً في التراث الإنساني.

فالعقل الإغريقي الغربي يجنح نحو الكشف عن نظام الطبيعة، بينما يجنح العقل السامي العربي نحو الحقيقة الروحية المثالية، ويجب أن يكمل كلّ منهما الآخر).

في اليوم الأوّل لم أنتبه لشدّة انشغالي بضبط الصفوف والحفاظ على النظام إلى خيرية خانم الّتي كانت تفرض جوّاً صارماً على الإدارة ؛ ينقلب إلى صخب ونكات بذيئة وصراخ أحياناً حين تخرج إلى مناوبتها أو إلى شأن لها! لم أستغرب ذلك فبعض المعلّمين كان يخشاها، والبعض كان يتأدب في حضورها لمجرد أنّها أنثى! رغم أنّ خيرية خانم لا تتحلى بشيء من طباع الأنثى، فهي تمشي كديك أقعى على ذيله، وتنظر باحتقار واضح لمحدّثها مصحوب بكلمات سريعة لا تبدو حروفها بوضوح! وتنادي الأساتذة بأسمائهم من باب التصغير،

كدت أصطدم معها أكثر من مرّة حين كانت تبدي ملاحظات حول أسلوب التعليم في المدرسة، إلاّ أنّي التزمت الحياد إكراماً لشقيقها.

شاع لقب الديك الذي أطلقته عليها بين المعلّمين، فكانوا يتهامسون بحضورها ويشرقون بابتساماتهم الّتي يخشون تحولها إلى ضحكات فاضحة، وحتّى تلك اللحظة الّتي انكشف جوهر خيرية خانم أمامي فيها لم أكن أؤمن أنّها تنتمي إلى النساء بعودها الرفيع الذي يكاد ينقصف، ولونها الأسمر الباهت، لكنّ الموقف كان أكبر من أن أصدّقه.

كانت ترتعش بكليتها، والدموع تغسل وجهها، تسمّرتُ بالباب كالأبله، وأنا أرى نظراتها الولهى تمسح بنعومة وجهه ويديه، وهو مستدير إلى النافذة كأنّ الأمر لا يعنيه. منذ ذلك اليوم كبر إحساسي بالذنب تجاهها، وكرهت كاظم. مراراً حاولت أن أفتح باباً للحوار معه، لكنّه كان يقول هازئاً:

- اتركني يا رجل، لو خلت الدنيا من النساء لما فكّرت بخيرية خانم، إنّها صنف لا تصنيف له.

مع دخول الشتاء اشتدّ المرض عليّ، واضطررت لأخذ إجازة.

عدت إلى أريحا لأستقرّ في دار "أبو حشيش"، دارٌ خربة في أقصى الزابوق. رطوبة وروماتيزم اجتمعا عليّ فأنهكا جسدي وتضامن معهما ألم شديد في المعدة، فرحت أتقيأ الديدان، واستوطن التيفوئيد جسدي. مرّة أخرى عدت سنوات للخلف، تذكرت الشيخة بدرية، والقصبجي، وقبر العبيد و... هل اقتربت النهاية؟ نهايتي! وذاك الحلم المفتوح على أفق أزرق، يمتدّ فيه البحر إلى ما لانهاية، تراني أحظى بامتلاك ذاك الهدوء المنساب من صوت أمينة وهي تحكي كأميرة عن أسماك ملونة ومرجان، وأصداف تزيّن غرفتها، وعقد ياسمين صغير يطوّق عنقها فيبدو متناغماً مع بياض ياقة الثوب المترفة؟ تحسست جنبي هذه المرّة بغيظ، أين ذهبت تلك الصورة اللعينة التي ارتكبت

لأجلها الحماقات واقترفتُ الأكاذيب، وابتدعت الحيل لإخفائها عن العيون؟

وجدت نفسي في الزقاق المؤدي إلى دار بدرية القديمة، استقبلتني رفوف الحمام ترتجف من البرد والوحدة، غادرتْ بدرية الدار فمن يعتني بالحمام؟ الباب الموارب دفعني لمد رأسي متفحصاً الفسحة، شجرة النارنج مثقلة بالثمار، أوراق الدالية تملأ المكان بفوضى تخبر أنّ يد إنسان لم تمسها منذ زمن، ساقتني خطواتي إلى العليّة.كالمنوّم جلستُ على الدرجات الباردة أرقب الحمام والخواء من حولي. امتدت يدها الدافئة لتمسح شعري، ويد خالتي تضغط كتفي لتحافظ على هدوئي. وجهها المضيء، بخورٌ ينتشر في الأوردة، دفء ينبعث قريباً من أذني، كانت هنا، لكنّ المكان لم يعد يناسب ما وصلت إليه من صيت طار في البلاد فأحكمت سيطرتها على أعناق وأرزاق ومجريات أمور. بدرية فضّلت أن تكون هناك في حلب حيث يرد المسؤولون تكيتها الخاصّة، يقال إنّها لم تعد تقابل أصاغر القوم، ويحتاج المرء إلى انتظار أسابيع كي يحظى بدقائق تقرأ له فيها المستقبل، وترسم له الغيب من خطوط اليد!

الدفء المنبعث من ذكراها لفح أذني بشدّة فتخيّلت نفسي بين يديها، أجثو على ركبتي، أحني رأسي الملتهب، وأطير على جناح الحلم بعيداً. كم من المصائر عُلّقت بأصابعها؟ راودتني ابتسامة ساخرة، بدرية نضحت من جب فضة فتنتها وهوسها بمعرفة النّاس، والتأثير على مريديها، لكن من يتذكر؟ لم يعد أحد يربط بين شخصيتين متناقضتين لامرأة واحدة، الأولى كانت عاهرة يوماً، والثانية دخلت عالم المشيخة بشكل لا يزال غامضاً في مخيلة النّاس. شرقت بأفكاري المبعثرة، لكنّ الحرارة في أذني جعلتني أمدّ يدي أتحسسها وأنهض مسرعاً.

لا أدري من أين طلعت لي، اصطدمتُ بها أثناء نهوضي، وصرخنا معاً خوفاً واستغراباً:

ـ ما الذي جاء بك إلى هنا؟

مدت يدها بعجز تَمسح دموعاً مقيمة في المقلة، ووجدت نفسي أنا الآخر أمسح دمعها، رغم عجزي عن مواساتها، الصمت ونظرات قلقة ما استطعت تقديمه لها، الدمع والهرب ما استطاعت. قصمت حسنة بحضورها الصامت ظهر البعير، لم يكن ينقص هذا الخواء سوى حضورها تحتضن الوسادة، وتنقّب عن رأس طفلها، تشير بيدها إليه:

ـ انظر، كم هي جميلة ابتسامته!

لا زالت حسنة تجوب الشوارع، تتحدث إلى المارّة عن فارسها الذي غيّبته شمس المساء، وطفلها الذي ابتلعته الجنية في مغر الجبل، بحثتْ عنه هناك طويلاً ولم تجده، لكنّها واثقة أنّه هو من أخذه منها، كانت تصفه لي كلّما رأتني في الشارع، ذاك القصير الأسود، وتتحدث عن أشياء أخرى، فهمتها فيما بعد، وليتني لم أفهمها، فقد أشعرتني بمزيد من العجز والانكسار، لاحقتني الصورة القاتمة لماضيها البائس طويلاً، فقررت أن أغتالها أنا الآخر بالكتابة عنها، لتكن حسنة تلك البائسة ضحية الحبر الأسود، كما كانت ضحية الذئاب البشرية.

أشفقتُ على حسنة كثيراً من سجنها في صفحات بائسة، وهي الّتي تهوى البراري والبرد، وتنام تحت أشجار السمّاق ملتحفة أزهار النسرين البرية، كم أثارني منظرها الربيع الفائت وهي تنام قريرة العين، وحيدة في الجبل الخالي، لم أدرك أنّ حسنة تخلّت عن الخوف من الذئاب والوحدة منذ لفظها البشر ولفظت عقلها خارج جسدها فارتعت لما رأيت، لكنّها حين فتحت عينيها ورأتني، ركضت باتجاه المغر وهي تعوي بصوت مبحوح.

انسحبت خطواتي القلقة باتجاه مغارة الأربعين، دخلتها كالمأخوذ، الصمت المخيّم في العمق يقطعه همس ساحر يناديني، سرت كما في الحلم، تجذبني تراتيل الرهبان الأربعين، أصوات نواقيس راحت تعلو برتابة يصاحبها غناء جنائزي أطبق على حنجرتي فتفجّرت الدموع من عينيّ، سالت بهدوء، وشعرت أن أطرافي تغادرني تدريجياً، سبحت في فضاء ضبابي معتم، لمحت خلله نوراً باهتاً سحبني وراءه، كانت ضحكتها الخافتة تدعوني، وأنا أتابع الطيران، أحسست للحظات أنّ نبضي يتوقف وجسدي الذي فارقته القشعريرة خفّ وعلا، وضحكتها تسحبني من ساقيّ المخدرتين، فجأة تعثرت بشيء طري وانكفأت على وجهي، لم يكن فزعاً ما شعرت به، فقد غمرني دفء غريب تسرب إليّ من جسد ها! كانت ذراعاها تحيطان بعنقي، وأنفاسها تحرق جبيني. استسلمت للذة الحلم وحدّقت في العتمة فرأيت عينيها الواسعتين تلمعان كماسة سوداء، أم تراه ظلّ دمع؟ ارتجفتُ فجأة، هل يعقل أن تكون هي؟ لم يطل بي التفكير، فقد سرقتني أنفاسها الملتهبة من أفكار اصطرعت للحظات في دماغي، ووجدت نفسي مستسلماً لعناقها، حتّى شعرت بيدين فولاذيتين تضغطان عنقي بقسوة، هل كان مرضي سبباً في تلاحق أنفاسي وشعوري بالاختناق؟ أم رغبتها في قتلي جعلتها تتغلب عليّ لدقائق طويلة شعرت بها دهراً؟ لا أدري كيف تملّصت منها، ولا كيف غادرت المغارة، فقد وجدت نفسي أهرول في الدرب الضيّق نازلاً باتجاه الشمال.

لا الهواء النظيف، ولا التماس قبر العبيد، ولا ذكريات الشيخة بدرية ونصائحها أثرت في صحتي، وبتُ بحاجة لحل سريع ينقذني مما أعانيه.

الحمية، قالها الطبيب محمد نعمة الشاب الوسيم الذي يجد لكلّ داء دواء إلا معي فأدويته لا تنفع، لأنّها تُرمى في أرض جرداء! فاضطر

إلى وضعي في المستشفى بإدلب كي يراقب التزامي بالتعليمات. وقرر عني حين تحسنت صحتي أن أنتقل من عين العرب، ومن هناك بوساطة استطعت أن أعود إلى محافظة إدلب، وعُيّنت في الجانودية.

حملت حقائبي من جديد، ورحت أبحث عن... عمّا أبحث حقّاً؟ السؤال ما زال يقلقني.

إلى حيث نُقلت كتب لي كاظم رسائل كثيرة، كانت تدور حول كلّ شيء، السياسة، والمدرسة، قرفه من مهنة التعليم، بحثه عن مجتمع أفضل، تفكيره بالسفر خارج سوريا، لكنّه لم يأت على ذكر خيرية خانم في رسائله. حتّى قررت اقتحام تلك المنطقة المحظورة في نفس كاظم والسؤال عن الأمر، فقد شعرت أنّه يريد البوح بما في قلبه لكنّه ينتظر تشجيعاً مني.

❖❖❖

قصة حياة "أبو العاصي " الذي أكرمني بركوب بغلته إلى القرية، كانت فاتحة إقامتي هناك. حاذاني ماشياً من جسر الشغور حتّى الجانودية. رجلٌ أشيب في العقد الثالث من عمره - كمّا ادّعى - ثيابه رثة، أكل الزمن أطرافها فبدت لرجل أصغر قامة وعمراً. قام بمهمة الدليل فعرّفني بالمكان.

ضمن وادٍ مررنا بالنّهر الأبيض الصغير، صعدنا بعده جبلاً شديد الانحدار، فمشى أبو العاصي خلف البغلة ليحميني من السقوط، البغلة تلهث، وأبو العاصي يقح ويتنحنح محاولاً ضبط أنفاسه المتلاحقة، وأنا منشغلٌ بتثبيت نفسي فوقها.

طال الدرب، وما كدنا نستقر على ظهر الرابية حتّى أشرفنا على واد سحيق، رددَ وقع أقدامنا وهمهماتنا ممزوجة بخرير الماء المنحدر من الأعلى. رائحةٌ مسكرة تسربت إلى أعصابي من غابات اعتلت كتفي

الوادي، عبيرُ نسرين خفيف مع صنوبر، مع... لم أستطع تحديد أنواع الروائح الّتي اجتاحت المساء واشتدت مع اقتراب العتمة. مررنا بصخرة فغرت فاهها لتندفع منه مياهٌ عذبة شكّلت ساقية عريضة، انحدرت في الوادي العميق وردد الصدى صراخها على عتبات الصخور المنحدرة. خفقانٌ تردد صارخاً في أضلعي، رذاذ السواقي ضرب وجهي مُجبراً عينيّ على إغماضة خفيفة، رأيت خلالها أطيافاً لكائنات غريبة تحملني بعيداً،كان وجهها هناك، رُسم بأناقة في لوحة القدر، تبدو وسط سماء زرقاء، وراءها سهل فسيح من الرياحين تتوسط كفها خصرها وتسند الأخرى جذع شجرة عملاقة لا يبدو منها في الصورة سوى جذعها، لم تصل يدي إلى جنبي، كنت أتشبث بالرسن بقوة!

تساءلت للحظات وأنا أفتح عينيّ، أين أنا؟

أبو العاصي انتشلني من تيه غصت فيه مرغماً وهو يشرح لي طبيعة الطريق القاسية، وحكاية هدولة! الحكاية أخذت بمجامع نفسي حتّى أنّي أرخيت الرسن للبغلة، ووليت وجهي شطر أبو العاصي، ربّما يكمن السرّ في الراوي وليس في القصة، فقد كان أبو العاصي يروي ويشهق، وتنفر دموعه حيناً فيمسحها بكم قنبازه مخفياً أثر الجرح في القلب: (كانت هدولة يا أستاذ أجمل بنات القرية، تجرّ وراءها ضفيرة شقراء بطول مترين، لن تصدق، كان شعرها مثار الحسد، نعم أصابوها بالعين. لن تصدق. ! تستغرب أنْ تحبَّ فتاةٌ جميلة رجلاً شنيعاً مثلي أليس كذلك؟ لكنّها أحبتني، ستقول لنفسك ومن أين لهذا المسكين المال ليحظى بخطبة هذه الجميلة؟ ربّما لن تصدق. بعت قطعة الأرض ميراثي من أبي لأدفع مهرها، الكلب والدها أخذ النقود وغيّر رأيه، قال لي: أنت لا تناسب ابنتي، جاءها من يليق بها. من تعتقد؟ لن تصدق، المختار شخصياً طلبها للزواج. لم أترك لليأس طريقاً إلى قلبي، وسّطت له أهل الخير فازداد عناداً وطردني، همت في

البرية زمناً، حتّى نسي أبوها وجودي، لكنّ القلب لم يخفق إلاّ لهدلا. سمعت أنّه سيزوجها يوم الخميس، وأنّ العرس سيكون في الساحة تحت، هل ترى العين هناك أسفل الوادي، هناك يا أستاذ كانت العراضة، أعرف أنّك لن تصدق ما أقول، لكنّي جمعت عصبة من المشردين واختطفتها. بعيداً عن هذه القرية المشؤومة عشت معها أشهراً،كانت عمري كلّه، حين فاجأها المخاض كنّا منعزلين في الجبل، الريح والمطر يتسربان من الشقوق، يجلدان بسياطهما الجسد والروح، ليلتها عرفت أنّي مفارقها، لكنّي لم أيأس، أحضرت لها الداية من الجسر، وكانت أوّل إنسان يطأ بيتنا ويعرف الطريق إليه، جاءنا عاصي، فرحة العمر، لكنّ أمه المريضة لم تستطع إرضاعه فراح يهزل ويذوي وأنا عاجز عن تأمين ما يلزمه، أترى الصخر هذا، لن تصدق أنّي حفرته بأظافري لأجلب لها طعاماً، لكنّ القدر كان لعاصي بالمرصاد، مات وعيوننا تنظر بفزع. موته ترك حرقة في حلقي، مع هذا حاولتِ تهوين الأمر فالولد يعوّض، الأمر لم يكن كذلك لهدلا. مرّت الأيام وهي شاخصة صامتة، ثم راحت تهذي بكلام غريب، هل تصدق؟ كانت تكرر أنّ زواجها مني حرام، وأنّ الطفل مات لأنّه ابن حرام، بربك يا أستاذ هل ذلك صحيح؟ شخصٌ ما أدخل في عقلها أنّ عقد زواجنا باطل، عرفت فيما بعد أنّ الداية نقلت لها أخبار القرية، وما يقوله النّاس عن هربها، وأنّ والدها نذر ذبحها إن عثر عليها، وأنّ شيخ القرية أفتى بقتلها لأنّها ارتكبت إثماً. لن تصدق يا أستاذ، لقد عدت يوماً فوجدتها مُعلّقة بحبل الدابة في شجرة الدلب وقد قُصّت ضفيرتها! شككت أنّها انتحرت، جسدها الضعيف لم يكن يساعدها على ذلك الفعل الجهنمي وإن ساعدها ذهنها المريض، ثمّ من أين حصلت على الحبل؟ كانت آثار أقدام في الدرب تضع السؤال نصب عينيّ يبحث عن جواب شافٍ. هجرتُ المكان، وذهبت إلى الجسر مع

بغلتي حيثُ رَأيْتَني عند تاجر الحبوب، هناك أعمل وأقيم، وأتسقط أخبار القرية، بودي لو أعرف يا أستاذ غريمي الذي خطف مني حياتي، أشكّ بالأقرع مختار القرية، ربّما انتقم لنفسه، لكن ماذا يفيد ذلك، لقد رحلتْ وتركتني لشقاء أنهك الروح والجسد، الحسرة تأكلني وأعد الأيام المتبقية لي لألقاها.) أبو العاصي استفاق من ذكرياته ليخرس بغلته الّتي تجاوبت مع نهيق حمار من القرية، علّق أبو العاصي:

ـ ذاك مختار الحمير! أترى بيته أستاذ، هناك في الأسفل قرب العين، لن أستطيع الاقتراب أكثر، فكما تعلم المختار ابن الكلب لا يطيق رؤيتي، وأنا أيضا.

انحدرتُ باتجاه البيت قريباً من عين الماء الّتي يقف عليها حارس ينظم الدور للنسوة ويملأ جرارهن وقربهن. طرقت باب المختار، فخرج إليّ غلام قذر، رث الثياب، رمقني بعين معمّشة، وسألني عمّا أريد، أزاحته من الباب امرأة قصيرة نحيلة صفراء الوجه، ودعتني للدخول ريثما يأتي زوجها، أحضرت لي كرسياً من القش لأرتاح عليه. وضعتُ الحقيبة جانباً ومددت ساقيّ المتيبستين، وأغمضت عينيّ لدقائق. أيقظني رجل قصير يحك قرعته من فوق حطته وينظر إليّ شزراً. طلب مني أن أنهض احتراماً له، تأملته من مكاني ومددت إليه رؤوس أصابعي، نادى زوجته وطلب منها إحضار قهوة وهو يشتمها، ثم التفت إليّ متبسماً:

ـ أتمنى ما تطوّل إقامتك بيننا، على كلّ حال لن تستطيع، لأنّنا جماعة أرزال بدون استثناء وسيصيبك من الأذى ما تذكره طوال عمرك.

أردف المختار أنّه كان يمزح معي ودعاني للعشاء، قدّم لي صحن مجدرة بدون زيت، ولبن حامض، أكلت لقمتين وابتعدت، ثم انشغل عني بفلاحين أتوا يريدون شهادة ميلاد لأبقارهم كي يستطيعوا بيعها في

بازار الجسر، تململت مبدياً رغبتي في النوم، فاعتذر المختار، وطلب من الحارس أن يدلّني على بيت أحد المعلّمين لأنام عنده! الحارس أيضا وقف بالباب متردداً، فنهره المختار:

ـ تحرك، ألا تعرف أنّه لا يوجد عندنا مكان ينام فيه الأستاذ.

تردد الحارس لكنّه امتثل للأمر، أشعل مصباحه اليدوي، ومشى أمامي، لاحظت في مشيته تعثراً وكأنّه خائف، سألته عمّا به فأخبرني أنّ القرية مقسومة قسمين، أهل الشمال وأهل الجنوب، لا يستطيع شماليٌ دخول الحارة الجنوبية وكذلك الجنوبي، أما الزقاق الرئيسي فمنزوع السلاح، كلٌ من الفريقين يسير على طرفه الخاص! وإذا دخل غريب ليلاً إحدى الحارتين يُقتل لظنهم أنه من الحارة المعادية، والتجول ممنوع بعد العشاء للحارتين. أضحكني الأمر و لم أحمله على محمل الجد حتّى لاحظت أنّ المارّة مسلحون وأيديهم على الزناد فعلاً، فتلبستني الرهبة. لم يطل بنا الأمر، وصلنا مكاناً في الحارة الشمالية تتداخل فيه دور الحياديين مع دور المحاربين! طرق الحارس باباً، فخرج إلينا شاب وسيم استقبلنا ببشاشة، قال له الحارس:

ـ أستاذ ثروت، استلم، هذا أستاذ جديد في المدرسة، لكن لا تخبر المختار أنّي جئت به إلى هنا، قل له إنّك التقيته في الطريق.

لم أعرف سر تلك الاحتياطات والفزع الذي ألمّ بالحارس. الأستاذ ثروت شرح لي أثناء السهرة تفاصيل حياة القرية بعد أن أسعفتنا أمه بمائدة من العسل والمربيات والزيت والزيتون والبيض المقلي وخبز التنور الرقيق، دفعني كرمهم للتصرف وكأنّي في بيتي، أشعلت سيجارة وجلست، لفت انتباهي النظافة والترتيب في غرفة ثروت الذي منعني من التدخين:

ـ الدخان بعد الأكل أستاذ، دخانك خفيف، غداً تتعود على الدخان التركي، فهو جيد وثقيل وليس مثل البافرا.

لم ننم، أخبرني ثروت كلّ شيء عن القرية، مشارب النّاس وخلافاتهم، المدرسة ومشاكلها، وتطرقنا إلى السياسة، فتحدّث بإعجاب عن موقف أديب الشيشكلي ورحيله عن سوريا دون أن يترك مجالاً لسفك الدماء:

- كلّ الأحزاب تشكّل نفياً للآخر وتحدياً له، لكن لم تكن هناك إمكانية معركة فاصلة. برأيي أديب وضع حدّاً لذلك الصراع والتنافر في المجتمع بضم الجميع في حركة التحرير.

بالرغم من إعجابي بموقف أديب إلا أنّي لم أكن أصرّح إلا بعدائي له، فقد حلّ الأحزاب وكتم أنفاس الشعب، وخنق الحريات. لم يكن ثروت منتمياً لحركة التحرير، لكنّه كان معجباً بسياسة أديب بعيداً عن الجيش، كان ثروت يرى أنّه يكفيه فخراً قتاله في فلسطين، وتمسكه بالحقوق الفلسطينية والدفاع عنها، ألا يكفي رفضه للعرض الأمريكي بإنشاء اوتستراد بين حلب وبيروت ودمشق وبغداد مع الاحتفاظ بحق استخدامه زمن الحرب! وأضاف بعد تنهيدة:

- لقد كان الشيشكلي مواطناً مخلصاً لا يقبل مساومة ولو على روحه.

الإرهاب الذي مارسه الشيشكلي على النّاس بابتداعه فكرة (المكتب الثاني) وإصداره دستوراً جديداً، وطرح رئاسته على الاستفتاء، لم يُبق أملٌ في التغيير أو تنفس الحريّات، أذكر قول هاشم وهو يتناول نرجيلته في مقهى مرسال:

(أسوأ ما جاء به أديب، إعطاؤه الحق للمرأة في الانتخاب.

ابتسم مرسال وهو يضع فناجين القهوة أمامنا ويصلح نار النرجيلة وقال:

- والله يا أستاذ حق المرأة في الانتخاب أسوأ من سجن الشيخ حسن، ذلك سيف رفع في وجه الأحزاب، وهذا سيف على رقابنا،

النساء بدأن يرفعن أصواتهن في وجوهنا بسبب مسند ظهرهن أديب بيك.

قال محمد ديب ضاحكاً:

. أي عليّ الطلاق بالثلاثة إذا أم أكرم بتطلع من البيت بكسر رجلها، قال تصويت قال.

وكنت أرى أنّها حسنة أديب الوحيدة، فقد كان الأخوان يسرحون ويمرحون، وجماعة أكرم خلا لهم الجوّ زاعمين أنّه وراء الانقلاب! كنت أدرك أنّي أغني في الطاحون فأنا بين شخصين على طرفي نقيض لكنّهما يشتركان في كراهية المرأة واعتبارها بلاء يحطّ على الرجل!

بعض الرفاق كانوا يتحدثون سرّاً بعد انتقال القيادة إلى لبنان، بأنّهم سيهدمون سجن الشيخ حسن، وسيطيحون بأديب ومَنْ وراءه!)

وأدرك شهرزاد الصباح، لكنّها لم تسكت عن الكلام غير المباح، فثروت على ما يبدو كان يعاني جوعاً تاريخياً لصديق يسمعه، ويتقبل آراءه دون تذمر، وكنت ذاك الصديق الذي تخلّى عن الجدل لتلك الليلة فقط، فقد كنت مشغولاً بتلك الذكرى الحارقة لوجهها الصامت وهو يودعني بسكون مريب، ما يقلقني حقّاً لماذا تبدو حيادية هكذا مع أنّي متأكد أنّها تحبني؟ تكاد أمينة تنسف كلّ تلك النزوات العابرة والأحلام، لتطفو على زبد يتلاشى بسرعة فأشعر بالاختناق.

صباحاً قصدنا المدرسة. صعدنا رابية عالية ودلفنا طريقاً ملتوية بين الجنائن الوارفة الظلال المسيّجة بعيدان الأشجار وأغصانها وقد تمددتْ فوقها الأعشاب البرية حتّى وصلنا نهاية الرابية. المدرسة مؤلفة من خمس غرف تطلُّ على واد سحيق من الغرب، تحيط بها أشجار الدلب والصنوبر والتفاح والزيتون. شرقها باحة بدون سياج.

استقبلنا القط، المدير الجديد للمدرسة، رجلٌ في الأربعين طويل، ضخم الجثة، نظراته لا تستقرّ في مكان، يُحدِّثك ويتطلع حوله، مدَّ يده بجفاء واضح، وقدّم لي مرافقه حسين المدير القديم، رجلٌ قصير ممتلئ الجسم، سمرته تميل إلى الدكنة، سارا أمامنا إلى الإدارة.

بدأ المدير مهامه بانتقاء الصف لي، فكان نصيبي عصبةُ أغبياء من الصّفّ الخامس، البلاهة وسمت محياهم، معظمهم تجاوز العشرين و... أصابني الإحباط من اليوم الأوّل، وعلى الرغم من الجهد الذي بذلته للتواصل مع هؤلاء التلاميذ الذين يبزونني طولاً وضخامة، بقيت أنفخ في قربة مقطوعة! وندمت على طلب النقل إلى هذه القرية التعسة. حروب عصابات، وكراهية عمياء، وتلاميذ ينتظرون أن أحقنهم بالمعلومات ليصبحوا وقد وجدوا أنفسهم موظفين في الدولة! الأتعس كانت علاقتي بالمدير الجديد (القط)، فقد كان لئيماً يجاهر بكراهيته للحصص الدينية وبإعجابه بالماسونية العالمية، كان يكرر دائماً: (وماذا جنى أديب من موقفه مع الفلسطينيين؟ ليحرروا بلدهم بأنفسهم، ما علاقتنا نحن بذلك؟).

أما حسين المدير المخلوع، فقد كان مسالماً، يهز رأسه موافقاً على أقوال القط، مع يقيني أنّه مختلف معه في كلّ شيء. قال لي مرّة ونحن على انفراد:

- أعتقد أنّ القط جاسوس، احذره.

حاولت الاستفسار منه عن شكوكه، لكنّه لم يكن يملك يقيناً ولا دليلاً، فقط شكوك تجعله يتملق المدير تحسباً للأذى، إلاّ أنّ نظرية حسين سقطت بصدور قرار بعودته للتعليم وتسليمي الإدارة!

القط لم يتنازل عن صلاحياته ورفض القرار، وحاول اللعب من ورائي برشوة الدركي الذي أحضر الورقة باتفاق مع المختار. الجميع في القرية يدسون لبعضهم، ويبدو أنّهم اعتبروني تابعاً للجنوبيين، فقد

لاحظت كراهية الشماليين وعلى رأسهم المختار ووقوفهم ضدي حين حاولت إصلاح جدار المدرسة الآيل للسقوط. فقد حرّضوا الأهالي على رفض التبرع للمدرسة، فرجع التلاميذ إليّ بخفي حنين. أعلن القط العصيان ولم يعد يحضر الدروس، يدخل الصف ليقرأ الجرائد ويترك التلاميذ في حالة فوضى، حسين أخبرني سراً:

- القط يكتب تقارير بك إلى جهة ما.

لم أستطع تخمين الجهة، فهو لم يكن من جماعة أديب، وليس من جماعة القوتلي، فلمن يكتب؟ المفاجأة جاءتني على لسان ثروت في إحدى سهراتنا:

- أتعرف أنّ القط من جماعة أكرم الحوراني؟

القط! كان ذلك مفاجئاً لي، أكرم الرجل الأقوى الآن بعد رحيل أديب وصعود القوتلي إلى الرئاسة. لكن كيف يكون من رجال أكرم ويعطونني الإدارة دونه؟ بدأت ارتاب بالأمر.

(لقد دعاني آغا المعرة منذ زمن لاستلام رئاسة حزب أكرم في البلدة، لكنّي وقتها ضحكت ملء روحي من محمد ديب وهو يهمس لي:

- ما بدك تروح إلى المعرة؟

- يا آغا، أكرمكم سرق دستور البعث وجعله دستوراً له، والآن يريد سرقة المنتسبين إليه.

همس محمد ديب بما يوحي بأهمية وخطورة كلامه:

- أي عليّ الطلاق آغا المعرة رجل ولا كلّ الرجال، يوزع أسلحة على رجاله، ما بدّك تحارب الإقطاع وإخوان الشياطين؟

قلت ساخراً:

- وهل سيصمد أكرم في وجه الشيشكلي؟

قبل أن يجيب محمد ديب، غمزه خلدون قائلاً:

ـ يريد أن يستعيد أيام العز بالقوة، رحم الله أيام الحريات واجتماع العرب على كلمة واحدة.

رغم معاداتي لأديب، قلت محتداً:

. بماذا خرجت مؤتمرات العرب في أنشاص وبلودان؟

غرق محمد ديب في الضحك ثانية:

. حبيبي، ما بدها تفكير، رموا اليهود في البحر.)

كان حسين قارئاً نهماً يريحني من شراء المجلات والجرائد بإحضارها كلّ خميس من الجسر، وعلى عكس ثروت كان يرى في رحيل أديب متنفساً للنّاس، فالصحافة تنتقد، والوطن للجميع، وكلّ الفئات تدخل الكلية الحربية دون حاجة لتحقيق، ولم تعد الوظائف حكراً على أحد، والشعراء يهجون الرئيس على المنابر وفي الجرائد وهو على الحياد! ولم تتورع الرأي العام الدمشقية عن نقد الحكومة والوزراء الذين يرتشون، بطريقة بذيئة.

الحرية العائدة أعادت معها الأقلام الساخرة للظهور، فقد نشرت مجلة المضحك المبكي مقالة عن محام توكل لصحفي من المعارضة شتم الحكومة، متقدماً بمرافعة شفهية قال فيها :) سيدي الرئيس، ينسب لموكلي أنّه قال: يلعن أبو الحكومة ـ يلعن أبو الحكومة ـ سيدي ـ لفظٌ لا يشكّل جرماً، لأنّ يلعن أبو الحكومة ليست مسبّة سيدي الرئيس، فلو أنّ موكلي قال: يلعن أبو رئيس الوزراء، لكانت جريمة، لكنّ الحكومة لا أبا لها، فإذا قلنا : يلعن أبو الحكومة ألف مرّة ومرّة، فإنّنا لا نشتم أحداً بعينه). وهكذا شتم المحامي الحكومة ألف مرة وهو يرافع عن الصحفي الذي شتمها مرّة!

و بتخلي عفلق عن حزب البعث واتحاده مع حزب أكرم ليشكّلا البعث العربي الاشتراكي، تسلل كثير من الانتهازيين إلى صفوف الحزب

وارتقوا سلم المناصب، وتذكّرت محمد ديب حين قال لي: (إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم). يا إلهي كيف تكرّ الأيام وتتبدل!

حسين طالعني بابتسامة غامضة ذات صباح وهو يرشقني بنظراته الطيبة:

. هل سمعت المستجدات على الساحة؟

لم أفلح في تخمين الأمر قبل أن يخبرني بالخطاب الذي ألقاه خالد بكداش أمام مجلس النواب، لقد كان مفاجأة لم يصحُ حسين بعد من أثرها، وقد أصابتني عدوى الإعجاب بما قاله، فقد أكد أنّ جميع مقومات الأمة (بما فيها الوحدة الاقتصادية) متوفرة في العرب (كما هو واضح وساطع في رائعة النهار). أقوال بكداش لم تكن غريبة بالنسبة لي، حتّى تأكيده على أنّ الوحدة العربية هي (إحدى قضايا السلم والحرية في العالم) وهي (نتيجة لتطور تاريخي موضوعي مستقل عن الرغبات والإرادات). ربّما لأنّه فتح بكلماته تلك طاقة الحلم وأدخل منها بصيصاً من نور الشمس، فأحسست بتلاشي الحواجز الشائكة بين أهداف الأحزاب المتنافرة. فهل يتحقق حلمي بالوحدة؟

حسين كان يأمل أن يكون لحزبه الدور الرئيسي في تحقيق الوحدة العربية بعد ازدياد سلطة الحزب ونفوذه. كنت أدرك أن تبني الاتحاد السوفيتي للجبهة الوطنية على الصعيد الداخلي هدفه تمكين الحزب الشيوعي من الانطلاق إلى قواعد ومكاسب جديدة، كما حصل بالنسبة للجبهات الوطنية في أوربا الشرقية.

قمنا بجمع التبرعات في القرية لتسليح الجيش الشعبي بسبب الحشود التركية على الحدود، كان النّاس في حماس شديد يتخلّون عن ممتلكاتهم ببساطة جعلتني أُكبر هؤلاء الذين وحّدتهم مصيبة الوطن بعد أن كانت أسلحتهم موجهة إلى صدور بعضهم البعض. كنّا نحمل

زنبيلاً كبيراً، تلقي فيه الفتيات بأحزمتهن الفضية وحليهن، والرجال يضعون أسلحتهم وما يملكون من سيوف قديمة وقنابل وثياب،كانت الجانودية أكرم قرى الجسر قاطبة، وأكثرها وطنية، دفعت بكلّ ما تملك في سبيل الدفاع عن الحدود، الوحيد الذي منع زوجته من التبرع وشدّها من شعرها لتدخل البيت، هو المختار الذي لم يضع قرشاً واحداً في زنبيل التبرعات! لكنّ زوجته استوقفتني ليلاً وهي تهمس:

- هذه لك، سرقتها من خزنة المختار.

جفلتُ من فحيح صوتها في العتمة، بسملتُ وحوقلتُ وهي تختفي في البوابة، جسّت أصابعي الصرّة، شيءٌ ناعم، ليس نقوداً، وليست حُلي.. إنّها .. هل تسخر زوجة المختار مني؟ صوف ماعز؟ ربّما. دلفتُ غرفتي وخفقات القلب تشتدّ، أشعلتُ القنديل، وفتحت الصرّة على عجل.. إنّها، يا إلهي! جحظت عيناي وهي ترى كما يرى النائم جنيةً تبرز من الحائط، تجرُّ خلفها ضفيرة شقراء طويلة، سمعتُ همس خالتي فاطمة وأنا أرتعش: (ولمّا اقترب حسّان من البرج، مدّت عنقة بنت الريم شعرها الطويل من النافذة، فتعلّق العاشق المتيم به صاعداً إلى سجنها). تهالكتُ على السرير، وأغمضتُ عينيّ على وجه الحلم المفقود، تراها مازالت كما هي سيدة صغيرة ناضجة بخدود متوردة وقوام معتدل و.... وغفوت.

كان لبغلة أبو العاصي الفضل في نقل التبرعات إلى الجسر، وأصبحت رفيقة لي في كلّ تنقلاتي، تذكّرني بالخضراء فأتنهد على مضي تلك الأيام. كنت طوال الطريق أتصوّر الضفيرة وهي تنتفض من الصرّة، وتستوي على ظهر البغلة... ظهرٌ مستقيم، وجلسة ملكة، لكنّ الوجه يستعصي على الحضور، فتنفر ملامحها من الشرايين، تبتسم بغموض، وتغوص في بحيرة من الذكريات الجميلة!

أكثر ما كان يثلج صدري في رحلتي إلى الجسر رسائل كاظم، ذلك الشقي المتمرد، لم ينس ما كان بيننا في قاضي لار وعين العرب، لكنّ رسائله بدأت تدريجياً تفقد طابعها الحماسي، لم يعد يحدّثني عن المدن الاشتراكية الّتي يحلم بقيامها، ولا عن السفر إلى روسيا الذي أرّقه لسنوات، ولا عن أمه العجوز الّتي تقول له دائماً :(الله يهديك يا بني ويشرح صدرك للإيمان). وترفق دعاءها بالدموع. رسالته الأخيرة هذه جاءت في أسبوع التبرعات، ازدحمت فيها عواطفه وتشتت ذهنه، إلام وصلت حاله؟ لم يبدأ رسالته بالتحية، بل قال:

(أحياناً يصدمني الفراغ بحضورها، فأراها جالسة في ذلك المقعد الخالي، ترنو إليّ خلسة وترتعش، فينسكب الفراغ في روحي. أحياناً تتمثل لي عابرة الساحة إلى صفّها، تقف بالباب وابتسامتها تتعثر بالتردد والخجل، هل أحببتها؟ هناك أشياء تحدث لنا لا نفهم كنهها، بل نرفض الفهم طالما كانت ملك أيدينا، حين يقتلك الفراغ بحد سيفه الصدئ، ويقطّعك أشلاء، تدرك كم كنت غبياً! هل أضعتُ كنزاً كنت أسخر من وجوده؟ يخيّل لي أحياناً أنّي فعلت ما هو أشد من القتل، لقد طلبتْ النقل لأنّها لم تعد تحتمل سخريتي وتجاهلي.

جميعنا اشتركنا في قتلها، هل أخفف وقع الجرم على نفسي؟

إبراهيم، لقد ماتت خيرية، جاءني نعيها على لسان شقيقها، تركتْ لي دفتراً أوصته بتسليمه لي، هل تدرك قسوة الطعنة؟ لقد أرادت أن أفهم ما تحمله لي من مشاعر، لم تعرف ما تحمله هذه النفس المعذبة، هل لك في كأس يا صديقي؟ فهي رفيقتي الوحيدة الّتي لن ترحل أبداً. هل لك بكأس؟ لقد تحوّل المرجان أحجاراً باردة.. لم يعد يجدي أن يلمسه القلب ليشتعل!).

لم يذكر كاظم في رسالته كيف ماتت خيرية خانم، ولا كيف انتقلت من عين العرب، لكنّي لم أهتم بالتفاصيل، بل بتلك الفاجعة الّتي تبعتها

فاجعة أخرى كانت الأقسى بالنسبة لي، فقد دخل حسين هذا الصباح لاهثاً إلى الإدارة ليخبرنا باغتيال العقيد عدنان المالكي على يد القوميين السوريين، كان حسين قلقاً متوتراً، وأنا أصابني الذهول، لكلّ منّا أسبابه! حسين روى لي أنّ أكرم تمرّغ بتراب المالكي، لكنّه كان مرتاحاً لمقتله كي لا ينافسه في القيادة! كما ذكر لي أنّ هناك من يقول إنّ بريطانيا هي الّتي دفعت الحزب القومي السوري لاغتيال المالكي، رغم نفي بعض أعضاء الحزب مسؤولية الحزب عن الجريمة.

واجهني القط بكلّ صفاقة طالباً منّي التنازل عن الإدارة، فهو أكبر سناً ومعه البكالوريا، هذه حقائق لا أستطيع نكرانها، لكنّي لم أتنازل وإن أبديت استعدادي لترك التعويض له. لم أنس عندما كان يحضر دروسي ويسفه آرائي أمام التلاميذ، ويعيب طريقتي في التعليم، وهو لم ينس أنّي هددته أمام المعلّمين بضربه إن عاد إلى ذلك. سُدّ طريق الحوار بيننا بالأسلاك الشائكة، وسادت المؤامرات جوّ المدرسة. ومع أنّي ضمنت تأييد حسين وثروت إلاّ أنّ القط استطاع أخيراً أن يقصيني إلى محافظة أخرى ويستأثر بالمدرسة والإدارة، كان جدار المدرسة الذي تهدّم فوق طالبين أصيبا بكسور، أحدهما في حالة خطرة، الورقة الرابحة في يد القط، وقد انهار مع الجدار ثلاث غرف، علقت أسقفها على أشرطة من الحديد، وتفتتت التربة الكلسية تحت البناء، وغنم الأقرع حميدان النقود الّتي جمعها من الأهالي باسم أسبوع الجدار، أسوة بأسبوع التسلح، وأسبوع الجيش، وأسبوع النكبة...! وهكذا هبّت ريح الغرب، لتحملني صوب البحر بعيداً عن وعورة نفوس أهل القرية الّتي أحببتها. هذه المرّة جاء نقلي - تأديباً - بسبب الإهمال وسوء استخدام المنصب!

❖❖❖

دلفتُ المقهى قافزاً درجاته الثلاث، رامياً جسدي على الكرسي بخفة، واضعاً نظارتي الشمسية، وفارداً أوراقي التعسة. جاءني مرسال بملامحه العابسة ينظف الطاولة، ويضع فنجان القهوة المرّة أمامي قبل أن أطلبه. من أين اكتسب مرسال هذا الاسم؟ سألته مرّة، فقال إنّه لا يعرف سوى أنّه كان عبداً جلبوه من أفريقيا، باعوه، وزوجوه، وقدره رماه إلى بلدتنا. حطّ رحاله مقابل السراي الجديدة بطرف الساحة الجنوبي، غرس قضباناً في أرض البستان وبنى عليها خيمة من أكياس القنب العتيقة، وحفر درجاً في التراب إلى (المقهى) وبنى غرفة صغيرة من حجارة منوعة وضع فيها عدّة القهوة قرب داره الّتي تقبع بين القبور. تخيّم على مقهاه شجرتا تين ضخمتان مع شجرة توت شامي، غرس سليم حولهما لبلاباً وعرّشه فوق الخيمة، يلتف حوله نباتٌ متسلق آخر يدعى بوري السمّاعة. لم ينجب مرسال ذكوراً لذا تساعده ابنتاه الصغيرتان في العمل، وهو ينادي إذا أراد شيئاً منهما، هيه، هيه.. فتأتي إحداهما على عجل. سليم طويل القامة عريض المنكبين، مستدير الوجه، بارز الوجنتين، غائر العينين، أفطس الأنف، حليق الذقن والشاربين، تتدلى شفته السفلى قليلاً، يقلّصها غضبه الدائم، وعبوسه الملازم له، يرتدي جلابية حديدية اللون وطاقية بيضاء تميّزه عن النّاس من حوله، يثير الغبار في مشيته الّتي تحاذي الأرض دائماً، فهو لا يرفع قدميه عنها. حباه الله بابنتين غاية في اللطف والأدب، تعاملانه بكلّ احترام ومحبة، وبقدر لطفهن كان هو غليظاً في معاملته للزبائن وكأنّهم من بقايا أملاكه! كنّا خمسة زبائن، نداوم عنده حتّى إذا غاب أحدنا تفقّده مستغرباً، ونادراً ما كنّا نأتيه في الصباح باستثناء هاشم ومصطفى، فهما صاحبا نرجيلة صباحاً

ومساء. والمشروب عنده حسب رغبته، ما إن يجلس الزبون حتّى يأتيه بكأس الشاي ويقول:

- اشرب.

بصوت عال واضعاً بين الراء والباء ألفا ممطوطة. فإذا قال له الزبون، أنا لم أطلب شاياً، يردد عبارته بصوت غاضب، يرهب الزبون فيسكت على مضض، ويقف هو جانباً، يلف سيجارته ويتطلع بالزبون بطرف عينه. فإذا لم يشرب الزبون، يثور سليم ويرشقه بكلمات قذرة، وقد يرفع النارجيلة من أمامه ويطرده. كثيراً ما يتعرض للزبائن أمامي فأزجره بلطف، يسارع على إثره إلى الغرفة الصغيرة، ويتطلع إليّ من الطاقة الصغيرة، فأشعر أنّ هذا الرجل الضخم يحمل في قلبه طفلاً مذنباً يخشى العقاب. وكثيراً ما تكون تصرفاته نواة سعادتنا فنضحك من قلوبنا غاسلين الصدأ المتراكم فيها.

وقد دخل زبون غريب بالصدفة إلى المقهى وطلب نرجيلة، جاءه بها سليم ووضع التنباك أمامه وقال له:

- أعصر.

وكعادته وضع واوا بعد الصاد ومطّها بصوته العالي، استغرب الزبون، فأمره بعصر التنباك على الأرض أمامه، وعاجله بكأس زهورات، فطلب الزبون قهوة فقال له:

- المشروب إجباري، ما في قهوة، اشرب، أو انّكل، شوف محل تاني.

جلس الزبون خائفاً من بلدة يسكنها مجانين، حتّى دخلت وعرفت الأمر فطلبت من عائشة فنجاناً خاصّاً للزبون، ورحنا نضحك وهو يقول لي:

ـ والله لم أجرؤ على مغادرة المقهى خوفاً من أن يضربني أو يشتمني.

وأخبرته أنّ مرسال لا يقدّم سوى ثلاثة فناجين من القهوة المرّة في اليوم، واحد لي وواحد للأستاذ هاشم وللأستاذ مصطفى. وعلى ذكر الاثنين دخل هاشم وهو يلوّح بخرطوم النارجيلة قائلاً:

- أضحكونا معكم.

سمع سليم الضحك من داره القريبة الّتي يفصلها عن المقهى أشجار الوشنه، فجاء مُرحّباً، وتبدلت ملامحه عندما رأى الغريب يجلس معنا فصاح به:

- ليش غيّرت محلك؟

فقال له هاشم:

- أي أخي، المشروب إجباري، الكرسي إجباري؟ هذا استبداد!

ضحك سليم فبانت أسنانه البيضاء مضيئة وجهه، وهمس لي:

- قطعت قلبه من الخوف.

وعلى سيرة الاستبداد وطبائعه الّتي بدأ هاشم بالحديث عنها دخل مصطفى، والدكتور رياض، وتبعهما محمد ديب، واشتدّ الحوار حتّى كاد يتحوّل إلى ملاسنة. كنّا دائماً نجترّ الأحاديث ذاتها، ونمرُ على الأطلال نفسها، ونقف في صحراء قاحلة لا تسعفنا فكرة تنير عقولنا وتجمعنا على رأي واحد. لكنّها أحاديث يكنسها النسيان لنعود ثانية إلى ابتكار شكل جديد لها!

كان هاشم يرى أنّ الرئاسة تليق بخالد العظم أكثر من القوتلي، فهو يرى أنّ علية القوم هم أنسب للسياسة بحكم منبتهم وانتمائهم، كانت آراؤه تثيرني أحياناً، فقد كان العظم معروفاً من أيام عمالته لفرنسا، ولا يشفع له في نظري موالاته للحزب الشيوعي، بل أجد موقفه ذاك وصمة عار جديدة في تاريخه. مع هذا كنت أحترم صراحة هاشم وصداقتنا، رغم خلافنا الفكري، فهناك ما يجذبني إليه، شيء يشبه استقطاب الربيع للنحل، لا أنكر أنّني كثيراً ما اغتظت وغضبت، لكنّي أعود إليه متسامحاً وكأنّ شيئاً لم يكن. يبدأ النقاش دائماً بالسخرية

من الأحزاب المتسلقة ـ كما يسميها ـ متجاهلاً وجودي متعمداً إهانتي أحياناً من جانب خفي، فيتكلم وكأنّي مثله، أو على الأقل وكأنّني أوافقه الرأي فيما يقول، لكنّ مصطفى كان يتصدى له معوّلاً على النّاس في تغيير جذري يطال المجتمع بأكمله. حماس مصطفى كان يصيبني بالإحباط ـ غالباً ـ فقد كنت أرى النّاس تمشي بسياسة القطيع. عندما كنت في الجانودية تحلّق النّاس حول المذياع عند فرز الأصوات، صفق بعضهم لخالد العظم وصفق البعض للقوتلي، أخذهم الحماس لدرجة خشيتُ أن تتحول القرية إلى قتال ينتهي بمجزرة، لكن ما حدث أنّ الجميع صفقوا لنجاح شكري في الانتخابات، وشربوا الشاي، وتبادلوا التهنئة ومضوا إلى بيوتهم!

مصطفى لا يتخلى عن حماسه بسهولة، فهو يرى أنّ الشعب قادر بفئاته المختلفة على تحريك دفة التاريخ كما يريد هو:

ـ يصعقني هذا الشعب الذي يملك قدرة تغيير وزارة بمجرد خروج مجموعة من الطلاب في مظاهرة.

قلت بيأس:

ـ أحياناً أعتقد أنّها أضغاث أحلام لا أكثر! أكاد أشك أنّ مقتلنا في تلك التغييرات، وأنّ المصالح وحدها هي وراء كلّ ما يحدث.

ـ ليست المصالح وحدها تحرّك قاطرة التاريخ، بل هناك قوى خفية تكمن في الصدف، وسلوك الأفراد، وردات أفعال الجماعات، وفي تصادم الإرادات.

قاطع هاشم مصطفى قائلاً:

ـ والقرود... القرود أيضاً تصنع التاريخ، فلولا عضّة قرد قضت على ملك اليونان الشاب الكسندر سنة ١٩٢٠ ربّما كان وجه الشرق الأوسط كلّه مختلفاً الآن؛ لقد قرر الحلفاء القضاء على مصطفى كمال وطموحاته القومية لولا أنّ موت الكسندر جعل تركيا تدخل حرباً مع اليونان أودت بحياة الألوف.

غـرق محمـد ديـب في ضـحك لم يـستطع أن ينقـذه منـه الـسعال المفاجئ الذي تشبث بحنجرته، حتّى دفعتُ الماء إلى حلقه، فهدأ قليلاً، وقال بجدية:

- أستاذ، قصدك أنَّ مصير هؤلاء تحكّم فيه قـرد؟ أي علـيّ الطـلاق كلامك لا يدخل العقل.

ابتسم هاشم:

- ليس مبالغة- أبو أكرم - إذا قلنا إنّ ربـع مليـون إنـسان لاقـوا حـتفهم بسبب عضّة ذاك القرد، واليوم كنتَ ستضيف إلى ربع المليون واحد!

انقبض صدري فجأة لسيرة الموت، صـحيح أبو أكـرم أخـذ الموضـوع بروح مرحة، إلاّ أنّ طيفاً أسود احتلّ مساحة الرؤية أمام عينيّ قبل أن تلفت انتباهـي ضـجة وصـراخ خـارج المقهـى، دفعت بالزبـائن للخـروج لاستطلاع الأمر. قبل أن أتجاوز العتبة كان جودت يخبرني ببرود:

- الأحمق خلدون، انتحر.

خلدون! يا إلهي كيف حدث ذلك؟ لكن لماذا أستغرب؟

(أذكر حين كنّا ندرس في أوضة قدري بيك التابعة للأوقاف، خلدون، ومحمود ومصطفى ورياض.

كان يقرأ قليلاً، ويحلم طويلاً، ويثرثر باقي الوقت، ترك الصمت الـذي لازمـه في حلـب، وانقلبـت حالـه، لم نكـن نعـرف مـا يجـري بالضبط معه، فحديثه لا ترابط فيه ولا انسجام، لم يحـاول أحـدنا أن يـستقرئ مـا بداخلـه، فلكـلّ منّـا هـمٌ دُفـن تحتـه، وحلـم يحـاول الوصول إليه بالدراسة الجادّة.

فجأة أبدى خلدون إعجابه بالمعتزلة، ثم انقلب فأصبح أشعرياً، ثمّ رفض فكرة البعث بعد الموت، فصار يـردد: (بطـون تـدفع، وأرض تبلـع). يترك كتابه ويلتفت إليّ ساخراً:(روح بلا بعث، بلا بطيخ).

في أحـد الأيـام فاجـأني قـائلاً: (أتعـرف؟ لا يوجـد مثـل البعـث.) انفرجت أساريري، وقلـت في نفـسي ربّمـا اهتـدى خلـدون أخـيراً إلى

فكر يناسبه، وسيثبت عليه ويريحنا من تقلباته، عند الفجر استيقظنا على صراخه:

- انهضوا إلى الصلاة يا كفرة!

عندما بزغت الشمس، فتح الشبّاك المطلّ على الزقاق، تنفس بعمق قائلاً:

- وربّ قبر قد صار قبراً مراراً... متضاحك من تزاحم الأضداد. يا حيف على الصلاة والوضوء!

توالت الأيام مع محاولاتنا الفاشلة لجعله يركّز في دراسته، لكنّه يحتضن كتبه ويجلس قريباً من النافذة الشمالية حيث تنفتح له الرؤية إلى جامع قره محمد، فجأة يصرخ ضارياً كفاً بكف:

- بارتيكولار.

أوقفته محتجاً:

- هل مسّك شيطانٌ من الجن؟

قال بانبهار:

- تعال وانظر، اللعنة على من نادى بحريّة المرأة، انظر، كنّا لا نرى شيئاً خلف الملحفة السوداء، الآن بالطو ومنديل رقيق.. الله..!

والتفت إلينا:

- ما رأيكم أن نقتسم الفتيات اللواتي يعبرن الزقاق في الليل، لنفترض أنّهن سبايا حرب، ونحن في دار الكفر.

نظر إليه رياض متخلياً عن هدوئه ونعومته، وقال بلهجة ساخرة سريعة:

- وإن مرّت أختك وأختي كيف نقتسم؟ ألا تستحي؟

ضحك خلدون ولأوّل مرّة أسمع صوت ضحكته العالية، وأجاب ببرود:

- بسيطة نتقايض، تأخذ أختي وآخذ أختك.

رياض ابن عائلة، مفرطٌ في تهذيبه ورما نسيته، كثيراً ما يسحبه الخجل من وسطنا حين ينحرف النقاش إلى مزاح تستخدم فيه ألفاظ نابية أو عبارات تحيل إلى معانٍ يعتبرها خادشة للحياء،وهو قصير القامة، أبيض الوجه، عيناه ضيّقتان وحاجباه كثيفان، نحيل، ورقيق، تنطق أصابعه بالرفاهية والعز، يتحاشى النقاش حين يجد أنّه يسير في طريق مسدود، ويكتفي بابتسامة لا تفصح عن رأيه لكنّ استفزاز خلدون له بهذه الصورة جعله يرمي كتبه وينهال عليه بالشتائم ببذاءة غير معهودة، وغادر الغرفة غاضباً. فجأة انفعل خلدون، أشعل سيجارة وراح يمتصها بشغف حتّى احترقت أصابعه وتصاعد الدخان من مسامات جلده، وصاح بهستيريا: (دعوني سأنتحر، سأقذف بنفسي من الشبّاك.)

ضحكت في سرّي، كيف سيقذف بنفسه والشبّاك محاط بشبكة من الحديد؟ ارتحت لظني أنّ خلدون يريد أن يصرفنا عن الدراسة لا أكثر.

عند الفجر أيقظنا وهو يرتجف:

ـ رافقوني إلى العين الكبيرة، سأغرق نفسي، أنا لا أعرف السباحة، لا تنقذوني، فقط صلوا على جثماني.

غيّرنا الحديث، وحاولنا تهدئته بسؤاله عن بخل أبيه، بدمعة علقت في أهدابه أجاب:

ـ ليحرمني الله أبي.

لم يكن لدى أحدنا الوقت الكافي ليتوقف عند كلمات خلدون، أو يبحث عمّا وراء ذلك الألم الذي يتبدى على شكل تناقضات في أقواله وأفعاله، وإن كنت أظن أنّه سيجن يوماً وينسحب لينضمّ إلى قائمة المجاذيب والأولياء في البلدة. لكن الانتحار!

هاهي حبّة أخرى تسقط من السبحة!

كان يعتقد أنّ الحبّ سيسد تلك الشروخ العميقة لروحه، لكنّه فوجئ بوهم اعتقاده، فأغرقه موجٌ دفعته ريحٌ عاصفة إلى شاطئ القلب. . للحظات كان ينظر إلى توهج دماغه ويشعر بنمو أجنحة في جنبه، هاهو يطير في أفق صافي الزرقة، تسحبه عيناها إلى يم الرغبة، وتتركه على شاطئ الوحدة، يتصور . وليس حلما . أنّها هي، الثوب القرنفلي، والشعر المجعد القصير، وتلك الابتسامة الغامضة، حدّق جيداً، كان وهج الغروب الدامي ينعكس بلونه الأرجواني على محياها، فتبدو له كحورية خرجت من لجة المتوسط لتتربع على عرش القلب إلى الأبد. لا بدّ أنّه وصل إلى بغيته، فهل تكون أمينة آخر محطة في طريق تشرده الطويل؟

شاطئ الوهم

وحدك ـ في مواجهة القادم المجهول...

لا يداً تلوّح لك، ولا عيناً تدمع لفراقك، ولا صديقاً يشدّ على يديك بود متمنياً أن يلقاك قريباً!

استلمتَ بطاقة السَوق، وانصرفت. تشعر بالوحدة الخانقة رغم مرافقة رياض ومحمود وجودت لك. كنتَ دائماً تؤجل مواجهتك لها، وبعد؟ إلى متى؟

ها أنت أخيراً تساق إلى حتفك، بطاقةٌ تلسع الجلد ـ في الجيب العميق لسترتك، تستكين هناك سارقةً دفء الجسد، واخزةً جنبك بحدّة. لم تكن ذكرى تلك الّتي عبرت القلب كومض بَرَق ـ في سماء صافية فسعيد لم يفارق الذاكرة، مازال هناك قابعاً ينبش الماضي ليجري ـ في الشوارع أمام عينيك. هل هي رغبة ـ في تعذيب نفسك تلك الّتي دفعت بقدميك إلى سوق الصغير؟ تستبيح عيناك الأزقة والنوافذ والزوايا بحثاً عن أمس ماثل ـ في أشنة خضراء تتسلق الجدران مفصحة عن ربيع قادم!

ركضتَ هارباً، فالأماكن بدت خاوية رغم ضجيج المارّة، وصوت بائع الكروش والغمم يثقب رأسك بحضوره القوي (يا كريم..). ركضتَ إلى مواجهة أخرى مع أمسك القريب، يدُ الحاضر القاسية نبهتك للخروج من الحلم. تبتسم بحرقة: مَنْ قال إنّ للأيام ماضياً وحاضراً ومستقبلاً؟ ليذهب المؤرخون إلى الجحيم فالزمن لا يعترف بتقسيم كهذا، هاهي أمامك تغتسل بماء العين، تمرُ حارقة المسافات كبرق يصعد إلى الدماغ ويومض بألق أمام عينك. فتحتشد الصور والروائح لتلعب خمرةُ الحب بدماغك!

توضأتَ لفجر اقتحم جامع الملاخانة، صليّت علّ الغُمة تنزاح عن صدر يقلّصه البرد والخواء، تمددتَ في الردهة الخارجية بانتظار أن تأمرك الشمس بالاتجاه إلى الكراج.

أصواتٌ تتداخل في صراخ يدفع للتوتر. لطالما تساءلت عن الفرج الذي سيمنحه لك هذا الباب! والسيّارة تلك الّتي تمدّ رأسها من الكراج المقابل لساحة باب الفرج، إلى أين ستحمل كلّ هذا القلق والضياع؟ (باسم الله مسراكِ ومرعاك.) توكلتَ على الله مع تلك العبارة المنقوشة على الحديد البارد، وخطفك النعاس، يطوّح رأسك ليرتطم بالحديد كلّما توقفت السيّارة لتحمل راكباً من الطريق.

خمس ساعات، بل خمسة دهور مرّت قبل دخول السيّارة كراج حمص. السيّارة تئن موقعة نغمها على دقات القلب وتساؤلاته، مخترقة الطريق الجبلي المحفور جانب الصخور، عابرةً أرضاً قاحلة، تنعطف إلى سهل شبه صحراوي، تطلّ منه "القطيفة "، قريةٌ صغيرة تنام على طرف السهل جهة الشرق، بيوتها من حجر الدبش والطين، تبعد عن الطريق العام حوالي مئتي متر. لا تعرف كم من الخطوات القلقة عَبَرتْ إلى مصيرها المشؤوم من هنا!

لاحت الثكنة، خانٌ قديم ببابه عسكري ضخم الجثة، يرتدي بنطالاً قصيراً وسترة من الخاكي، يرفع في وجوهكم بندقية إنكليزية تعتمر حربة طالباً كلمة السر. تتدلى أكتافكم تعباً، تنظر بسخرية:

ـ مخلوطة.

يلكزك رياض:

ـ استرنا.

العسكري ينظر إليك غاضباً مكرراً طلبه. يُخرج رياض الأوراق ويخبره أنّكم جدد. مشيتم خلفه رتلاً أحادياً، دخلتم باباً كبيراً كأبواب الخانات القديمة، وتقدّمتم إلى ساحة كبيرة تتجاوز المئتي متر، وسطها

بركة حجرية مربعة الشكل تشكو الجفاف، أوّل ما خطر لك تشابهٌ ملحوظ بينكما!

واجهكم الرقيب بوجهه العابس ونظراته التائهة، شادّا قامته القصيرة وهو يتساءل عمّا تريدون، رامقاً ما ترتدون من الملابس الأنيقة بسخرية. إلى المستودع البشري الغاص بالأسرّة الحديدية أُرسلتم. رطوبة وعتمة، وسقف يستند إلى أربعة مصلّبات فوقها أقواس مقببة، حددوا لكم مكان النوم. وضعتم الأمتعة في صندوق الحديد الرقيق، أحكمتم القفل على رائحة الحواري والدفء. وكان عليك أن تعيش - كما يقال - على مبدأ (عسكرية دبّر رأسك) فهل تستطيع ذلك؟. أُخرجتم إلى البناء الحديث حيث القيادة والفحص الطبي في ساحة فسيحة تزهو فيها الحدائق بصبا غض يسخر من شعرات بيضاء غزت الرأس؛ ولوّنت الروح برمادها. بباب العقيد قائد المعسكر وقف عريف يرتدي عكس الجنود بنطالاً طويلاً، بدا نحوله ملفتاً للنظر مع وجه أسمر طويل وخدين غائرين، وعينين صغيرتين تغوصان عميقاً في وجهه حتّى يحار المرء في لونهما، طرّز كم سترته شريطتان عريضتان، يمسحهما بأصابع دقيقة تنتهي بأظافر قذرة، نظر إليكم بقرف، ومسح ثانية على الشريطتين، وهزّ رأسه بترفع وهو يقول:

- ما شاء الله، أفندية والله، أصحاب شهادات! أشو ها الملابس الأنيقة؟ أنتم عسكر أنتم.. خرا على شهاديكم، أنا لا أعرف القراءة والكتابة وأخذت شريطتين في حرب فلسطين، ولك أنتم بدكم تحرروا فلسطين، أي روحوا كلوا...

فلسطين! ثانية وأبداً، يمدّ سعيد رأسه الحليق، يودعك بعين دامعة، وابتسامة تحمل مرارتها شوكة في القلب. سعيد ... تنظر حولك، سعيد و خلدون، العقد المنفرط تتطاير حباته، لا تصل يدك إلا لفراغ تحضنه، وتكتشف كم من المرارة تنتظرك.

خرج من غرفة العقيد رقيب كالبغل، قصير، عريض، منتفخ الكرش، كبير الرأس، صاح بصوت خشن:

ـ انتبه، استاااااا عد.

توقفت عقارب التفكير في دماغك على صورة وجهه القبيح فخيّل إليك أنّها تملأ الساحة، ترشقك بماء بارد فيرتجف جسدك، صوته الآمر بخلع الملابس، يده وهو يشد "الكرافيت" من رقبة رياض حتّى كاد يخنقه، ألفاظه القذرة، جعلتك تعتقد للحظات أنّ هذا الرقيب هو القدر الغامض الذي تقلّص صدرك خوفاً من مواجهته.

عراة ركضتم حول الساحة حتّى تدلّت ألسنتكم وتعالى لهاثكم..هل كان المنظر مألوفاً لديك؟ مشاهد لن تنساها، كلاب مكشوفة العورة تركض في الساحة، ويد غليظة تشدّ رسن الحمار حتّى الاختناق! والرقيب يبتسم راضياً والطبيب يجس الجسد بفظاظة، وآثار أقدام مبلولة بالماء على بلاط مصقول تفصح عن شخصية حاملها!

بعد ساعات خمس من الذل، ارتديتم ملابسكم وعدتم إلى الخان. منظر آخر ثبت في ذاكرتك، الرقيب يرشقكم بمرق الفاصولياء لتبتعدوا ريثما ينتقي عساكره اللحم من الطعام! ارتفع صوتك مهدداً بالشكوى إلى العقيد، فجاءك مجند بصحن خاص متودداً إليك:

ـ الظاهر أنّك ابن عالم وناس.

نعم، أولاد النّاس من ترتفع أصواتهم للمطالبة بحقوقهم، أمّا باقي البشر فاللعنة تلاحقهم أينما رمَتْ بهم أقدارهم. شاركت رفاقك الطعام، وللمرّة الأولى تشعر أنّ مشاكستك لم تنقلب ضدك، فقررت عدم الانصياع لآلة النتف بيد الحلاق تجز رؤوس الأغنام فتسيل الدماء لصدئها، لكن هذه المرّة بالرشوة لا الاعتراض، ووجدت نفسك فعلاً تسير على مبدأ عسكرية دبّر رأسك دون أن تدري. وحتّى في هذا المكان ووسط هذه السياسة الغريبة، استطعت أن تكوّن صداقات

جديدة، فأكملت حلقة العقد بصدقي ووليد. صدقي رقيب متطوع في الجيش، تعرّفت إليه أيام الدراسة في حلب، شاب مهذب متوسط القامة، مستدير الوجه، دائم الابتسام، أنفه عادي، أجمل ما فيه شعره الكستنائي الكثيف، احمرّ خجلاً حين رأى ما تعانيه، وعاتبك لأنّك لم ترسل في طلبه لمساعدتك. أمّا وليد فقد شدّك تأدبه في معاملة الآخرين، لم يكن الأمر غريباً بعد أن رأيت أبويه يودّعانه داخل المعسكر، ويوصيانك به خيراً. فقد كان واضحاً أنّه تربّى بطريقة مختلفة بعيداً عن الأزقة واللعب بالمياه القذرة والكفاح من أجل التعليم، أمه من عائلة معروفة في دمشق، وهي مدرِّسة في ثانوية للبنات، أبوه موظف كبير في الدولة. يعني ابن ناس! قتلك شعور مفاجئ بأنّك يتيم، كنت ترى حافلة " أبو النوري"، والأيدي الّتي تلوّح بالوداع، ولا ترى أباك، ولا أمك. هل أنت حقّاً بدون أهل؟ لماذا يطاردك هذا الشعور منذ غادرت أريحا، رغم أنّ حضور والدك الطاغي لا زال قائماً في نفسك بوجوده وغيابه؟ الأسئلة المحيرة لا جواب لها، ترافقك دائماً، حتّى أنّ جميع محاولاتك للتخلص منها باءت بالفشل. من أنت؟ ماذا تريد؟ إلى أين؟ أسئلة بسيطة بدأت بها حواراً دفعك إليه(جان) الشاب اللطيف الذي اقتحم خلوتك سائلاً هو الآخر:

- سمعت أنّك تكتب، هل هذا حقيقي؟

تفرّست جيداً في ملامحه المهذبة وقامته المتوسطة، وجسده الممتلئ، وبقيتَ صامتاً، لم تكن لديك أدنى رغبة في الحوار فقد طغت آلام معدتك على أيّ إحساس آخر، فتلوّن وجهك باصفرار أعقبته حمرة قانية، اقترب صدقي ليسألك عمّا بك، اعتذرت لجان ومضيت مع صدقي إلى الطبيب. لم تفلح الأعشاب في تهدئة الألم، ولا الحبوب الّتي نصحك بها الطبيب. في المساء اقترب منك جان ثانية، أخبرك أنّه يكتب ويحلم أن يصبح أديباً مشهوراً في المستقبل، حينها استيقظت

تلك الأحلام النائمة في القلب، وألحّت عليك أصابعك، هل تكمل تلك الرواية التعسة؟ قلتَ لجان إنّك بدأت رواية لم تكملها، وإنّك تحب محمد عبد الحليم عبد الله وتفضّل كتابته على كتابة المنفلوطي وجبران، وقد تأثرت بروايته (لقيطة) وتفكر بكتابة رواية على منوالها، تحكي قصّة فاطمة، الفتاة البسيطة الّتي تعرّفت إليها في بلدك. لم تكن هناك فتاة تعرفها باسم فاطمة، ولا تعرف كيف قلت ذلك لجان الذي أبدى إعجابه بالفكرة، وأراد أن يقرأ روايتك، حوار دافئ بينكما قطعه ذلك الوغد قره محمد، فقد وقف بباب المهجع وهو يتراقص بقامته الطويلة، وينضح وجهه الطويل وبشرته الصفراء باللؤم والخسة، وراح يتشدق بأسمائكم وهو يسخر منكم، وتتدفق عباراته من فم عريض، يرتجف فوقه أنف معقوف بحدة. اغتسل جان بعرقه صامتاً وقره محمد ينطق اسمه بطريقة قذرة. حافظ جان على تهذيبه، وتشاغل عن قره محمد، فاقترب منه ولكزه بكتفه وعاد إلى نطق اسمه بتلك الطريقة، والتفت إليك قائلاً:(مرحبا تَرَسْ). رددت بإبدال القاف خاء في اسمه. فضحك جميع من في المهجع، شخر قره محمد وهجم عليك، لكنّك سبقته بضربة ألقته أرضاً، لم تعرف كيف فقدت صوابك ورحت تركله بقدميك و العساكر يبصقون عليه، دخل الرقيب مع جنده وساقوكما إلى الحبس حفاة. غرفة نتنة نقلت رطوبتها مباشرة إلى عظامك، فتعالى صراخك: (... محمد ... اليوم آخر أيامك، سأقتلك، وأنتحر بعد تأكدي أنّ روحك النتنة غادرت هذه الدنيا. انتظر حتّى ينام الجميع). رفضت الخروج من السجن حين جاءك أمرٌ من الرقيب للذهاب إليه، فجاء بنفسه وسحبك من يدك إلى غرفته، وبدا هادئاً على غير عادته أو أنّه كظم غيظه تبعاً للموقف الحساس، وطلب منكما أن تتصالحا، فلم تتركا - على حد تعبيره - شيئاً للجهلة وأنتم متعلّمون،

لكنّك رفضت الاعتذار لقره رغم أنّه اقترب وسلّم عليك وقبّل شواريك، ابتسمت وقلت له:

ـ سامحتك لأجل خاطر الرقيب فقط.

لم يفارقك الشعور الحاد بهامشيتك، فأنت مجرد رقم يُنادى عليه في طابور الصباح، ويجلس حول البركة لتناول الطعام مع أرقام تشبهه، وينفذ العقوبات وهو منحن بخضوع. وصرت تتساءل عن جدوى كونك بعثياً ما دمت صفراً على الشمال لا يقدّم ولا يؤخر؟ وهذا الصفر لم يأت الأمر بسوقه إلى مكان آخر، بل بقي في الثكنة بلباسه المدني، يقوم بأعمال السخرة، يقوده كلّ صباح عريف أخذ شريطتين في حرب فلسطين، يعطي لنفسه الحق في السخرية منه ومن شهادته الّتي يمسح بها مؤخرته وهو يدخن سيجارته اللف ويطوي ساقيه النحيلتين تحت جذعه المحني، ويأمر ه بالعمل بجد في شق الطريق الواصل بين الثكنة والطريق العام، فهو مهندس الطريق!

ثمانية وعشرون يوماً مرّت على هذه الحال، تستيقظ صباحاً على صوت بوق نحاسي متهرئ من مخلّفات الجيش الفرنسي، ينفخ فيه جندي طويل فقد أسنانه الأمامية، يتبعه صفير في المهجع الذي يهاجمه الرقيب مع جنده فتنتشرون أفواجاً تتزاحمون على أبواب المراحيض، وعلى صنابير المياه الشحيحة، ثمّ تصطفون ليملأ لكم الرقيب كيل الشاي الزنخ من أثر مرق الفاصولياء الّتي تطبخ في القدْر نفسه، تشربونه مع رغيف من الخبز يزن أكثر من نصف كيلو! ويدعوكم البوق لتصطفوا أمام غرفة في الجهة الغربية لها ثلاث درجات وبابان، أحدهما إلى الخان والثاني إلى المبنى الجديد، يدخل منه العقيد. وبعد أن تنتهي الأرقام من تقديم نفسها تتوجهون للعمل في الطريق! دوامة تأخذك بجنون، تسحبك إلى عمق مظلم، فتتوالى الأوجاع حتّى لا تكاد تستطيع تحديدها. وزنك نزل إلى الأربعين كيلو، لم يعد باستطاعتك

الحركة حتّى انكفأت على طرف الطريق مغمى عليك. نقلك صدقي إلى مستشفى المزة بدمشق بعد أن يئس الجوخدار طبيب مستوصف المعسكر من شفائك. لم يكن الحال هناك أفضل فقد كانوا ينظرون إليك نظرتهم لسلّة المهملات. الألم يعتصرك والحبوب البيضاء تزيد منه فيتعالى صراخك ولا صدى!

طردوك إلى شاحنة بائسة عادت بك إلى القطيفة، فأصرّ الجوخدار على تسريحك صحيّاً، فقد اعتقد بوجود التهاب حاد في الكبد.

امتلأت جيوب السترة بالرسائل، والقلب بآمال جديدة!

❖❖❖

إلى مديرية المعارف قرب سوق السمك، توجهتُ لآخذ أمر المباشرة، ووجدت أنّي نفيت إلى أسوأ مدرسة تتربع فوق أعلى قمة في جبال الباير. رحت أبحث في كراجات اللاذقية، حتّى اهتديت إلى كراج تنطلق منه (الطنكات) القذرة، استقبلني أحد سائقيها باستغراب:

- قرد، لشو بدّك تروح لها؟ أي بذمتي وديانتي القرود ما بتوصل لهنيك، روح على خان الجوز، ومن هنيك بتطلع لها، هي ما لها سيّارة.

شكرته ومضيت، احتضنتْ الشوارع حيرتي حتّى ملّت الأرصفة خطواتي، ورمتني إلى الشاطئ. جلستُ على الكورنيش أتأمل البحر، غابت الشمس وأنا على حالة الجمود تلك، ترددتُ مراراً في الذهاب إلى أقاربي للمبيت، لكنّي انصعت أخيراً لعواطفي.

انحرفتُ في الطريق الصاعد إلى الشيخ ضاهر شمالاً، مددت يداً مترددة لتطرق الخشب العتيق فالتصق دهانه المتآكل بأصابعي. انتظرت قليلاً، لم أسمع جواباً، أعدت الطرق، مدت أمينة رأسها من

الباب وشهقت، تراجعتْ خطوتين إلى الوراء ونظراتها تتعلق بعريشة الياسمين متشاغلة عن النظر في وجهي خجلاً، همست قلقاً:

- وحدك؟

هزت رأسها بالإيجاب. همست:

- سأنتظرك عند الشاطئ، لا تتأخري.

لم يطل انتظاري، كانت قادمة في ثوب قرنفلي ضيق ووشاح أخضر يلفّ عنقها، تتعثر خطواتها بالحصى، وتميل مع الحذاء العالي الكعب، شعرها الأجعد القصير ملموم إلى الخلف بشبكة قطنية سوداء تزيدها أناقة. كنت أراقب خطواتها وأنا أتساءل: (هل رغبتي بالزواج منها حقيقية أم مجرد عناد أرد به على أمي؟ ما أعرفه أنّي أحببتها، منذ رأيتها أوّل مرّة، حين علمتْ أمي بالأمر وبّختني وحذرتني بلهجة قاسية: إياك أن تفكر بهذا الأمر، و إلا لن أكون أمك ولن أعرفك! أمي وضعتني أمام خيار صعب من وجهة نظرها إمّا هي وإمّا أمينة، لكنّها نسيت أنّها لم تكن أماً حقيقية يوماً، لم أشعر بتلك العاطفة السامية نحوها، ولم تشعرني يوماً بحنانها وارتباطها بي، لم أنسَ أبداً أنّ خالتي فاطمة (ضرتها) وقفت بوجه أبي من أجل تعليمي وتلقت الضربات عني، وهي لم تحرك ساكناً، بقيت بعيدة وكأنّ الأمر لا يعنيها!

وهي الآن تضعني في هذا الاختيار، تريدني أن أكره أمينة لأنّها تكره أمها! لعنتني، وعنفتني، وقالت أشياء لم تكن لتفصح عنها لولا الغضب، إذاً هي التي أخذت الصورة من جيبي، هي التي حاربتني بصمت حين منعتني من رؤيتها باختلاق الأسباب التي تجعلني خارج البيت أوقات زيارتها لنا! ماذا تريد مني؟ عليّ أن اتخذ قراري الآن، نعم الآن لن أتأخر أكثر، ولن أترك أمينة ولتنطح أمي الصخر..(تراه العناد أم الحلم؟ أم هو شيء آخر لا تسمية له، شيء يتعلق بثأر لجلابيتك الملطخة بالشحار، وقدميك الحافيتين، شيء له علاقة بذاك الاغتيال

المريب لأعصابك كلما تمكنت منك الجدران الضيقة بشراستها وقدرتها على حجب الضوء؟ أحياناً تعي أنّ ما تحمله لأمينة ليس حبّاً كذاك الذي جذبك إلى عزيزة واعتدال وناريمان، وليس عاطفة بكراً كالتي حملتها لخرما! هناك شيء لم تستطع بعد تحديد تفاصيله وشرحه، وأحياناً تُسر لأنك لا تستطيع له تحديداً). وقفتُ قبالتي مترددة في الجلوس، كانت ماسة سوداء لامعة ترسل نوراً باهتاً من عينيها، أجفلني في البداية وتحسستُ عنقي بحركة تلقائية، وارت شفتاها الرقيقتان ابتسامةً عبرت بسرعة محياها وانطفأت وهي تمدُ يداً باردة لمصافحتي. سَحَبْتُها بسرعة وجلستُ على استحياء.توهجت بشرتها الحنطية بلون العقيق الصافي، وتركت بسمتها نبضات القلب تتسارع والدم يتدفق إلى رأسي والخدر إلى أصابعي. في دقائق كانت ملامح الكرة الأرضية تتغيّر، في ساعات كنت قد نسفت ماضيّ، وأقدمت على فتح صفحة جديدة مع القدر.

على منحدر من طريق حلب اللاذقية العام، فوق رابية صغيرة، في منعطف شديد الانحدار يقع الخان، وهو عبارة عن قبو مستطيل من الحجارة والطين، مسقوف بأغصان الشجر والطين. تحت الخان إلى الأسفل "كسلا جوك"، مزرعة صغيرة جميلة بيوتها من الطين، تحف بالنّهر الكبير الذي تشح مياهه صيفاً فلا تتجاوز خمسة سنتم. في (خان الجوز) عدّة كراسي من القش، يجلس عليها رجالٌ شاحبو الوجوه، قصار القامة، مع انحناءة في الظهر، في يد كلّ منهم سبحة، وفي جيبه كيس من الدخان البلدي، لا يكاد يطفئ السيجارة، حتّى يشعل غيرها، ويطرق بحبات السبحة بقوة وكأنّه يخرج من صدره غيظاً مدفوناً مع الدخان، ويعبّر بأصابعه عن رتابة الحياة الّتي يعيشها. حاولت سؤال أحدهم عن المنطقة، تطلّع إليّ ببرود ولا مبالاة وظلّ صامتاً، سألت الثاني: أيوجد قهوة في الخان؟ رفع رأسه إلى أعلى

نافياً وجودها وانصرف! كدت أتفجّر غيظاً من هؤلاء القوم حين أنقذني شابٌ في العشرين، سألني عن هويتي وإلى أين أذهب، انبسطت أساريري فقد جاء الفرج أخيراً. ساومني الشاب على أجرته ليكون دليلي، طلب خمس ليرات وعرضت ليرتين وتوصلنا إلى اتفاق على ثلاث! عبرنا فوق حجارة النّهر، ويممنا شطر الغرب، صعدنا الجبل المنتصب كالسيف أمامنا في طريق لا تتسع لأقدامنا وأغصان الغابة تسدّ علينا الدروب المتعرجة، وتضرب أيدينا ووجوهنا وأرجلنا ونحن نلهث، نتابع الصعود، ونلهث. طال بنا المسير نحو ساعة أو أكثر، حتّى رأى الدليل دخاناً يتصاعد من قمة الجبل المقابل لنا فأشار إلى الغرب: (لقداقترينا من القبقلية). طالعتنا أشجارٌ باسقة تحيط ببيوت هزيلة وشجيرات زيتون وبرتقال في حقول صغيرة بين الغابات. بيوت متداعية متناثرة على كتف الوادي السحيق، أبوابها مصنوعة من خشب الصنوبر، صناعة محلية. وقفنا بباب أحد البيوت ملتقطين ما بقي من أنفاس في صدرنا. مرّ بنا رجل قصير القامة مفلطح الرأس واسع العينين، حيّاه الدليل بوصفه آغا، التَفَت إليه راداً التحية، ومدّ يده مصافحاً يدي: (أهلا أستاذ، الأولاد ينتظرونك). وسار أمامي. لم أكن قد التقطت أنفاسي بعد، مع هذا تابعت سيري وراءه، لنصل غرفةً من الطين، أرضها ترابية، وسقفها من أغصان الأشجار، فيها عشرة مقاعد من الدف رتبت على صفين، وخابية ماء تحتل الزاوية، ولوحٌ أسود وكرسي من القش، رميت جسدي عليه وساقاي ترتجفان من التعب، أسندت ذراعي إلى الطاولة المحنية الظهر، المكسّرة الأرجل، فكادت تقع.

بقي الدليل واقفاً، وهمس للآغا الذي هز رأسه بالنفي. ظننت الأمر يتعلق بأجرته، لكنّي عرفت أنّه ينتظر رغيف خبز لم يَجُد به

الآغا، فانصرف وهو يصف أهل القرية بالبخل. الآغا ابتسم بلطف، وقال بلهجة الواثق:

ـ سأراك حتماً، لا غنى لك عني.

صاح المنادي في القرية:(خوجا كالدي) فتراكض الأولاد إلى المدرسة. لم يتجاوز عددهم خمسة عشر طالباً، تتراوح أعمارهم بين الثامنة والخامسة عشرة. أثناء الدرس حدثت جلبة في السقف فثارت ضجة بين الأولاد، أهي حيّة أم فأر؟ عزيز الناعم الملامح حسم الأمر بهدوء مقرراً أنهن فأرات يتراكضن وراء بعضهن، حين أعلنتُ استغرابي من وجود حيّات في السقف، أكدّ عزيز وجودها مما جعلني أشعر بالإحباط، وأيقنت أنّي كلّما تقدمت في المسير أختار الأسوأ أو يفرض عليّ، فإلى متى؟

توارد عليّ بعض أهالي القرية، كلّهم قصار القامة، يعانون من سوء التغذية، وجوههم مغبرّة، يتكلمون التركية بطلاقة والعربية بلكنة تركية، وكلّهم أغوات! وبالتركية ثار جدل بينهم، هل أنا فلاح أم مسلم؟

تقدّم أبو عزيز وهو ممتلئ قليلاً، يعتمر طربوشاً وسخاً، يضع نظارات مربوطة على أذنيه بخيط قنب، سألني بتهذيب شديد، فأجبته بأنّي فلاح ابن فلاح وكلّنا نعمل في الزراعة. لكنّه أعاد سؤاله بارتباك، ففهمت قصده بعد لأي! لم أكن أعرف من قبل تلك التسميات الّتي يطلقها سكّان المنطقة على بعضهم. وأدركت أنّ لكلّ طائفة هنا تسمية وتقاليد تخصها وقد انكمش الأهالي لاعتقادهم أنّي علوي! مكثت في المدرسة حتّى العصر دون طعام ودون أن يطلب مني أحدٌ الذهاب معه! فأرسلت وراء الآغا حلاق القرية ليشتري لي طعاماً. قلى البيض وأتاني باللبن والخبز وجلسنا نأكل معاً، جاءني أبو عزيز معاتباً:

ـ طبخنا لك دجاجة وأنت قاعد هون عم تأكل بيض؟

أبو عزيز برر عدم الدعوة بأنّي يجب أن أطلب ما أريد من ابنه وهو ينفذ.

ما أثار استغرابي هيئة "أبو عزيز" فهو على قصره وضعف نظره يعمل حداداً! هيئته وديعة مسالمة، وحديثه شديد التهذيب، مرّت في الذاكرة صورة والدي بجسده الضخم وملامحه القاسية، ويده ترتفع بالمطرقة لتنزل على الحديد المحمى، وولدٌ صغير بقدمين مشققتين وعيون تسيل دموعهما من القهر وغاز الفحم، يشدّ دفتي الكير وينفخ بكلّ قواه، وصوت عمي عبد الحميد يتردد في أذني:(من تشبه يا ولد؟). وكأنّي لم أكن ذلك الولد الضئيل الحجم ذا الثياب الرثة والرأس الكبير والجسد الهزيل! وصلنا دكان "أبو عزيز" الصغيرة الواقعة قرب داره المؤلفة من غرفة كبيرة جداً، بجوارها غرفة صغيرة، أرضها من الطين المصقول وسقفها من خشب الصنوبر والزيتون، في كلّ غرفة موقد للتدفئة وطهي الطعام.استقبلتنا زوجته، امرأة عجوز تجاوزت الأربعين، مقوسة الظهر، تغطي رأسها بعدة أغطية، وتحجب وجهها بقماش ملون فلا تبين إلا عيناها الغائرتان فيه. لم أستطع أن أفهم كلمات أم عزيز الّتي ابتلعها غطاء الوجه ودحرها إلى حنجرتها. لكنّي لمحت في العينين ظلّ الابتسامة الّتي ارتسمت على شفتيها!

في المساء وصلتني دعوة المختار للعشاء في داره المختلفة عن دور القرية، فهي مؤلفة من عدة غرف حول باحة غير مسيّجة، وزريبة للدواب، وغرفة يُصعد إليها بثلاث درجات من الحجر، مستطيلة ولها عدّة نوافذ، وقد طليت أرضها وجدرانها بالكلس فبدت نظيفة مبهرة البياض، أرضها مفروشة باللباد والبسط الملوّنة والوسائد أُعدت للضيوف. بدأ المختار استقباله الحار بسرد قصّة حياته، جلس باستقامة وهو يشدّ قامته أثناء الحديث، ويبرز صدره إلى الأمام، وكأنّه مازال شاويشاً في حرس السلطان عبد الحميد. لم ينسَ المختار أن

يتحسر على أيام العز تلك، الأيام الّتي تغصّ بالشهوات والمتع، أيام الشباب الذي لا يعود. المختار غرق في ذكرياته وبطولاته في قصر الملذات، وابنته زمزم ابنة الخامسة والعشرين عاماً تتنهد بحرقة وهي تلسعني بنظرات حادة! زمزم رقيقة الملامح قصيرة كأبيها، تتسع خطواتها حتّى تخالها موشكة على الطيران، قدّمت لي العشاء وهي تتأملني بجرأة جعلتني أخفض عينيّ متشاغلاً عنها بالطعام. مرّت ساعة والمختار لم ينه قصّته وابنته تقاطعه بين الحين والآخر بالتركية وأنا أهز رأسي موافقاً! صوت عزيز في فسحة الدار أنقذني من حصار العينين الصغيرتين في الوجه المدوّر، حاولت زمزم التمسك بي لأنام عندهم، لكنّي آثرت الهرب مع عزيز. في الطريق مرّت خرما أمامي خطفاً واختفت في شجرة صنوبر، متأكدٌ أنّها مرّت! ضغطتُ يد عزيز وسألته همساً:

- هل رأيتها؟

ردّ عزيز بلامبالاة:

- مَنْ؟ نجمة الجدبة؟ شفتها، هي هكذا تظهر وتختفي، لا أحد يجرؤ على السير ليلاً في الغابات سواها! ولا نعرف لمَ؟ حاول أبي تقييدها أكثر من مرّة، لكنّها دائماً تفك القيد وتهرب. أتعرف أستاذ؟ كلّ مرّة تتأخر في العودة نعتقد أنّ الذئاب أكلتها، لكنّها تعود في الصباح وكأنّها استيقظت للتو! جميع السكان يغلقون أبوابهم ليلاً خوفاً من الثعالب والذئاب الّتي تهاجم البيوت أحياناً، ويقولون إنّها تأكل النّاس.

ابتسمتُ ابتسامة تائهة، ما الذي أسمعه؟ الذئاب والثعالب، وخرما... المعتوهة! ما معنى هذا؟ ليست خرما؟ لكنْ، طولها، شعرها، قميصها! عليّ أن أعترف أنّ هناك اختلافاً، ربّما العتمة منعتني من معرفته، ربّما اتساع الخطوة، لكنّها نظرت إليّ بتحدٍ، متأكد من هذا.

لم يكن من اللائق أنْ أسأل "أبو عزيز" عنها، لذا قضيت السهرة ساهماً، يشغلني جمالها اللافت حتّى أطلّت من باب الغرفة ونظرت صوبي باستغراب وفرّت، خفق قلبي بشدّة، هل يعقل هذا؟ دماء، بحيرة من الدماء كلّ ما خلّفته خرما، بحيرة تتسع لتغمر سهل الروج، وأجد نفسي غارقاً في ضباب يستوطن جذوع أشجار الزيتون فلا أعثر على منفذ يخرجني من الاختناق. يدان قويتان تحيطان بعنقي، تضغطان بقوة، أتصبب عرقاً، وأصحو لأجد نفسي في سرير حديدي بائس، في كلّ مكان أخطو إليه أجد قدراً يشبه خرما!

صدى لصوت خافت تردد خجولاً في أعماقي:(وأمينة؟ ألم تؤمن أنّها هي؟ ألم تقدم على نسف ماضيك؟ ألم...؟) أخرستُ التساؤلات الخجلى وانتبهت إلى صوت يقول بمنتهى التهذيب:

- الظاهر أنّك تعبان أستاذ، سيفرش لك عزيز عنا لترتاح.

لم أكن أحبذ فكرة المبيت عند أحد لكنّ "أبو عزيز" أصرّ أن يتنازل لي عن غرفة في داره لأقيم عندهم! حاولت البحث عن باب أهرب منه إلى مكان واضح الملامح، لا تلاحقني فيه صورة خرما، فلم أجد سوى فراش يلمّ الجسد ويترك الروح هائمة في الغابات الغامضة لجبال الباير.

شيء غريب لفت انتباهي، لم تكن نجمة تحمل قسمات "أبو عزيز" ولا ملامح أمها ولا حتّى شقيقها، بل هي طويلة، ربّما تفوقني طولاً، عيناها واسعتان حتّى شككت بأنّي أنظر إلى بحيرتين ينعكس فيهما لون الشجر والزهر. بشرتها بيضاء تشف عن لون الشرايين الدقيقة فتراها تميل إلى الحمرة الداكنة. فيها شيءٌ وحشي، شيءٌ يصفعك قبل أن ترتد نظرتك إلى أيّ جهة، ويتركك ذاهلاً تحدّق بالفراغ! مضت نجمة وتركتني غارقاً في بحيرة لزجة من الأسئلة العقيمة، ولم أعد أراها.

قفز إلى ذهني الآغا حمدي، ارتديت ثيابي وقصدته. استقبلني بابتسامة عريضة:

- أهلا، أهلا أستاذ، زارنا النبي والله، شعر ولا ذقن؟

كان لا بدّ أن أجلس بين يدي الآغا حمدي لهذا الغرض كي أصل إلى غايتي. واجهتْ حمدي مشكلة لم تكن في الحسبان، حين أرحت جسدي على الكرسي المخصص للزبائن، ضيّق بين عينيه فاقترن حاجباه الكثيفان وبدا فمه الرقيق خطاً مستقيماً معدوم الشفتين، مسح شاربه الهتلري بطرف المقص، وراح يضرب به في الهواء وقد خانته الابتسامة حتّى خلته سيصرخ بي لأنهض. لكنّه فاجأني بضحك متواصل واضعاً يده على بطنه ضاغطاً معدته بقوة:

- قم أستاذ، قم.. لا أعرف هل المشكلة فيك، أم في الكرسي؟

قلت وأنا أغالب ضحكتي:

- بل فيك يا آغا.

أتى لي بكرسي من القش منخفض قليلاً عن سابقه، وقال بلهجة المعتذر:

- لا بأس أستاذ، الكرسي ليس من مقامك، لكن العين بصيرة، واليد قصيرة.

وضحكنا معاً، حاولت أن أستدرج الآغا للحديث عن نجمة، لكنّه جرّني إلى أحاديث عن الفقر وصعوبة العيش في قرية منعزلة عن العالم:

- تعرف أستاذ، في النّهار لا يتواجد في قريتنا عشرة رجال، وفي المساء يعود من يعمل خارجها لدفن أجسادهم في الفراش انتظاراً لفجر جديد يجرّهم إلى عمل متواصل مرهق، أغلبهم يعمل في اللاذقية، طبعا تعرفها، يقطنون حيّاً خاصّاً بهم يسمّونه (حي التركمان).

كنت أعرف كلّ تلك الأشياء، سألتني إحدى العجائز مرّة، أين تقع اللاذقية تلك؟ أهي بعيدة؟ بعض سكان القرية يموتون دون مغادرتها، لا يعرفون سوى حدود الخضرة الّتي تحف بالوادي والجبال، ما خلف الجبل عالمٍ غامض، ما بعد كثافة الغابة مكان مرعب للبعض. حدّثني الآغا عن رغبته في مغادرة القرية إلى دنيا فيها حياة - على حدّ تعبيره - والحياة بمفهومه حيث يوجد ناس وطرقات وبيوت مختلفة وعلاقات مختلفة ونساء. سألته مستفهماً عن هذه النقطة بالذات، احمرّ الآغا قليلاً وتنحنح قائلاً:

- أنت أدرى أستاذ، العيش هنا يقصّر العمر، بضع فتيات في القرية يردن الزواج، وبضع عجائز، المرأة عندنا تشيخ بسرعة، في المدن النساء غير شكل، يا إلهي! شيء يشيّب الشعر، أريد أن أطير بحريتي خارج هذا القفص.

عرفت أنّ الآغا يكتب شعراً ويخفيه عن النّاس كي لا يتهمونه بالجنون،كلّ شيء خارج عن رتابة هذه القرية يعدونه جنوناً وخبالاً، لذا تعيش القرية عصر السلطان عبد الحميد كأنّه مازال خليفة المسلمين مع أنّ القرية لا مسجد فيها! مرّت زمزم، وتوقفت مقابل باب الدكان وهي ترمقني بعتب:

- ما بدّك تزورنا أستاذ؟

وعدتها خيراً، فنبهني الآغا:

- أتريد خطبتها؟

نفيت الأمر بلطف، فقال الآغا:

- احذر، إن كنت لا تريدها، احلق لها، زمزم هذه مجنونة، بدّها زوج وبس.

- أهي المجنونة؟ غريب، هل قريتكم كلّها مجانين؟

ابتسم الآغا وكأنّه فهم قصدي، وراح يحدّثني عن أشكال الجنون، فعرفت أنّ النساء يصيبهن الجنون إذا مرّ قطار الزواج بهن دون توقف، هذا من وجهة نظر الآغا، لكن ما قصّة البلهاء؟ سألته مباشرة فلم أعد أطيق صبراً، تنحنح الآغا، وقدّم لحديثه:

- أبو عزيز رجل طيب، اعتنى بها مثل أولاده وأكثر، والشهادة لله، أم عزيز أيضاً عاملتها كابنتها،

لكنّ البنت مخها خربان، ماذا يفعلون لها؟

إذاً لم تكن نجمة ابنتهم، ابنة من هي؟ ومن أين أتوا بها؟ اعتقلني السؤال ورماني في زنزانة الحيرة، أنا رأيتها، إنّها ... لا، لا يمكن أن يحدث ذلك.

بين الممكن والمستحيل قضيت ليلتي تلك قلقاً كئيباً، كدت أطرق باب "أبو عزيز" لأعرف الحقيقة، لكنّ يداً من حديد ساخن تقبض على يدي لتنزلها عاجزة مستسلمة.

لنيسان في هذه الجبال المنعزلة نكهة مختلفة، نسماته مخنوقة برائحة الزهر والشجر، حتّى أنّها تكتم الأنفاس. مساءً خطر لي التوغل قليلاً نحو الغرب في طريق ضيّق لا يتسع لخطواتي، انفرجت الأشجار عن فسحة مزروعة بالدخان وبعض أشجار الليمون والزيتون تتربع على حوافها أشجار التوت البري، وعنب الديب والحميصة الصفراء، احتضنتني شجرة صفصاف كبيرة، وأرخيتُ عنان الحلم ليقتنص الروائح والأصوات الجميلة لطيور لا توجد إلا في هذه المنطقة، اصطادتني الرائحة، ورمتني في شباك وهم جديد، وأخذتْ بيدي برفق فتبدى الحلم يقيناً ما دمت لا أشعر بالموجودات. نبهتني أصواتٌ وهمهمات غريبة في الدرب، نظرتُ إلى أسفل، كانت امرأة طويلة ممتلئة، تخفي وجهها بوشاح أحمر، تبرز لي حورية، بل جنية، كشفت وشاحها عن ملامح متوحشة، عينان تتسعان لاحتضان خضرة الجبال،

وبشرة لنقائها تشفّ عن روح عذبة وردية اللون، للروح لون لم أرها من قبل، قبل أن أرى خرما . أهي...؟ اقتحمتْ قلقي:

ـ هل تذكرني؟

وكيف أنساها؟ تحركت أغصان الصفصافة وضربت وجهي بلطف، شعرت بخدش، وتخيّلت دماً يسيل ليغمر الغابات، ويتسلق الشجرة، كدت أصرخ: لا تغرقيني، لماذا تصرين على ملاحقتي؟ لكنّها قالت عبارات بالتركية لم أفهم منها شيئاً . ناشدتها أن تحدّثني بلغة مفهومة، نظرت إليّ باستغراب، وقالت بعربية مشوّهة:

ـ ستبقى صنماً ... لن تتغير؟

أغمضت عينيّ، وفتحتهما مراراً، شعرت بحرارة تسيل على شفتي، حرارة قبلة لم تكن وهماً، بل... قفزتُ أرضاً، ونبشتْ عيناي السهل المنبسط والدروب الضيقة، والأشجار المتلاحمة. الصنوبر هزأ مني بحركة متعالية من رأسه ومضى بنظراته نحو السماء.

ليلة أخرى قضيتها أرقاً، ليلة أخرى كانت غرفتي حبلى بطيفها يتوسد الفراش حيناً، يصبّ الشاي، يسامرني قليلاً، ويندس في الصدر بنعومة تأسرني.

أهي الريح العاصفة تطرق باب الخوف فتشعل القلب برغبة لالتماس الدفء والأمان في حضن فراش خالٍ؟ أم تراها تلك الصفحات المؤثرة من روايتي الّتي لم تكتمل؟

دائماً أجد في سطور تلك الرواية عزاء ينتشلني من الخواء المرافق لأيامي في هذا المنفى الموحش، فتحضر لحلوحة أميرة متوجة على عرش الأنوثة، تفترش بياض الورق برقتها، وتمتزج دموعها بالحبر فتغيم الكلمات. الطرق يتكرر، والقلب ينتفض، والريح تعوي منذرة بليلة قاسية. لم تكن لحلوحة الّتي فتحت مزاليج الروح للريح القادمة وبرد نيسان، يد نجمة كانت تمتدّ كأنّها حلم مستنجدة بي من خطر

ما ! فتحتُ الباب بحذر، دلفتْ والذعر يكسو قسماتها، اقتربتْ من النّار ورمت شالها المبلل أرضاً، كنت أقف قبالتها عاجزاً عن فهم ما يجري، تمتمتْ بكلمات مبهمة بالتركية، لم أبذل جهداً للحاق بعبارتها، كنت مكتفياً بمراقبة شفتيها تتقلصان فيأتلق وهج في العينين، تشرق النّار على زاوية وجهها المقابل لنظراتي، وتضطرم بين جوانحي، هل أسقط بيدي فعجزت عن اتخاذ خطوة تجاه ذاك النور المنبعث من جسدها المشع بحرائقه! النّار تناديني، الدفء، الحبّ، ماذا تنتظر؟

ماذا أنتظر؟ الحياة أمامي تقدّم لي متعها على طبق من ذهب. (لكن...! نجمة؟ ذلك مستحيل، الكلّ يقول إنّها مجنونة، ألا يعدّ ذلك نذالة منك؟ لكنّها امرأة، يكتمل حسنها بوجه كالبدر، ويتقد بجسد يغري شيطان الرغبة بنسف كلّ القيم. لكن... نجمة؟. تتقدم من النّار، تسبقها إليك رائحة الزهر، رائحة أطاحت بالكلمات الّتي وصلت سمعك متأخرة زمناً عن أحاسيسك المتفجرة بالحنين إلى الالتحام بوهجها. كلماتها بقيت زمناً ترن في أذنك ندية رطبة، تبلل جفاف القلب، وتشعل حواسك بالرغبة: (خبئني في صدرك، أنا خائفة...).

شيءٌ ما يخزني في جنبي، فأنتبه إلى برودة لطيفة يحملها نسيمٌ مشبع برائحة زهر لم أستطع تحديد نوعه. رائحة معقدة متداخلة، تنعش الصدر وترخي الأطراف، عرفت من "أبو عزيز" أنّها رائحة (التتن) الذي يُدَخَّن في بيوت خاصّة بأوراق الصنوبر المزهرة، فتكون له رائحة زكية ولون مميز، ويُصدّر إلى الخارج، وتُصنع منه سجائر الستار. حاولت إقحام السؤال أثناء الحديث: (من أين أتت خرما؟). لكنّي لم أستطع التعدي على خصوصية إنسان عاملني بمنتهى الكرم.

عيناي المتورمتان لفتت نظر الآغا في الصباح وأنا أمرُ بدكانه في طريقي إلى المدرسة، سألني بلهفة:

ـ هل أنت مريض أستاذ؟ لماذا تذهب إلى المدرسة؟ خذ إجازة من نفسك وانزل إلى اللاذقية.

لم تكن فكرة الهرب طارئة، لقد فكّرت بها قبل الآن، ولكنّي خشيت أن يأتي التفتيش فلا يجدني، سخر الآغا من فكرتي، فالتفتيش لا يصل منطقة الباير إلا في الحلم، المنطقة مهملة من كلّ الحكومات الّتي مرّت على سوريا. يخافون أصلاً من القدوم إلى هنا، ابن آوى يضيع في دروبها فكيف بالمفتشين؟

على ذكر ابن آوى، دخلت الدكان، وعلى كأس شاي ساخن تداولنا الأمر. فقد عرفت أنّ شجرة البلوط الضخمة الّتي تقع خلف غرفتي تظلل قبر ولي من أولياء الله الصالحين، مرّ بهذه الأرض في يوم قائظ، وجلس في هذه الفسحة، وكانت الشجرة في أعلى قمة في الجبل، أومأ لها، فزحفت إليه، واستقرّت في هذا المكان لتظلّه، وعندما توفي دُفن تحتها، واتخذ النّاس قبره مزاراً وأشعلوا له الشموع ليلاً، ووضعوا له الطعام في كوة داخل المقام! قلت لحمدي آغا بأنّي وريث هذا الولي، غرفتي تعاني من الظلام وفقر الحال. ضحك الآغا فقد أعجبته الفكرة، وراح يروي للنّاس أنّ الولي غاضب عليهم لأنّ النذور الّتي ترد المقام قليلة وهي مقصورة على الخبز المدهون بالزيت، والولي يقيم كلّ جمعة وليمة لأصدقائه وهم يعيّرونه بأهل قريته، وأشاع الآغا أنّ الذئاب ستهاجم حيواناتهم لأنّ الولي غير راضٍ عنهم، وصدف أن هاجمت الذئاب ليلاً القرية وأكلت عشر دجاجات، فذعر سكان القرية ولجؤوا إلى حمدي آغا الذي أصبح قيّماً على المقام، ينظفه، ويضيء الشموع، ويتقبل النذور، ويحلق للنّاس في الأيام المشمسة على كرسي قش قرب المقام في الهواء الطلق! همست للآغا:

ـ ما زلت تريد الطيران خارج القفص؟

ضحك الآغا مبتهجاً وهو يربت على كرشه النامي باضطراد:

- وهل سأجد طعاماً أفضل وأغبياء يظهرون لي الولاء أكثر من هؤلاء؟

بين ليلة وضحاها أصبح الحلاق حمدي آغا حقيقياً، واستقدم شاباًّ صغيراً علّمه الصنعة، واستقلّ هو بالحديث عن كرامات الأولياء، وهو يطرق بحبات السبحة، ويصمت بين حين وآخر متأملاً في البعيد، ويتابع حديثه وهو يمسد لحيته الصغيرة. وكان ينظر إليّ خلسة، فأبتسم متواطئاً مع خرافة جديدة يبتدعها لبسطاء يقتلهم الجهل والمفاهيم الخاطئة. الآغا حقق حلمه وراح يروي للنّاس قصصاً ويمرر خلالها أبياتاً من شعره الخاص ليحفظها النّاس على أنّها حكم ومواعظ من بطون الكتب العتيقة!

أصبت بنزلة برد خرقت العظام، وأودت بالروح في سهول حارّة تغلي على فوهة بركان ينفجر في أمعائي، لم تنفع معه كرامات الولي حمدي آغا ولا أعشابه، فاخترت الهرب إلى اللاذقية.

وجاء التفتيش إلى القبقلية!

❖❖❖

هبّت رياح غربية تغلغلت في صدري، سحبتني بعيداً، رائحة المكان تحمل في تفاصيلها الغريبة نفحة من روح هائمة ثقيلة الوقع، تضرب أعصابي، وأنا أنشد هدوءاً لا يمنحني إياه صخب الموج، كم من المسافات تفصلني عن كثافة خضراء تسوّر بساتين الكرز؟ نسمات البحر تختلف في إيقاعها الدافئ، تدفعني للارتخاء في المقعد الخشبي وأنا أتأمل نقطة غريبة تسبح في الخط الفاصل ما بين الماء والسماء. لم أنشغل بها طويلاً، سرعان ما غفوت وأنا أخطط لمستقبل مختلف بعد طرح وزارة المعارف منهجها الجديد في التعليم متخلية عن المنهج الفرنسي، فقد كانت المسافة بين البروفيه والبكالوريا الأولى سنتين،

ألغيت البكالوريا الأولى، وأصبح الفارق ثلاث سنوات، وعُدّل نظام الجامعة إلى أربع سنوات، وشطر الفرع الأدبي إلى (أدب عربي - اجتماعيات)، والعلمي إلى (رياضيات - فيزياء وكيمياء)، وأصدرتْ قراراً يسمح لأصحاب النظام القديم بتقديم دورة استثنائية. إذاً فرصتي في تحقيق حلم راودني طويلاً باتت قاب قوسين أو أدنى! هل هي حقّاً في متناول يدي؟ السؤال شدّني من غفوتي لأرى كما يرى النائم نقطة سوداء تسبح باتجاه الشاطئ، ويتعالى صراخ يثقب أذني، الضجيج كان يفصح عن اسم يستغاث به. كان عليّ أن ألمس وجهي وملابسي وأتحسس موضع القلب، لأتأكد أنّي لست نائماً، وأنّي سمعت عبارة: (لقد غرق، خلدون مات!). وألمح وجه جودت القاتم وهو يلوي شفتيه باستنكار:

- مجنون، لو أنّه رمى نفسه في العين لوجد أحمق آخر ينقذه.

ثمّ يضيف بلهجة ساخرة:

- ربّما تعلّم السباحة أيضاً.

ممن يطلب النجدة؟ منّي وأنا أغرق في شبر ماء! وأخاف البحر خوفي من موتٍ مفاجئ غامض الملامح وحيداً على قارعة طريق مهجور، أو في غرفة رطبة معتمة لا يشعر بي أنس ولا جان! لماذا؟ لقد قضيت وقتاً طويلاً وأنا أسأل نفسي، لماذا فعل خلدون ذلك؟ لماذا قتل نفسه؟ ولمَ لمْ نأخذ تهديداته بالانتحار على محمل الجد؟ أحياناً كنتُ أتساءل: هل حقّاً كنّا نحب خلدون، ونعتبره صديقاً؟ عن نفسي لم أستطع تحديد الإجابة، كانت المهمة صعبة جداً، خليط من المشاعر يتناوب عليّ، نفورٌ وحبٌ وشفقة.

(لقد كان أكثرنا مشاكسة وغرابة، وتناقضاً، علاقته بأبيه كانت دافعه للجنون. هل حقّاً هي السبب؟ لم أفكر في تحليل شخصية خلدون يوماً، لكنّي اليوم أرى حقائق كثيرة تقتحمني بقسوة موجهة

أصابع الاتهام إلى ذلك التشتت بين الأحزاب والأفكار المتناقضة الّتي لم يحتمل خلدون تراكمها على عقله وانعكاساتها السلبية على حياته اليومية، ظلّ يراوح بين رفض فكرة الموت والحياة الآخرة، والإيمان العميق بأنّه لا يملك من تصرفاته شيئاً، حتّى وصل إلى قناعة أنّ هناك قوةً خفية تتحكم بجسده، وتدفعه إلى اتخاذ قرارات بعينها يرفضها عقله. حدّثني أكثر من مرّة أنّه يستيقظ صباحاً فيجد فكرة مجنونة تسيطر عليه بقتل أبيه، وأنّه كثيراً ما دخل عليه الإسطبل وهو يعتني بحيواناته المدللة، وفي نيته قتله، لكنّه يتراجع في آخر لحظة، حتّى أنّه دخل ليلاً غرفة نومه فاستيقظ والده وهو يصرخ:

- ماذا تريد يا ابن الكلب، تريد سرقتي؟ حرامي.. حرامي.

وجاءت أمه على الصراخ، واستيقظ الجيران، قال لي حينها:

- لم يؤلمني اتهامه لي، أنا متأكد أنّه لا يوجد في غرفته سوى الطعام الذي يمنعه عني وتأتيني به أمي خلسة، كلمات الجيران المؤيدة لأبي أشعرتني بالذل والهزيمة، باتوا ينظرون إليّ نظرتهم إلى لص. أحياناً أتساءل ما نفع كلّ تلك الكتب الّتي قرأتها؟ ما نفع دراستي، ما نفع وجودي؟ أبي البخيل القذر يسيطر على نصف أراضي هذه البلدة وأنا وريثه الوحيد، ويضن عليّ برغيف الخبز، لماذا؟ ولماذا أتزوج؟ ولماذا آتي بأولاد إلى هذه الدنيا يشعرون يوماً بكراهيتها؟ أنا لا أطيق نفسي، هذا الجسد المركّب على روحي، أشعر به شيئاً زائداً لا لزوم له. أتدري أنّي أحياناً أسير ليلاً في الأزقة ولا يراني أحد!؟ كثيرون قلت لهم إنّي التقيتهم تحت سيباط التكية أو في الشارع العام، ينظرون إليّ باستغراب و يعلّقون بإشفاق: (ربّما كنتَ تحلم.) هل وصلتُ إلى مرحلة لم أعد أميّز بين الواقع والحلم؟ يا إلهي لم لا تأخذ روحي وتريحيني؟

صمت قليلاً، ركّز نظراته في البعيد وسألني:

- ما رأيك بمن يقتل نفسه؟

- قتل النفس حرام، وهو معصية للخالق سبحانه.

- وماذا تقول في كونه قضاء وقدراً؟

- أقول لك ما قاله الحسن البصري في رسالته إلى عبد الملك بن مروان: (إنّ كلّ شيء بقضاء الله وقدره، إلاّ المعاصي).

حدّث نفسه متمتماً: لا بدّ أنّ يكون لها مخرج، نعم سيكون هناك مخرج.

ختم خلدون حديثه بتلك العبارة ونهض مغادراً. لم أفكر يومها أنّ خلدون وصل حافة اليأس وأنّ لتلك الحادثة ذاك الأثر القاتل. خلعتُ معطفي لأترك للنسمات الدافئة حريّة التجوّل في الضلوع، وتابعتُ خطواتي المترددة إلى ساحة الشيخ ضاهر. قبل وصولي الساحة انحرفت في الزقاق فرع ٢٤ شمالاً، هاجمتني رائحة الياسمين قبل أن أمدّ يدي لأطرق الباب، وتخرج أمينة بابتسامة رائقة ترحب بي، لا تلبث ابتسامتها أن تتحول إلى كآبة تحت وقع نظرات أمها، تنسحب لتصنع فنجان قهوة وتبدأ حماتي اسطوانتها المعهودة: (هل ستتركها هكذا؟ متى ستسافر معك؟ متى تستقر معها في بيت؟ ألم نتفق على كلّ شيء؟ أم أنّ أمك...). رفعت نظري إلى التينة الّتي علت أغصانها سطح الجيران، عينا أمي برزتا من الشقوق وهما ترمقاني بحنق: (سأغضب عليك). خرجتُ إلى الطريق العام، وتابعتُ سيري إلى فندق شعبي بوابته مقابلة لجامع العجّان وخزّانات الريجي الرئيسية، بناؤه عربي، له فسحة سماوية ضيّقة، حولها العديد من الغرف، صعدتُ إلى الطابق الثاني، دلفت غرفتي الصغيرة ورميت هموماً متراكمة في الجسد على السرير الضيّق علّ السكينة تدخل نفسي. لم أكد أفتح كتاب التاريخ حتّى طُرق الباب، وبرز من خلال فتحته رجل ضخم يغطي

رأسه الكبير بحطة وعقال، وينتعل حذاءً طويل الساق قرمزي اللون! وبنطالاً منفوخ الجانبين أبيض اللون. بدا على هيئة أغوات الجبل، ابتسم لي وهو يقول:

- فتاة في الأسفل تود سؤالك. تنزل إليها، أم تصعد إليك؟

قلت بتلقائية:

- تسألني فيم؟ في الدراسة؟ لتصعد هي.

لم أكن أعرف "الطقش" ولم أدرك أنّه من قرع بابي ليعرض عليّ فتاة بأسلوب يتناسب مع أفندي جاء المدينة ليدرس! وللوهلة الأولى رأيته يشبه ناظم آغا، لكنّ ما حدث بعدها جعلني أنتبه للغفلة الّتي كنت فيها، لقد أخذني على حين غرة. واقتحمت الفتاة الغرفة وتمددتْ على السرير، وسألتني بلغة سوقية ما تسأله أيّ عاهرة، ضرب الدم رأسي، فطلبت إليها المغادرة، فما كان منها إلاّ أن نزلت الدرجات وهي تشتمني بألفاظ معيبة. تركت الفندق على أثر تلك الحادثة إلى فندق أفضل، بناؤه حديث يقع في الشارع الرئيسي أقصى الشرق من ساحة الشيخ ضاهر. وبدأت الدراسة، يد على القلب وعين على الكتاب.

في الصباح جاءني صاحب الفندق طالباً أن يستعير هويتي، قلت مازحاً:

- هل سترتكب جريمة وتترك هويتي قرب الجثة؟

قابل مزاحي بمرح، وأوضح أنّه يريدها مأجورة بمائة ليرة ليصوّت بها لهارون المرشح للبرلمان، فرفضت. اتهمني أنّي هاوي فقر، وسألني عن رفاقي فدللته على الفندق. عاد إليّ ثانية عارضاً ثمن الهويات الثلاث خمسمائة ليرة، لم يستطع أن يفهم أنّ المسألة ليست في المبلغ بل في المبدأ. فهو يعمل لحساب " أبو هاني" العجوز الدميم الخلقة، الذي كان يعمل حمّالاً في الميناء، لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وإذا أراد أن يقول عشرة، قال (ثلاث ثلاثات وواحد) لسانه أقرط، تخرج

الكلمات رشاً من فمه الواسع، ويرمق محدثه بعين واحدة ويغلق الأخرى! ورغم ملايينه المتراكمة، إلا أنّه لم يغيّر هيئته وملابسه، ولم يترك ابناً في الدنيا ليرثه. و"أبو هاني" يدعم هارون ويدفع تكاليف الانتخابات لإحباط نجاح مرشح الاشتراكيين. ونجح هارون، لكنّ خصومه طعنوا بصحة الانتخابات، وفضحوا قصّة شرائه للأصوات، فأسقطته لجنة الطعون وأعيد الانتخاب في اللاذقية.

كانت هناك ضجة في البرلمان حول تأميم مواعين[٧] "أبو هاني"، فالمواعين تتولى نقل البضائع من البواخر الّتي لا تستطيع أن ترسو في الميناء لصغره. نواب حزب الشعب كانت حجتهم بأنّ تأميم المواعين سيعود بالخسارة على الدولة السورية، لأنّ هناك مشروعاً قائماً لتوسيع المرفأ، فإذا تمّ المشروع لا حاجة للدولة بالمواعين، وتكون قد خسرت المليون ليرة ثمنها، ونواب حزب البعث العربي الاشتراكي، يقولون إنّ قيمة ربح المواعين في السنة مليون ليرة، فتأميمها واجب قومي، وإذا تمّ المشروع ترمى في البحر، المهم كسر طوق الاحتكار!

لكنّ السلطة الّتي تمتلكها بعض الأسر في البلد، تفرض وجودها على الساحة بقوة، ففي عهد الشيشكلي كان هارون نائباً في المجلس، وفي هذا العهد عاد هارون - رغم إسقاطه من قِبَل لجنة الطعون - إلى المجلس، لكنّ صوته ضاع في زحام الأصواتِ الّتي أثبتت وجودها، وصدر قرار التأميم، وحقق البعث الانتصار الثاني بعد تأميم شركة الريجي. رغم أنّه يشكّل الأقلية في المجلس.

يبدو أنّ حظي الأسود يضع في طريقي دائماً أناساً يستفزونني، ويجعلونني أتصرف بحماقة، أنا المتضرر الوحيد من نتائجها، لكنّها هذه المرة مرّت على خير! دخلتُ قاعة الامتحانات في ثانوية اللاذقية

---

[٧]- مواعين : سفن صغيرة .

للبنين في ساحة الشيخ الضاهر جهة الشمال، لم يكن استعدادي جيداً للامتحان وهذا ما زاد من توتري وقلقي. دخل علينا القاعة شابٌ طويل، تتراقص قامته بدلال، ويلمع شعره بشدة، وحمرة تعتلي شفتيه، ارتفع فوق عينيه اللوزيتين حاجبان خُطا بعناية، يرتدي بنطالاً ضيّقاً وقميصاً شفافاً، راح يفرقع أصابعه وهو يروي لنا بترفع سيرة حياته، وينظر إلينا بقرف، ويوزع الأوامر يمنة ويسرة. ضرب الدم رأسي وطاش صوابي وأنا أسمع عبارة (فلاح غبي) ربّما لم أكن المقصود فمنظري لا يدل على بيئتي، لكنّ العبارة الّتي ترددت على سمعي كثيراً باتت الشرارة الّتي تقدح زند الغضب فلا أرى أمامي:

ـ أستاذ هل سافرت يوماً إلى الباب أو إدلب؟

تطلع إليّ باهتمام مستغرباً:

ـ أين تقع هذه؟ زرت فرنسا، أوروبا، إيطاليا، لكن لم أسمع بهذه المدن!

قلتُ ساخراً:

ـ أستاذ، أنت لم ترَ الحضارة والرقي على أصولهما، هناك يدمغونك بهما فلا تنسى التفاصيل أبداً. أما أوروبا تلك الّتي تتحدث عنها ـ اسمح لي ـ لا تعرف شيئاً من التحضر. أعتقد أنّ أحوالك تتحسن بكم درس إدلبي في زقاق البوس، لا تقل لي إنّك لا تعرف حلب أيضاً ولم تدلف تحت ساعة باب الفرج ولا زرت النافعية، لأنّي أشك أنّ دراستك العليا كانت هناك!

انتفض بقوة، لم يفهم قصدي بالضبط لكنّه عرف أنّي أسخر من شكله الأنثوي ومن تشدقه بالرقي أمام مجموعة من الفلاحين الأغبياء كما يراهم، صرخ بصوت رفيع كصوت صرصار يئز في موسم الحصاد:

ـ ماذا تقصد يا حيوان؟

رميت ورقة الامتحان في وجهه وخرجت من القاعة وأنا أرد له الصاع صاعين. لم تمر الحادثة بسلام فقد كتب تقريراً يطلب فصلي من الامتحان، لكنّي استطعت أن أحصل في النتيجة على المجموع المطلوب في المواد الأدبية. ونجحت في (الثانوية العامة) كما سُميّت حديثاً. ومدّ الخيار الصعب رأسه من كوة ضيّقة أطبقت على أنفاسي، الآن بإمكاني دراسة الصحافة وتحقيق حلمي، لكن،لا صحافة في الجامعة السورية ولا يمكنني السفر إلى مصر! والأدب العربي لن يغيّر من وضعي كمعلم منبوذ في القرى النائية. أطلّ وجه أسعد الطرابلسي وراء قوس المحكمة بملامح مهيبة ليساعدني في اتخاذ القرار، أذكر أنّي حلمت للحظات - وهو ينطق بالحكم عليّ بحسم من راتبي ويوصيني بعدم تحقير المفتشين - أن أكون مكانه، فقد جذبتني ضحكته وتفهمه لقضيتي.

❖❖❖

لم يكن ذلك منذ زمن طويل حين صحونا على صوتها المقاتل يستنهض الهمم بكلمات تشعل النّار في سباتنا الطويل (يا هذه الدنيا أطلي واسمعي، جيش الأعادي جاء يقضّ مضجعي، بالسيف سوف أرده وبمدفعي، قولوا معي، الله، الله أكبر فوق كيد المعتدي) اقتلعتنا من حاضرنا ومشاكلنا الصغيرة لترمي بنا في أتون المعركة. خلال ساعات كانت الاستعدادات في أوجها، وكبر الحلم حتّى شعرنا أنّ التحرير صار قاب قوسين أو أدنى، وكان لتفجير جول جمّال للباخرة الفرنسية جان دارك واستشهاده أكبر أثر في نفوسنا، بطولته رسّخت قيمة الإيمان، وجددت اليقين بوحدة واقعة بين البلدين، ووحدة المصير المشترك. شتان بين الأمس واليوم، بين أغنية تشعل داخلك بالأمل، وأخرى

تدعوك للفرح والعيد وداخلك ينزف! غناء يملأ الساحة من مكبرات الصوت الّتي تنقل بث الإذاعة..

في الضيعة صحينا بكير
على صوت العصافير
قلنا شو صاير اليوم
قالوا اليوم عيد كبير.

لم نكن نعلم أنّ العيد يأتي في الثالث والعشرين من شباط، ارتدينا له ما يناسبه وتوجهنا إلى مقهى مرسال. لم يكن لباسنا الصيفي هذا غريباً فقط في هذا الوقت من السنة، بل بدونا أشبه بمهرجين في السيرك. عبس شباط في وجوهنا مكشراً عن غبار سدّ الأفق، فبدت السماء قاحلة، لا غيوم ولا أمطار، رياحٌ ساخنة تلفح الوجوه وتشوي القلوب، العامة فسّروا ذلك بأنّ الطقس قال نعم للوحدة، قبل أن ندلي بأصواتنا في صناديق الاقتراع، واتحد مع الجو في مصر! الأخوان المسلمون اتخذوا ذلك ذريعة لتحريض النّاس ضدّ الوحدة، فسبحانه وتعالى غاضب على سوريا لتقرّبها من السفاح عبد الناصر، لذا حبس المطر عنّا، وبين آراء لا طائل منها، امتدّ الجفاف ليقضي على الزرع وأقبل النّاس على مجاعة وشيكة. لكنّ الحماس لدى الشارع للوحدة فاق كلّ توقع، هياج دفع بالملايين لتقول نعم، وكعادتنا جلسنا ننفث الدخان، ونحرك الهواء بمراوح القش رغم أنف الحر، ونفسر الماء بعد الجهد بالماء!

، والسؤال الذي كنّا نجتره ونضع له الأجوبة المناسبة في اعتقادنا، ما الذي دفع أكرم للنوم تحت خيمة عبد الناصر؟

مصطفى كان يرى أنّ تصرفات عفيف البزري هي الدافع وراء تصرف الحوراني:

- ألا تذكر إبراهيم محاكمة منير العجلاني؟ كنّا نسمعها من الراديو، لقد حقّر البزري منير ولم يحفظ هيبته ومكانته كأستاذ للحقوق في

جامعة دمشق، وقال له على الملأ: (تلحس....) سمعه الملايين، كما سمعوا منير يطالبه باحترامه قائلاً: (لقد قلت لفخامة الرئيس القوتلي إنّ العسكر سفهاء وألسنتهم نجسة، فقال لي: بل هم جماعة أوادم لن يزعجوك!). وقد قُطع الإرسال حين رد البزري على منير، وأعيد مرّة أخرى لمتابعة المحاكمة، وعرف النّاس يومها الجملة الواقعة في الفراغ والّتي نالت من منير والرئيس معاً!

قال محمد ديب وهو يتلمظ بطعم الشاي ساحباً نفساً عميقاً من الدخان:

- بتعرفوا يا جماعة؟ عليّ الطلاق بالثلاثة أحببت عفيف هذا، أي هه هيك الرجال، شيء يفش الخلق، طول عمري أكره المفذلكين.

ضحك هاشم ضحكته المشهورة وقال:

- أي أبو أكرم، لو تعرّفت على عفيف ما أصبحت من جماعة أكرم. لكنّك حفظت طريق العودة، سيستلم ابنك أكرم الحكم يوماً ما!

نفض محمد ديب بقايا الرماد عن شرواله ونظر إلى هاشم بدهشة:

- ما قلت إنّهم حلّوا الأحزاب؟ يعني أنا حر! على كيفي، أنتقي الرجل الذي يعجبني، حتّى ولو كان صاحبكم بكداش. وبعدين عليّ الطلاق ما فيها شي إذا استلم أكرم، ابني على سلامته، فهيم، طالع لأبيه.

قهقهتُ عالياً وذكرى طريفة تمرّ بخاطري، فشله في الدراسة، وتلك التمثيلية الّتي أرادنا حكمت أفندي أن نمثلها، يوسف العظمة والصفعة الّتي وقّعتها أصابعي على وجهه، تحسس هو وجهه، وتصالحنا فيما بعد، تراه يحملها في نفسه إلى الآن؟!

لم تعد الرجعية والمليونير الأحمر (خالد العظم) أعداء أكرم، بل الشيوعية بما لها من ثقل كانت الكابوس الدائم له، وأراد التخلص من سيطرة الشيوعيين على الجيش، لكنّه نسي أنّ العسكر لا يستطيعون القيام بانقلاب شيوعي لانقسامات داخلية في الجيش، وإن قضى

عفيف على أنصار السعودية بمحاكمة من لم يستطع الفرار، والقضاء على عملاء العراق الذين يروّجون لفكرة إحياء مشروع الهلال الخصيب ـ كما قال ـ وأنّ الكتلة الشامية مترددة بين الاتحاد الفيدرالي والوحدة، والكتلة الحورانية مع مؤيدتها الحموية تريد وحدة على هواها!

قال مصطفى بتسليم:

ـ على كلّ أعترف أنّها ضربة معلم.

رد هاشم متحفزاً:

ـ ممن؟ من أكرم؟ أعتقد أنّ فكرة الوحدة أكبر حماقة ارتكبها أكرم وسيندم عليها كثيراً حين يرى الضربة موجهة إليه، لا أظن عبد الناصر سيترك في الساحة منافساً له بحجم أكرم وإن عيّنه نائباً له، كلّ ذلك سينتهي، والله أرى ركاماً تعصف به ريح عاتية تعمي عيوننا، كما أراكم أمامي.

وضع مرسال صينية الزهورات أمامنا وهو يقول:

ـ والله لا أفهم لم تتعبون روحكم بهذه المناقشات العقيمة، ألم تنتخبوا عبد الناصر؟ ألم يصبح أمراً واقعاً، ها انظروا، هذه صورته تزيّن الجدار في المقهى، يعني الكلام بلا فائدة، النّاس أعطته أصواتها مئة بالمائة.

ضحك هاشم:

ـ والله أنت مرْسال في قلوبنا رغماً عنّا، أتعرف أنّ كلامك صحيح، لكن كيف تكون النسبة مئة بالمائة وأنا لم أنتخبه؟ أتذكر يوم الاستفتاء لأديب الشيشكلي؟ يومها كانت النسبة مئة بالمائة وورقة واحدة قالت لا، هي ورقتي.

قال مصطفى ممازحاً:

ـ لا والله بل ورقتي.

قطعت عليهما الطريق:

ـ أذكر الحادثة جيداً، يومها كنت مع مدير الناحية وقائد الفصيل أراقب الصناديق، لم يقترع سوى ٢٥ بالمائة، قال مدير الناحية لقائد الفصيل، إذا تقدّمنا بهذه النسبة إلى القائم مقام سيوبخنا، فأصلح قائد الفصيل النسبة وجعلها ٥٠ بالمائة وأضاف مدير الناحية عليها عشرة، وحين تقدّم بها إلى القائم مقام قال له: أليس عيباً أن تكون نسبتك متدنية إلى هذا الحد، فردّ بخبث: هناك صناديق لم تفتح بعد!

بعد نصف ساعة رنّ الهاتف عند مدير الناحية ليقولوا له إنّ النسبة أصبحت تسعين بالمائة والموافقون مئة بالمائة وورقة واحدة قالت لا! المهم أنّ النسبة وصلت إلى محافظ حلب، المقترعون مئة بالمائة، الموافقون مئة بالمائة وورقة واحدة قالت، لا.

صاح محمد ديب من زاويته:

ـ أي بعرف، عليّ الطلاق هاي ورقتي.

وغرقنا في ضحك أطار كلّ الأحزاب ورؤساءها من أدمغتنا، لكنّ محمد ديب تمتم قائلاً وكأنّه تذكر شيئاً هاماً:

ـ أكرم قال نعم للأسباب الّتي حكيتم عنها، شكري وخالد العظم ليش قالوا نعم؟

قلت بتلقائية:

ـ ربّما اندفعا إليها من باب المزايدة على أكرم.

ضحك هاشم بغيظ ضحكة مبتورة، صحبتها نظرة عتب:

ـ أخشى أن تفرق السياسة بيننا.

قال مصطفى بصوت هادئ:

ـ يا جماعة دعونا نتفق على رأي واحد، والله أشتهي أنْ نتفق مرّة، ونودّع مرسال بضحكة مشتركة لا تحمل خصوصية كلّ منا.

نحن متفقون وإن لم نشعر! كلّنا يعرف أنّ السبب كامن في نوازعه الشخصية نحو الديكتاتورية والاستخباراتية.. المحب للوحدة والكاره

لها، الرافض والمتحمس؟ علينا بالبحث في داخلنا لمعرفة إجابة مغرقة في الخصوصية!

حُلَّ حزب البعث، كما حُلّت الأحزاب الأخرى، أعلنتُ عدم موافقتي على حلّ الحزب وأنا على يقين أنّ أحداً لن يستمع إليّ، كنت أجهل مراوغة أكرم، وأجهل أنّ من وحدّها سيفصلها متى تخلّص من الشيوعيين في الجيش. وعُرفت بتطرفي في الحزب فأنا أنكر جمع الثروات الطائلة بطريقة غير مشروعة، وقد تعددت الطرق والأساليب للحصول على تلك الثروات، وقد وافقت "عفلق" بإنكاره لمناورات أكرم، وكرهت حصر السلطة في حزب واحد. وفي نقاش ضمّنا في الحزب طُرح السؤال التالي: (لنفرض أنّنا استلمنا الحكم - فرضاً - وتقدّم اثنان إلى وظيفة في الدولة أحدهما بعثي جاهل، والثاني مثقف غير بعثي فأيهما نختار؟) كان الإجماع على اختيار البعثي لأنّه سيكون الرجل المناسب في المكان المناسب! وقد عارضت إطلاق يد البعثي في الدولة، وأعلنت أنّي سأنسحب من الحزب.

لم أترك مبادئي ولا رفاقي، ولم أنتسب إلى حزب آخر، وكنت أنتقد سياسة عبد الناصر وطريقته في الحكم، وأصفه بالديكتاتور المستبد، وأنّ الاتحاد القومي عبارة عن لمامة، جمع البعثي مع الوطني مع الشعبي مع الإخوان، والكلّ جاء لانتهاز الفرص، وكثرت التقارير المرفوعة إلى الجهات المسؤولة ضدي، وقد شاعت هذه الطريقة الجديدة، وهي من مفرزات حكم المخابرات.

❖❖❖

وصلتُ(جبلة) ظهراً، وقفت على الرصيف حائراً، إلى أين أتوجه؟ أسند ظهري إلى جدار قذر حيناً، وأسأل المارّة حيناً، لا أحد يعرف الإجابة وكأنّي أسأل عن جزيرة مجهولة! إلى أن تبرع ممرض يعمل لدى

عيادة تقع في الشارع نفسه بإيصالي، وأوصى السائق بي، ولم ينس أن يطلب مني إرسال مرضى القرية إليهم!

وضعني الشيخ حمود بجانب النافذة وانطلقت السيّارة في السهل، ثمّ انحدرت يسار الطريق المتجه جنوباً لتدخل أرضاً ترابية، وبعد أن اجتازت مجرى السيل، صعدت متعلّقة بطرف الجبل، فناءت بحملها! توقف الشيخ حمود وأنزل ركّاب الظهر، وبرّد الموتور، لكنّ السيّارة لم تستطع التقدم فأنزل ركاب البطن، وانتظرهم في رأس الطلعة.

تقع "حرف المساترة" فوق قمة جبل أجرد من الصخور الكلسية، نبتت في رأسه شجيرات سنديان، على طرف وادٍ سحيق جنوباً، وواد أشد عمقاً شمالاً، الواديان يشكّلان حرف دال. على طرفي الحرف تناثرت بعض البيوت الريفية، وفي القمة تلاصقت البيوت المبنية من حجارة الصوان والاسمنت، وسط هذه البيوت ساحة مدببة برأسٍ شبه مخروطي، فيها ثلاث شجرات من السنديان تحيط بغرفة غير مسقوفة يستقرّ داخلها مقام الخضر عليه السلام، الذي يتولى حراسة القرية وحمايتها. عرض عليّ الشيخ حمود أن أذهب معه إلى قريته المجاورة، ويوصلني صباحاً إلى المدرسة، ففضلت المبيت عند مختار القرية، استاء الشيخ حمود ونبر قائلاً:

- ما في داعي تروح لعند المختار هذا عـ... رح آخذك لبيت "أبو سعدا".

لم ينتظر ردي، بل أمسك بيدي وقادني في طريق ملتوية، حتّى وصل باباً لم يطرقه، إنّما نادى بأعلى صوته:

- سعدا، يا سعدا..جبت لك أستاذ على كيفك.

خرجت إلينا صبية طويلة القامة، شعرها الأشقر الحريري يلامس ركبتيها، بشرتها تشتعل حمرة وبياضاً، نظرتْ إليّ بعينين اتسعتا فلمّتا

بطرف ناعسٍ زرقةَ البحر وهياجه. توقفتْ الكلمات في حلقي، أهي جنيّة، أم حوريةٌ؟ ابتسم الشيخ حمود لسعدا الّتي تأملتني ملياً:

- ما رأيك؟ شوفي ها الطول، وجهه بذمتي وديانتي يشبه وجه سيّدنا الحسين، وقامته مثل سيّدنا جعفر الطيار. ديري بالك عليه.

تقديم الشيخ حمود لم يحرجني، بل نظراتها المتفحصة، مدّت يدها بهدوء وصافحتني، وأبقت يدي بين يديها لدقائق ثمّ سحبتني إلى الداخل. عبرتُ معها يم العتبة إلى فسحة سماوية لا تتجاوز المترين، لم يتسع باب الغرفة الخشبي لكلينا،اعتلى كتفي رأسُها فشعرتُ بدوار أنزلني عتبة الغرفة الواطئة، ولم ألمح في العتمة غير يدي الّتي ترتعش بحثاً عن قدرها في حرارة يدها. نهض رجل عجوز في العقد السابع من عمره، طويلٌ نحيل، أسمر الوجه، تدمع عيناه، ترنحت يده وهو يصافحني ويسأل ابنته من أكون؟ طلبت مني سعدا الانتظار حتّى أتت بفراش نظيف ووسائد نضدتها وأجلستني، أشعلتْ قنديلاً على عمود في وسط الغرفة وآخر علّقته على الحائط. استطعت في الضوء معرفة التفاصيل المحيطة بي، غرفة واسعة تتجاوز الأمتار العشرة، كدّست فيها أكياس المؤونة والغلال. وسط الغرفة نضدت الفرش والأغطية والوسائد. أبو سعدا اتكأ على وسائد سميكة ووضع أمامه أقداحاً وقنينة عرق وأطعمة. دخلت امرأة عجوز متوسطة القامة هزيلة الجسم، رحّبت بي، وجلست بعيداً في الزاوية. لم تكن فكرة الشراب مريحة لي لذا ادّعيت أنّه يضرّ بمعدتي تهرباً من دعوة "أبو سعدا" الذي أصرّ أنّ فيه شفاءً لكلّ داء! وقبل أن تنهض سعدا لصنع قهوة لي، عنّفها والدها:

- قهوة قبل الأكل؟ اذبحي دجاجة قوام، عجّلي.

بسرعة عادت سعدا وبيدها سكين ودجاجة تنتفض، وقدّمتها لي لأذبحها، فاعتذرت، وطلبت إليها أن تذبحها بنفسها فأنا لم أقم بهذا من قبل، استغرب والدها:

ـ ذبح المرأة نجس، يا إله السماء، كيف تذبحها هي؟

وقعت في حفرة غامضة حين أردت الهرب من الموضوع بقولي:

ـ ليست كلّ امرأة سعدا، أكيد ذبح سعدا طاهر.

قال والدها وهو يضحك:

ـ الظاهر أنّك ابن حرام، حطيت عينك على البنت قوام.

لم أستطع تحديد ما يقصده أبو سعدا، هل أغضبته كلماتي وآثر التغاضي عنها؟ أم أنّه لم يحملها على محمل الجد؟ توارد رجال القرية ليسلّموا عليّ وينقذوني من ورطة الأسئلة العقيمة. تصدّر المختار الجلسة وحاول إبراز أهميته، لكنّ القوم لم يعبؤوا به والتفتوا للطعام، وراحوا يتسابقون في الإلحاح عليّ بتناول المزيد. وحده أبو سعدا لم يأكل إلا القليل ورجع إلى الخلف وراح يعبّ العرق كأساً وراء أخرى، فقلت له:

ـ على مهلك يا رجل، ستقتل نفسك.

ابتسم أبو سعدا ابتسامة واسعة غاصت لها عيناه في حفرة بنية عميقة وبانت تجاعيد إضافية أحاطت بوجهه:

ـ يا أستاذ، ما حدا بيموت ناقص عمر، و أنا أوصيك قدّام الكل إذا متّ الآن، اقبرني تحت الدالية، وغطي قبري بأوراق التين، وحط في حفرتي كلّ ها القناني، حتّى إذا استيقظت،يكون الخمر جنبي.

أبو سعدا لم يفكر بشيء آخر سوى الخمر، ولم يتحدث إلا عن طريقة تقطير التين، وعرق التين الذي يعتبره أطيب أنواع العرق، أما الشيخ حمود فقد استطاع استقطاب انتباه الرجال حتّى كادت عيونهم تجحظ استغراباً حين راح يروي ما حدث معه حين أقلّني بسيارته من

جبلة إلى الحرف. لهجة الشيخ حمود أضافت للقصّة أبعاداً وأعطتها نكهة حريفة جعلت الرجال يقعون في جدال، بين مصدق ومكذب:

- بتعرفوا أن الأستاذ حفيد النبي يونس؟

السؤال كان كافياً لإزاحة الستار عن غبار الماضي، ونفض جعبة المحرّمات لتُعرض عارية على بساط الجدل. الشيخ حمود لم يترك فرصة للرجال للإغراق في الشك، فقد أوحى إليهم أنّي سأثبت لهم يوماً صدق ما يقول، فوضعني في مأزق، مع ذلك ابتسمت موارياً حرجي، وأيقنت أنّ الأيام ستكشف الحجاب عن كراماتي الّتي بدأ الشيخ حمود يخطط لإقناع النّاس بها! لم أكن أعلم أنّ كلمة عابرة أردت أن أغيظ بها راكباً غبياً استفزني في الطريق ستقودني إلى هذا! فقد شدّتني قمة جبل عالية من الصخور الصوانية ينحدر سفحها الغربي بميلان شديد، تتناثر فيه عدة بيوت، قال أحدهم متفاخراً (هذه تبرياس، فوقها يرقد النبي يونس) السيّارة تميل بنا وتتراقص بشكل مخيف، والراكب يميل بجسده الضخم فوقي، ويرمقني بنظرات استنكار، اعتقدت أنّه لا يرتاح للغرباء، لكنّه أوضح موقفه مُلمّحاً إلى أنّ أهل السنة خارجون عن الجماعة. فقلت له ببرود:

- هذه ليست تبرياس، هذه اسمها في الكتب القديمة الترّاس، والنبي يونس كان يقطنها مع ابنه الترّاس الذي سُمي كذلك لأنّه كان يحمل ترساً كبيراً لا يقدر على حمله أحد، يضرب به الفارس فيرديه قتيلاً مع فرسه، وقد هاجم مرّة أربعة فرسان جندلهم بضربة واحدة إلى بطن هذا الوادي.

مطّ الرجل شفتيه، وقال بدهشة:

- أي بذمتي وديانتي أنا متأكد أنّها تبرياس.

التفت الشيخ حمود إليّ متسائلاً من أين عرفت ذلك، فقلت له بلا مبالاة:

ـ هذه قريتي، وهذا جدي النبي يونس.

ذهل الشيخ حمود وأفلت المقود وهو ينظر في وجهي وكأنّه سيجد ملامح النبي يونس مقيمة في تفاصيله، وكاد يودي بنا في الوادي لولا أمسكت المقود عنه. وربّما لذهوله اعتقد أنّ السيّارة استطاعت التوازن لوجود روح النبي يونس المتجسدة في حفيده!

قضيت ليلتي تلك بين نارين، نار سعدا الّتي اقتحمتني كبركان ونارٌ مختبئة تحت جمر قصّة لا تني تخدش القلب فينزف ببطء، أهو حبٌ ذاك الذي ناداني للتغلغل في غابات سعدا والغرق في لجّة عينيها؟ نداء غريزي غرسني شتلة حبق على قمة شعرها، تناثرت واشتعلت وغاصت في شقّ الصدر لتنزل أسفل الهضاب المرتعشة تحت وابل المطر. اندست في صدري وهي تلهث:

ـ هل أنت متزوج؟

السؤال الصفعة أبعد القدمين عن الفخ، ووجدت جسدي يلجأ إلى الفراش مختاراً الصمت، سعدا تلحّ، استدرت نحو الجدار، وأيقظت البرودة وعيي، ماذا لو صحا والدها، ماذا لو كان الأمر فخاً واجتمع عليّ القوم؟ ماذا لو...؟

عرضت عليّ سعدا في الصباح الإقامة عندهم، رفضت، فأسرعتْ لاستئجار غرفة لي قرب المدرسة لقريب لها في الجيش. الغرفة جميلة، مسقوفة بالاسمنت، تنفتح نوافذها على جمال إلهي، لأوّل مرّة أشعر أنّي أسكن بيتاً وليس حظيرة! رتبتها سعدا على ذوقها، لم تنس شيئاً حتّى الطعام. ووجدت نفسي أسير معروفها، أم تراني أردت أن أكون أسيرها؟

استقبلني أسيد، شابٌ أسمر رقيق، عيناه مدورتان، حاد الأنف حليق الذقن والشاربين، عريض الحاجبين، رقيق الشفتين، متوسط

القامة، شعره أسود خفيف. مدّ يداً ثخينة الأصابع ليشدّ على يدي بمودة:

ـ بربي.. بربي.. سمعتك مسك، فاحت الرائحة قبل وصولك.

ضحكنا معاً واتفقنا على اقتسام الصفوف الخمسة، ثلاثة له وهو المدير، واثنان لي. أسيد يغصّ بالكلمات، فيخرجها على دفعات، أبدى فرحاً بوجودي فقد كان يتحمّل الصفوف الخمسة لوحده، كما أنّه يلاقي صعوبة في التعامل مع الأهالي بسبب ديانته، وانتمائه الحزبي.

وقد همس بإذني يوماً كأنّه يخشى الجدران والمقاعد:

ـ لقد حذّرني جرجس منك، قال إنّك بعثي متطرف، وحذّرني من أهل القرية فهم ـ حسب رأيه ـ أشدّ كفراً من اليهود.

قلت له بصوتٍ مرتفع:

ـ لعنة الله عليه ومنذ متى كان لجرجس دين؟

وجرجس هذا، قصير يكاد يلتصق بالأرض، صغير الوجه، يضع على رأسه برنيطة أمريكية، يمشي قفزاً، وهو يشبه القرود بشكل عام، جاءنا للتفتيش، وانفرد بأسيد. شككت بهيئته، فلم أكن أرتاح له، وتمنيت بعد هذا الحديث لو أنّي سمعته حينها لمسحت به أرض المدرسة واستقلت من عملي.

لم يمض على زيارته أسبوع حتّى جاءت لأسيد دعوة إلى المباحث في اللاذقية، ارتعدت أوصال أسيد، فقد كان يعرف معنى أن يتهم بالشيوعية، ويدخل مبنى المباحث الذي يؤدي إلى أقبية التعذيب، فلا يعود إلى الحياة إلا طويل العمر. حاولت التخفيف عن أسيد، وطلبت إليه أن ينكر التهم وأن يقول للمحقق إنّه انسحب من الحزب منذ الوحدة، وطلبت إليه أن يسأل عن صديقي صدقي الذي يعمل في المباحث علّه يساعده. قال بارتباك:

ـ بربي.. بربي، أنت ستدهورني.

وعاد أسيد من المباحث حيّاً بعد ثلاثة أيام، عاد ليحكي لي عن الديمقراطية، وتطبيق الشعارات، الحريّة والاشتراكية:

- بربي.. بربي.. نحن أحرار، المواطن حر في وطنه، من قال عكس ذلك.

قلت جاداً:

- بربك يا أسيد، أنت فأرٌ مذعور خائف من الحقيقة، حقيقة أنّ الحاكم هو ربك الذي بيده كلّ شيء، فهو يميتك ويحييك، يفقرك ويغنيك، يرفعك ويخفضك، فهو إلهك، لا تنكر، لست هنا في المباحث.

فتح أسيد فمه استنكاراً وكاد ينطق حين قاطعته:

- (وإذ قال إبراهيم ربي يحيي ويميت) قال: أنا أحييك وأميتك، وإذ قلتَ له (إنّ الله يأتي بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب) أنزلك باطن الأرض وأخرجك مساء وقال لك هاهي، انظر إليها تشرق من الغرب.

قال أسيد:

- بربي.. بربي أنت شيوعي أكثر مني، لكن الرب هو الذي يحيي ويميت.

قلت بمرارة:

- لقد أحياك إذ أخرجك من السجن، ألا يستطيع عبد الناصر أن يهب الحياة لإنسان محكوم بالموت يقدّم له التماساً بالعفو؟ ألم يُغنِ هؤلاء الصعاليك الذين تسللوا إلى الحكم ونهبوا الدولة؟ ألم يفقر هؤلاء الذين طبّق عليهم قانون التأميم والإصلاح الزراعي؟ ألم يرفع بعض المتسكعين إلى رتبة وزراء؟ ألم يذل شيوخاً كانت الملايين تجتمع لسماع خطبهم في الجوامع؟ إذاً هو ربك، وإياك أن تعبد ربّاً غيره.

ارتخى فك أسيد وهو يكرر:

- بربي.. بربي.. كلامك صحيح.

قلت له ضاحكاً:

- قل، بعبد الناصر صحيح، مالك يا رجل؟ يبدو أنّك تحتاج إلى جلسة أخرى في المباحث لا يساعدك فيها صدقي، لتعرف من يكون ربك.

مرّ في خاطري وجه خلدون وقد شحب لونه وجحظت عيناه وهو يكاد يغص باللقمة، أين هو الآن ليرى نظرياته عن الحزب الواحد؟

(حين ابتدع الشيشكلي حركة التحرير وحلّ الأحزاب قال لي ساخراً: (حريّة! يا لها من سخرية، عن أيّ مجتمع وأيّ حريّة تتحدث؟ نحن حبيبي مجتمع مثالي، مجتمع بلا حرية يعني مجتمعاً مثالياً، نعم، لا تقل لي قطيع وتفلسف الأمور، بل قل مجتمع خال من الفعالية، وهذا يعني خلوه من الجريمة، يا سلام، انظر حولك الجميع يسعى - كجيش من النمل - إلى طعامه وشرابه وفراشه. ألا ترى كم هي رائعة عقلية الشيشكلي، والله رجل عظيم! حبيبي.. لا يحتاج الأمر لتفكير، حزب واحد، إله واحد، ألا ترى معي أنّ ذلك أفضل، أن تعبد معلوماً خير لك من عبادة مجهول، على الأقل تعرف الأضحية المناسبة له! لقد فكّرتُ طويلاً، أليس من السخف أن يكون إلهكم بهذه العظمة - المتخيلة - وتقدّمون له خروفاً؟ يا لكم من رعاع!).

يبدو أنّي فتحت بوابة جهنم بحديثي مع أسيد، فأصبح لزاماً عليّ أيضاً أن أحلف بعبد الناصر كي أخرج من أقبية التعذيب دون عاهة جسدية وبأقل تشوه ممكن في الروح!

مرّت تلك الحادثة، ومضت الأيام عادية، أخرج صباحاً إلى المدرسة ليصادفني جاري حمّاد، وهو رجلٌ عجوز محني الظهر، رث الثياب، قصير القامة، يسير ويداه مقوستان، يحركهما إلى الخلف والأمام، بحيث يبقى كتفاه ساكنان، تكاد حطّته تصل الأرض مع شرّابات البريم

المتهدلة، وجهه مليء بالأخاديد والتعرجات، يحكي بؤس الثمانين الّتي عاشها وما ينتظره من العمر، رجلٌ بسيط ساذج، طيب القلب، يجلس على سطح داره ويدلي ساقيه إلى الطريق، ينظر إلى المارة ويتحدث مع جاره على السطح المقابل عن ابنته الّتي سافرت لتعمل في لبنان وتعيل أهلها، وعن ابنه المتطوع في الجيش الذي أصبح برتبة عالية ولم يعد يراه. وإن لم يجد من يحدّثه، يحدّث نفسه، وهو لا عمل له سوى الجلوس على السطح في الأيام المشمسة، والتجوّل في الحارات باقي الوقت أو الجلوس على كرسي خاص به من القش أمام داره. حمّاد متضايق من جاره أسيد الذي يسكن عنده بسبب سعاد، يحدّثني كلّما التقاني عن كراهيته للسفر وفراق الوطن، قريته هذه الّتي يفضل الموت جوعاً على مغادرتها، يحكي عن الماضي كثيراً وكأنّه يعيشه، وعن الذين فقدوا والذين ماتوا، والذين ولدوا، كان إذاعة حيّة، ترافقني في طريقي إلى المدرسة، وتستلمني مساء عند عودتي. لكنّه دائماً يظهر استغرابه من نسبي ويهز رأسه كمن لا يصدق!

الشتاء القادم بأمطاره وثلوجه جعل الطريق إلى دمشق كابوساً أمارسه صاحياً، وأتمنى لو كان حلماً!

أسيد لا يفارقني، يمرُ بي في السهرة فتطول الساعات، ويبقى الفجر على الشرفات رماديا بارداً، نتنفس حضوره بصعوبة، فأغلق الكتاب، والتمس بعضاً من النوم. اليوم همس بإذني بارتباك:

- ما رأيك أن نسهر عند حمّاد؟

كنت أعرف أنّ الرجل البسيط سيرحّب بنا، لكنّي كنت أود الانتهاء من كتاب (الحقوق المدنية) لأوقف شتاتاً يملأ الروح، ويمزقها بين الممكن والمستحيل، بين ما أطمح إليه، وما تمنحني إياه الحياة. سحب أسيد الكتاب من يدي، ووعدني بعشاء دسم، فقد أتى بأرنب يزن خمسة كيلو، جادل فيه صاحبه واستطاع الحصول عليه بنصف ليرة.

حين نهضت لإعداد الموقد شعرت بحركة مريبة في الخارج، فتحت الباب بسرعة لأرى جاري حماد يتردد في الطرق عليه، تأخذه خطوة وتعود به خطوات، سألني بانزعاج عمّا أفعل، ولاحظت أنّ القوم اجتمعوا ولم يكن حمّاد وحيداً، وفهمت أنّهم جاءوا للتأكد من وليمتي، هل سأذبح الأرنب وآكله؟ مصير الأرنب المسكين كان للكلاب، كي يقتنع جاري حمّاد أنّي لا أحوي نجاسة في بيتي، قال لي بارتياح:

- لو ذبحته وأكلت منه، ما صدّقت أبداً أنّ جدك النبي يونس.

حاولت إقناع حمّاد أنّي كنت سأذبحه للكافر أسيد، لكنّه لم يقتنع، حتّى ذلك سيجعل يديّ نجستين!

وكان عليّ أن آتي ببرهان آخر ليصدّقني حمّاد ثانية.

وجاءت الفرصة تسعى على قدميها. (اسْمَدَرً) تلميذٌ هادئ خجول، وخامل. وحيدٌ لأم صبية جميلة، بيتهم على كتف الوادي من الجهة الغربية الشمالية للقرية، أمه متعلقة به إلى درجة الهوس، تأتي به صباحاً وتوصيني به، وتأتي في المساء لأخذه، وتدعوني لزيارتهم. أبوه شيخ عجوز منقطع عن النّاس، الولد غالباً ما يجلس في الصف بجسده، وأشعر به يسرح في البعيد، نظراته الزائغة تلاحق سراباً في النافذة والسقف، وقليلاً ما أراه مبتسماً يتحدّث إلى أصحابه.

لم أبذل كبير جهد لاستمالة الصبي، كنت أشعر برغبة عميقة تدفعني إلى اختراق ذلك الشتات الذي يعاني منه، استبقيته حين الانصراف، وحدّثته عن أشياء جميلة في القرية، النسيم، والطبيعة، والنّاس، لاحظت منه نفوراً أثار استغرابي وفضولي لمعرفة ما يجعل الصبي بهذه الحال العجيبة، دعوته ليحمل لي أغراضي إلى البيت، سار بمحاذاتي صامتاً، عيناه تدمعان من لسعة البرد فيمسحهما بكمه، حين وصلنا البيت دعوته للدخول بحجة أنّي أحتاجه، جلس الصبي قرب الباب على استحياء،

غامر مرتين في التطلع نحوي مستفهماً، فدخلتُ اللعبة بمزيد من الحذر:

- أهي أمك أم أباك؟ قل لا تخجل مني، نحن أصحاب.

غامر أيضاً بارتيابه في كلامي وقال بتلقائية فاجأتني:

- بل زوجتي!

هل آخذ الصبي على قدّ عقله؟ أم أتوقف عن الحوار؟ الفضول أثارني، فقلت ببساطة مغالباً شكي في عقل الولد:

- ما بها؟

اسمدرّ انحنى أرضاً ممسكاً أمعاءه، وقلّصت ملامحه موجة ألم عاتية، خيّل إليّ ذلك قبل أن أسمعه يندفع قائلاً:

- إنّي أكرهها، حوّلت حياتي إلى جحيم، تصوّر يا أستاذ، الأولاد لا يطيقون رؤيتي، لكنّي حرقت قلبها، كان انتقامي رهيباً، تركتهم دون مال ولا طعام، ورحلت، كنت أريد معاقبتها، العقاب لحق بجسدي، وبقيت هي تندبني، وتندب حظها، كثيراً ما أمرُ بالحارة وأسمعها في صمت الليل تشتمني وتشتم الساعة الّتي تزوجتني فيها. صدّقني يا أستاذ لم أقصد أن أغيب طويلاً. غادرتُ إلى اللاذقية، بقيت هناك أشهراً أعمل في الميناء، وراودتني فكرة السفر إلى بيروت بل لقد قررت فعلاً، لكنّي وجدت نفسي مقيّداً إلى هذه البقعة من الأرض، فعدت دون إرادتي. رافقني مشعل الحمدان في الطريق، هو أيضاً كان يريد السفر إلى بيروت. في ليلة وداعنا للبلد، مشينا على الكورنيش، ننبش تلك المشاعر المخبّأة في لحظة مصارحة، حكيت لحمدان عن ألمي، لا أدري ما الذي شدّني للرجل، لكن هناك قوة طاغية تملّكت جسدي وكأنّي أعرف حمدان ذاك في جيل سابق، شعرت أنّه أقرب إلى جلدي مني، افترشنا ليلتها رمال الشاطئ، ورحلت الباخرة. في الصباح استقبلنا الشروق بصدور مفتوحة وكأنّنا تخلّصنا من كابوس، وقطعنا

الجبال إلى القرية، كنا نسير بين الأحراش ليلاً ونتوقف في النهار، حمدان كان ملاحقاً من عساكر الفرنسيين، كدنا نصل القرية حين هاجمنا ضوء الشمس فاختبأنا في دغل غطّى بأشجاره وأعشابه وجودنا، كنّا ننصت للخطوات القاطعة الدرب حتّى أوشك ضجيج النهار على الرحيل. شعرت بألم حاد في قدمي أقعدني عن المسير، حاولت أن أنادي حمدان لكنّ صوتي خرس إلى الأبد. لا زلت في حيرة مما حدث ذلك المساء، لكنّ ألماً اخترق منامي لم أستطع الصحو منه، ملمس حريري لجلد ناعم كان قريباً من صدري، هنا، فحيح ينفث سائلاً لزجاً في فمي، فحيح أشعر به الآن يترك الرؤية ضبابية أمام عيني، جفاف يحرق الخضرة، فأجد الروح هائمة في صحراء عطشى، سراب يلوح، ويد حمدان تنغرز في الرمال فزّاعة طيور، لم أفتح عينيّ بعدها! قتامة سيطرت على الأشياء، وخفة طارت بي إلى باب بيتنا، حيث شُلحت في العراء، ينز الصديد من فمي، وعيون حادّة النظرات تقطّع أشلاء الجسد بشماتة!. نَعّوس زوجتي، ندبتني وانبطحت على جثتي تنادي: (يا سندي). لكنّ الانهيار الذي حدث في حياتها، ترك شرخاً عميقاً في نفسها حتّى أنّها أبعدت الرجال عن القبر ولم تتركهم يطلقون النّار لطرد الشياطين، كنت أرى نظراتها الحارقة تودّعني وهي تنذرني بنار أبدية، متمنية أن تحاصرني الشياطين في القبر حتّى يتجدد قتلي كلّ ليلة. هل أخطأتُ بحقها؟

أحياناً ألوم نفسي وأحياناً ألومها، لم تكن تطيقني، كنتُ أحاول الفرار من سجن نسَجتْهُ أرجل كلماتها العنكبوتية. هل تدرك متانة ذلك القفص الذي حبستني فيه طوال خمسة وعشرين عاماً؟ كان أقسى من كلّ سجون الدنيا الّتي تعرفت على بعضها في اللاذقية وحلب. إلى الآن يلاحقني سجنها، أراها تبرز لي من نافذة الصّف، أحياناً تدعو عليّ بالهلاك والفناء. أفكّر بالتكفير عما فعلته، لقد دفنتُ النقود في مكان

ما في جدار غرفة نومنا قبل رحيلي، قلت في نفسي سأعطيها إياها عند عودتي، لكنّي عدت جثة هامدة، وما زالت لعناتها ونظرات أولادي الحاقدة تجلدني في رواحي ومجيئي حتّى كرهت نفسي.

حين انتهى اسْمَدَرْ من رواية حكايته، تبخر من أمامي كغيمة صيف عابرة، غادر مخلّفاً نظرات خائفة وذهول أربكني، ما الذي يحدث؟ لم أحاول فهم ما يحدث، قلت هي خيالات طفل ربّما يكون موهوباً أو سمع الحكاية من أمه في إحدى ليالي الشتاء فاعتقد أنّه بطلها! لا بدّ أن يكون الأمر كذلك، وإلا كيف لطفل أن يعرف تلك التفاصيل عن المدن والدروب الّتي سار فيها بطل الرواية؟ صعقتني فكرة عبرت كالبرق في دماغي. المال! هل أجرّب اسْمَدَرّ لأعرف الحقيقة؟

شغلتني الدراسة بعد ذلك فكدت أنسى أمره رغم ما أحاط بي من هذيان الفتى، مشاهد تصلح لكتابة جديدة تدخل تفاصيل روايتي الّتي أنوي العودة إليها ولا أجد وقتاً أمنحه لها!

غاب اسْمَدَرّ هذا اليوم عن المدرسة، وقال لي التلاميذ إنّه يعاني من الحمى ولا يستطيع مغادرة الفراش. أكثر بيوت القرية بدون مراحيض، يتغوطون في الحواكير، خرج اسْمَدَر ليقضي حاجته ولم يعد. جرح صمت الليل وسكونه طرقٌ عنيف على بابي، وصوت الشيخ حمود يناديني متضرعاً:

- افتح يا أستاذ، القضية خطيرة.

كان الشيخ حمود يحمل قنديلاً، ووراءه أشباحٌ لم أتبين ملامحها، صدمتني همهماتها، ولغطها، فهمت أنّ القوم يريدون أن أعرف لهم أين ذهب اسْمَدَر، فقد فتشوا الحواكير والقرية بيتاً، بيتاً ولم يعثروا عليه. ببرود صرفت القوم وطلبت إليهم العودة بعد نصف ساعة لأقول لهم أين هو. أطفأت القنديل، وجلست في العتمة ليقيني أنّ القوم لم يبتعدوا وأنّهم ينتظرون ردي. فكّرت في الأمر ملياً. الولد محموم، خرج إلى

الحاكورة المجاورة، وحين نهض اختلطت عليه الجهات، فنزل الوادي، فتلقته كلاب الشيخ يوسف، موقع الشيخ يوسف على عدّة دروب، يستقبل الضيوف ليلاً ونهاراً ويؤويهم، وإذا لم يكن عنده، فحتماً سيجدونه في الحواكير المحيطة. لكن! اقتحمتني فجأة تلك القصّة الّتي رواها لي، هل يعقل أن؟ أمامي طريقان عليّ أن أغامر بسلوك أحدهما، الأسلم لي اختيار الشيخ يوسف، لكن ماذا لو؟ هل أقامر بالاختيار الثاني لأثبت لنفسي كذب ما ادّعاه الطفل؟ حسناً، ليكن، سأفعل وأنتظر النتيجة. كان الشيخ حمود يطلب من القوم التزام الصمت ويضع عينه على ثقب الباب، فصفقت بيديّ وتمتمت بكلمات مبهمة، كما كان يفعل أبي عندما يداوي أولاد الحي! أشعلت القنديل وخرجت للقوم لأقول لهم:

- اسْمَدَر عند زوجته أم علي، ربّما تجدونه في الزريبة.

تطلّع القوم ببعضهم باستغراب، هزوا رؤوسهم مكذبين، فصاح بهم الشيخ حمود ليلحقوا به.

لم أكد أفتح الباب صباحاً، حتّى فاجأني جاري حمّاد وهو ينحني على يدي يريد تقبيلها، سحبتها بسرعة، وعانقت الرجل الطيب الذي لم يعرف لشدّة فرحه ما يفعل، لقد وجدوا اسْمَدَر حيث أشرت لهم! وهذا أعاد اليقين لقلب جاري وأكدّت لحمّاد أنّي سأشفي اسْمَدَر دون طبيب! وقد فعلت ذلك ببعض الأعشاب وخبرتي في التعقيم، أمه كانت تقف بين يديّ بخشوع وأنا أقرأ على رأسه سوراً من القرآن وأنفخ في وجهه. كتبتُ له حجاباً وأفهمته ماذا عليه أن يفعل. كنت على يقين من شفائه خلال أيام فقد تجاوز مرحلة الخطر. بعد يومين عاد إلى المدرسة، وصار يرافقني كظلي، وأمه تأتيني بالبيض والزبدة واللبن، وتحاول تقبيل يدي في كلّ مرّة! بعد شفائه لم أكن بحاجة إلى براهين أخرى بأنّي من أحفاد النبي يونس! لكنّي كنت بحاجة إلى يقين آخر،

من أين علم الصبي بكلّ تلك التفاصيل؟ كيف استطاع تحديد المكان الذي وضع فيه المرحوم "أبو علي" المال؟ ما زال منظر أم علي وهي تقبّل رأس الصبي مرتعشة، وتنحني داعية إياه لدخول بيته، يشوّش دماغي، فتختلط الأشياء ببعضها، حتّى أولاد أبو علي الشباب قبّلوا يد الولد ودعوه بلفظ - أبي - وأمه تحاول انتزاعه من بين أيديهم كما انتزعته من أحضان الدجاجات والغنم في الزريبة (المكان الذي يلجأ إليه "أبو علي" للنوم حين يتشاجر مع زوجته الّتي ترمي له فراشه خارجاً وتغلق الباب!).

لم أفهم عبارة ترددت كثيراً ذلك اليوم (عادت الّتي تكسر الظهر). وعندما سألت أسيد، ابتسم متلعثماً:

- ستراها هذا المساء.

لكنّي لاحظت في لهجته شيئاً غريباً وفي ابتسامته تصنعاً، وعيت في المساء أنّه يعشق تلك الّتي تكسر الظهر. دخلت علينا سعاد ابنة حمّاد، فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها، نحيلة، متوسطة القامة، تسبقها روائح العطر، وقد دهنت وجهها بأنواع غريبة من المساحيق، واكتحلت عيناها بشكل ملفت للنظر، باختصار دخلت سعاد، لكنّي لم أجد فيها سوى مساحيق وعطراً نافذ الرائحة، وقميصاً غالي الثمن يشفّ عن تفاصيل الجسد، بقدميها حذاء مفتوح ملوّن ومقصب. غمزتني أمها:

- ألم ينكسر ظهرك؟

هززت رأسي مجاملاً، أثارت سعاد نفوري حين التصقت بي بدلال وأمها تروي لي حكايتها مع زوجها الأوّل، الزوج الغليظ الفظ الذي عاملها بقسوة فكرهت حياتها معه، وسعاد تناولني قطع البسكويت مع القهوة وتحدّق في بدلال. وأسيد يغص بريقه ويشرق، فتجحظ عيناه

وهـو يحـدّق فيها ويلعـق شـفتيه. تملّصت بلطـف منـها محـاولاً إفسـاح المجال لأسيد، لكنّها تعلّقت بذراعي وهـي تقول:

- بكير، اسهر معنا.

وعقّبت أمها:

- ما عجبتك سعاد؟ أي بذمتي وديانتي أنت ما بتفهم بالنسوان.

أسـيد كـان يـأكلني بنظراتـه، ويرتجـف فنجـان القهـوة في يـده، فانسحبت معتذراً بحجة الدراسة.

وجدت صلاح الإبراهيم ينتظرنـي أمام باب غـرفتي، صـلاح شـابٌ طويل ممتلئ الجسم، مستدير الوجه، واسـع العينيين، مهيب الطلعة، عريض المنكبين، يرتدي بنطالاً وقميصاً عكس اللباس الشعبي لأهـل القرية، في الخامسة والعشرين من عمره، لا عمل لـه سوى الدوران في القرية، يتجول بين الأزقـة، وأزقـة القـرى المجاورة، يستمع إلى قصص الفتيات، هوايته الوحيدة رواية تلك القصص، والحديث عن مشاكل الحب والزواج بعد أن طلّقته زوجته، ومع كلّ ما تبديه الفتيات نحوه من تعاطف إلاّ أنّهن يرفضنه، فشله في الزواج أقام بينه وبين الجنس الآخر أسلاكاً شائكة لم يستطع عبورها إلى قلب فتاة بعد قصّته المحبطة مع حفيظة.

صلاح لطيف طيب القلب، فقير لا يملك ثمن باكيت الدخان، أينما حلّ يكون ضيفاً خفيفاً، وهو يعـرف دروب المنطقـة ومسالكها، وزعماء القرى المجاورة، يصادق المشايخ والمعلّمين، قريب إلى نفسي جداً، منذ تعارفنا. قبل أن يسلّم عليّ قال:

- أعجبتك سعاد؟ هي جميلة، لكن حفيظة أجمل منها، ما عزمتك حفيظة؟

لم أرغب في خوض الحديث الذي أراد جرّي إليه، حفيظة وجهت لي الدعوة أكثر من مرّة مع ابن أخيها، تلميذي الهادئ الخجول، واليوم

أرسلت لي قنينة عطر، لم أخبر صلاح بذلك، كنت أعرف أيّ جرح تركته حفيظة في نفسه، وأعلم كم من التعاسة يجترّها هذا الشاب الراغب دائماً في حديث الآخرين عنها، ربّما يستعذب تعذيب نفسه بسيرتها على لسان رجل آخر! انشغالي بالمرض والدراسة جعلاني أتلهى عن دعوة حفيظة، لكنّها لم تيأس، أرسلت لي مرّة أخرى مع ابن أخيها، قال بتهذيب شديد:

- عمتي حفيظة تدعوك للعشاء عندنا.

عاد إلى مقعده والخجل يغرق أذنيه بلون قانٍ، نظافته وترتيبه كانا يلفتان نظري دائماً، وتصورت أنّ بيتهم لا بدّ أن يختلف عن باقي بيوت القرية، وعمته....! توقفت رافضاً التفكير في دعوتها، لكنّ صلاح حرّضني اليوم على زيارتها، أفاض بالحديث عن حسنها وتسلطها، أفاض بالحديث عن جاذبيتها، لماذا يفعل صلاح ذلك؟

تغلّب صلاح عليّ أم هي رغبةٌ كامنة أيقظها حديثه؟ وجدت نفسي أرافق تلميذي إلى بيتهم مساء. ابتعدنا عن القرية مسافة تتجاوز الكيلو مترين باتجاه الشرق، ووصلنا رابية عالية، فوقها بناءٌ حديث من الحجر والاسمنت، محاطٌ بحاكورة لا تزيد مساحتها على الدونم، فيها أشجار تفاح ورمان وعنب، وبينها شجيرات تبغ. دخلنا غرفة مربعة الشكل، لها نوافذ تطل على الحديقة، مفروشة بالبسط واللباد. رحّب بي شابٌ متوسط القامة حسن الهندام، أعدّ لي مجلساً مريحاً واختفى.

لم تكن حفيظة على ذلك القدر من الجمال الذي سمعت عنه قبل أن أراها، لكن فيها شيئاً مميزاً لا يدرك في اللحظة الأولى، أهو ذاك العمق في الصوت؟ أم تلك النظرة الّتي تزرع التوتر في النفس؟ لم أستطع تحديد سبب انجذابي إليها، ربّما تكون صورة الحكاية لا الواقع. لم تكن قامتها طويلة يترنح شعر مجدول في حجرها كسعدا، ولم يكن في العينين ذلك الألق الذي لاحقني في عيني خرما زمناً يكاد

يعادل ما عشته وما سأعيشه! أطالت الجلوس وهي تلحّ عليّ في الأكل، ولا تصدق أنّي شبعت. ومرّ الوقت، لمّت زوجة شقيقها المائدة وذهبت إلى شأنها مع الأولاد، توغلت العتمة في الدروب، ولم يعد بإمكاني العودة وحيداً، فرشت حفيظة لي فرشتين فوق بعضهما، ونضدت عليهما وسائد مطرّزة، وأتت بالعرق والتفاح والمكسرات. ارتجف شيء في القلب للحظات وخمد. وما كاد شقيقها يرتشف بعض كأسه وهو يدعوني للشرب حتّى نادته زوجته ليفصل بين الأولاد، فاعتذر ومضى. جلست حفيظة بقامتها الممتلئة على حافة الفراش وناولتني كأساً، لم تفلح محاولاتي في التملّص فقد دفعته حفيظة في فمي كأنّها تسقي طفلاً صغيراً جرعة دواء. شعرت أنّ الغرفة تدور بي بعد وقت لم أعرفه، وسمعت أصواتاً غاضبةً تصرخ بي أن أخرج، ورجال القرية مجتمعون لقتلي، وذئاب تعوي في الخارج، اصطكت أسناني، وارتجف جسدي، ووجدت رأسي بين نهديها وهي تهزني متسائلة: ما بك؟ كانت حفيظة تضحك، جسدها يرتج، عيناها تقطران شهوة، فتحت لي حفيظة باب الجنة لأعبر إلى دنيا الرعشة بيدين دافئتين تغلان عميقاً، تفكّان أسواراً وتعبران. لكنّ البرد المقيم في عظامي لم يرشح سوى مرارة وطعم مالح ترسّب في حلقي. الجفاف الذي شعرت به لم يستطع الماء إزاحته، تمدد حتّى جلدي المقشعر، وانزاح إلى عينيّ اللتين رأتا أهل القرية يهاجموننا، تلمّست جسدي لأتأكد من حقيقة ما حدث، رفعت رأسي مبتعداً عن حصارها:

- ألا تسمعين؟

ردت ببرود:

- لقد سكرت يا عزيزي، إنّها الريح.

جاءتني بماء ساخن ودلّكت قدميّ ووجهي، وصنعت لي قهوة. لكنّ الصحو غادرني تاركاً الأبواب مشرعة لخواء رهيب بقي جاثماً على

روحي زمناً، اجتثت حفيظة بخبرتها مخاوفي، وأرسلت في عروقي لهيباً أحرق المسافات بيني وبين ترددي فاندفعتُ إلى بحرها عارياً أخوض في موجه المتعب، وأستسلم لعواصفه تاركاً قاربي يجوب الجزر النائية دون توقف.

لم يعد بي رغبة في مغادرة غرفتي رغم إلحاح صلاح و أسيد اللذين أجبراني هذه الليلة على مجاراتهما في السهر على سطح البيت. تدثرتُ بمعطف ثقيل تحته قَبَعَتْ كلّ ملابسي الشتوية، وتحصّنتُ بوشاح صوفي لففتُ به رأسي خوفاً من نزلة برد جديدة، فلم يكن الإسهال يفارقني، ولم تكن أمعائي تهدأ يوماً إلاّ لتعيد سيرة الألم من جديد فتطحن جسدي بتقلصات رهيبة تقعدني عن الحركة. استعرت النّار، وتصاعد اللهب نحو السماء، وراح أسيد يرمي إليها بالمزيد، ويدور حولها في رقص أشبه ما يكون بترنح سكران، فقد أفرغ كأسه دفعة واحدة في جوفه، وراح يصرخ بصوت عال:

- إليّ بها فهي جنة الله على الأرض.

كانت القرية تشتعل بأجواء عيدها الخاص، عيد القوزلي، النّاس على الأسطح وفي الساحات، يرقصون طاردين الشياطين، ونحن طردنا شياطيننا كلٌ على طريقته، أسيد بمزيد من العرق، وأنا بمزيد من الغرق. فكّرت بالذهاب إلى حفيظة، ثمّ غيّرت رأيي. البرد وإحساسي المفجع بالوحدة والفراغ، وعدم رغبتي في مشاركة أحد بما أحس، دفعاني إلى الفراش، قضيت بعد منتصف الليل إلى ساعات الفجر الأولى وأنا أسمع الضحكات تنبعث من الجدران، وألسنة تمتد عابثة بأعصابي، لقد تكاثرت الشياطين حتّى ملأت الغرفة، وسارت جيوشاً دقيقة الأحجام متراصة الصفوف، يشتد سوادها وغموضها كلّما اقتربتْ من فراشي. تقلّبتُ على الفراش محاولاً النوم، لم أستطع، اقتحمتني الساعات الأولى من السنة الجديدة كإعصار، لفّت بي

الأرض، الجدران، ووجدت نفسي أحبو على شاطئ بعيد وسط عاصفة يرتفع فيها الموج ليغمرني، أغرق بكلّ عجزي ولا أرفع يداً أدفع بها قدري. ربّما كان الوقت ظهراً حين استيقظت مبللاً بالعرق والغرفة الدافئة تشع بابتسامة صلاح وجاري حمّاد، الذي اندفع إليّ بلهفة قائلاً:

ـ الحمد لله على سلامتك، كنت تهلوس، وجسدك مثل النّار.

أحضر لي صلاح كأس بابونج ساخن، أخذت جرعة ومسحت عرقاً بارداً تصبب من جبيني وأنا ابتسم:

ـ إذاً فقد قزلت[8]❖ في جسدي.

ـ بعيد الشر عنك أستاذ، إنّه البرد، أنت غير معتاد على جو قريتنا، الحق عليّ لو عرفت لمنعتك من الاشتراك بالعيد.

العيد والبرد! وربّما الشيطان الذي يخشاه أهل القرية فيوقدون له النّار ويرقصون حولها في رأس السنة ليطردوه إلى غير رجعة، الشيطان الذي يطلقون عليه الرصاص وهم ينزلون الميت إلى القبر خشية أنْ يلحق به هناك! إنّه شيطاني الذي تشظى آلافاً وزحف إلى فراشي على شكل نمل أسود، قرض اللحاف وتغلغل في الملابس، وسار على جلدي المقشعر، ورفع جفن العين لأحدّق جيداً في قادم مجهول. كنت أهذي ـ قال صلاح ـ باسم غريب لم يستطع أن يفهمه، هل كنت أناديها؟صلاح قال لي جازماً: ليست واحدة من بنات القرية. هل...؟

الأيام تكرّ هاربة من أعمارنا، تنسينا ما كان، وتغمسنا في التفاصيل الصغيرة للحياة، صلاح زارني هذا الصباح الربيعي وسألني أن نزور الشيخ عبد اللطيف، فالجو جميل قد يزيح عن صدري بعض الرتابة والقلق. وافقت دون تردد. (لقد سمعت من النّاس أنّ المشيخة

---

[8]- قزلت : اشتعلت .

وراثية، والشيخ لا يعطي سرّه إلاّ لواحد من أبنائه وهو كبير المشايخ، والشيخ عبد اللطيف وارث أبيه يقيم قرب مقامه، حول المقام آلاف من صحون الفخار مكدّسة لإطعام الزوار في المناسبات، والنّاس تدفع له عشر الغلة أو عشر الأجر الذي يتقاضونه من عملهم، حتّى اللواتي يعملن في لبنان يدفعن عشر دخلهن للشيخ، فإذا ادّعيتُ القرابة والولاية ـ كما نصحني أسيد ـ فمعنى ذلك أنّي سأتولى مسؤولية الرعية، أصوم عنهم، وأصلي عنهم، وعليّ حينها أن أقيم الولائم وأطعم الفقراء وأُؤوي عابري السبيل.)

مررنا بدكان اسكندر لنأخذ بعض العرق، فطلب مرافقتنا. سلكنا دروباً متعرجة ضيّقة ومليئة بالحجارة، يتقدّمنا صلاح، حتّى وصلنا أخدوداً عميقاً، شُقّت الأرض عنه كأنّه قُدّ بحد سيف كُليب ابن وائل، تأملتُ نهايته السحيقة ملياً، العيون تدمع من جانبيه، فتشكّل ساقية صافية تجري في بطنه، أخبرني صلاح أنّ على جانبيه العلويين يسكن النحل الذي هرب من سليمان، ويسيل العسل إلى أسفل الأخدود، وعلينا أن نسير مسافة طويلة لنتمكن من دخوله. مكث اسكندر فوق صخرة عالية، وتابعت السير مع صلاح. وصلنا نهاية الأخدود ودخلنا من فمه الغربي بين جدارين مستقيمين صخريين تعلّقت عليهما شجيرات وأعشاب وبرز من أنيابها على مسافات مختلفة ثقوب صغيرة يسيل منها الماء. على علو شاهق بنت العصافير أعشاشها، وفي الجحور سكنت الحيّات والسحالي. حجبت أسراب النحل في الأعلى وجه الشمس حيث وصلنا، استنشقتُ روائح مسكرة بعمق، وأغمضت عينيّ على همهمات وأصوات تنبعث من مكان مجهول. وقع خطوات صلاح أمامي يرجع صداها عميقاً يطرق أذني مع صوته الضخم وهو يهمس لي طالباً علبة السجائر ليملأها بالعسل:

ـ لا تقترب، النحل شرس إن شمّ رائحتك أهلكنا.

زحف صلاح مبتعداً وساد صمت يقطعه دوي النحل، كنت أثناء ذلك أحبس أنفاسي، صدري يغصّ بخفقاته السريعة، يعلو ويهبط باضطراد، وصلاح يزحف كحية ملساء، يحتضن جلده الحصى والتربة، يتمدد ويتقلص ويسري وكأنّه حرباء تكتسب لون الصخر والعشب ورائحة المكان، كنت أراه ولا أسمع صوتاً لجسده الزاحف ولا أنفاساً تتردد في صدره، خيّل إليّ للحظات أنّه كائن خرافي يمتزج بهذه الطبيعة الساحرة، فيغدو جزءاً من هذه البقعة الغامضة من الجنة الموعودة، عاد بعد دقائق بعلبة مليئة بعسل لم أذق في حياتي أطيب منه، لاحظت ابتسامته الودودة وأنفاسه اللاهثة، وشممت رائحة طيب، قلت باستغراب:

- لقد أدهشتني، أشعر أنّك لا تشبه البشر!

لم أعرف حينها أنّ لصلاح رائحة لا يكتشفها النحل رغم حساسيته للبشر، أكان صلاح من جند سليمان؟

ابتسم ثانية، ولم يعقب. قال اسكندر:

- عندما كنّا صغاراً كنّا نأتي في أيام محددة من أيام الربيع، يكون النحل فيها مشغولاً، نملأ الأواني الفخارية ونعود، الآن قلّت الكمية.

وصلنا قمة جبل عالية، بُني فوقها بيتٌ من الحجارة البيضاء، وسط صخرة سمراء مصقولة مساحتها أربعة أو خمسة كيلو مترات مربعة، رددتْ صدى أقدامنا، وشعرت والبحر يستقبلني من الغرب أنّي أسير فوق الماء، السفن ومراكب الصيادين، وأنا أطفو في حلم جميل، قلت لصلاح:

- هذا جبل الرحمة، وهذا موسى يناجي ربّه تحت العليق.

نظر صلاح إلى البيت وشجرة العليق بجانبه، وضحك ساخراً:

- الشيخ عبد اللطيف أفضل من موسى، موسى ارتكب جريمة قتل وهرب من مصر، ثمّ عاد ليرتكب جريمة ثانية، وجمع أوباش القوم من

المجرمين المحترفين الذين سرقوا أمتعة جيرانهم من المصريين بحجة الإعارة، ورحلوا مع الذهب والفضة، أليس هذا ما تقوله توراتهم؟ الشيخ عبد اللطيف لم يقتل نملة في حياته، ولم يسرق حبة خردل.

خرج إلينا، شابٌ في منتصف العقد الثاني، متوسط القامة نحيل الجسم، حليق الذقن والشاربين، شاحب الوجه، حاجباه الرفيعان يعتليان عينين خاشعتين وأنف دقيق وفم صغير، على رأسه حطّة بيضاء، يرتدي قنبازاً من الحرير المخطط بدروب بيضاء لامعة. تبعته زوجته، تشبهه في كلّ شيء، القامة واستدارة الوجه وبياضه والنحول، شعرها أجعد، وملامح الإرهاق بادية عليها. ابتسم الشيخ مرحّباً بنا ومدّ يده ليصافحني مردداً اسمي، فقد سبقتني شهرتي إليه:

- أنت جدك النبي يونس.

قلت ضاحكاً:

- وأنت جدك جعفر الطيّار لذا عرفتني فوراً.

سلّمت زوجته هاجر علينا بعد أن طلب الشيخ منها ذلك قائلاً:

- سلّمي على الأستاذ يا هاجر، عمر رضي الله عنه صافح النساء، وأسرعي بإحضار خروف من الزريبة.

جاءت هاجر بكبش وبيدها سكين كبيرة، سارع الشيخ عبد اللطيف لذبحه وأعطى السكين لصلاح ليكمل الباقي. دخلنا غرفة طويلة وجلسنا إلى طاولة من الخشب، حولها عشرون كرسيّاً من القش، جاءنا الشيخ ببعض الفاكهة والمكسرات والقهوة وجلس يحدّثنا عن عظمة الله وأسمائه الحسنى ومقدرته، وتحاشى الحديث عن أهل السنة، وسأله اسكندر:

- يا شيخي إنّي أكره أن أعود حيّة رقطاء أو قطّة أو حماراً.

ضحك الشيخ عبد اللطيف وقال:

- يحشر المرء مع من أحب، ولكم أعمالكم.

سأله اسكندر عن كيفية الحشر فأجابه الشيخ بأنّ الأرواح تتجمع لتعود إلى أجسادها السابقة، فحاول اسكندر أن يسخر قائلاً:

- تأتي من الجب كما يقول أهل السنة.

قلت مقاطعاً اسكندر:

- يسألونك عن الروح، فماذا تقول يا شيخ، اسكندر رجل جاهل؟

قال الشيخ عبد اللطيف:

- بل (علمها عند ربي).

استأذن اسكندر وصلاح الشيخ في شرب العرق فأذن لهما ولي، فلم أفعل، وأخبرت الشيخ عبد اللطيف أنّي لا أشربها إلا تقية وأنا أكرهها أصلاً. وأحضرت لنا هاجر الطبيخ وجاءت بصحون اللبن الرائب وجلست بجانب الشيخ الذي راح يقسّم لنا اللحم بيديه ويلح علينا بالطعام، وعن قصد أشرت إشارة عابرة إلى أنّ لحم "الفطيمة" ألذ وأطرى وأنا أرمق وجه صلاح الذي امتقع لونه وكاد يتقيأ، لكنّ الشيخ عبد اللطيف قال بحياد:

- لكلّ ملة ذائقتها، فهل تستطيع أن تشارك أسيد في أكل خنزير مشوي؟

شاركتنا هاجر الطعام والنقاش، ووالله وجدتها عالمة بالدين مثل زوجها واستغربت ذلك، فقد قال لي مدير ناحية القرداحة يوماً إ نّ المرأة في هذه المناطق لا دين لها! مع هذا شعرت وكأنّ الشيخ عبد اللطيف جاملني بأقواله، لكنّ الله أعلم بالنوايا! فهل للجبال علاقة بذلك؟ خطر لي أنّ الإسلام دين صحراوي تعرّض أثناء صعوده هذه الدروب الجبلية الوعرة إلى قرصنة من نوع ما، فسقطت منه أشياء وتبدلت أشياء، كالحكايات تنفث فيها ريح الناقل أنغاماً قد لا تطرب السامع فيبدّل فيها ما يبدو له أصوب وأجمل!

لم نكد نصل القرية حتّى جاءني أسيد لاهثاً. أخبرني أنّ جرجس قال له: (إنّ تقاريراً وصلت التربية بحقنا تقول إنّنا ضد الوحدة.) هوّنت على أسيد الأمر فقد أقرّ سابقاً في المباحث أنّه انسحب من الحزب الشيوعي، وأنا أيضاً انسحبت من حزب البعث، وليس هناك دليل يثبت أنّنا نمارس أيّ نشاط، واقترحت على أسيد أن نحتفل في الرابع من نيسان ـ على التوقيت الشرقي ـ مع أهل القرية بعيد النيروز الذي يصادف توقيته السابع عشر من نيسان عيد الجلاء.

أقمنا الزينات وهيّأت لنا أمهات التلاميذ الطعام، وأعددنا طاولة كبيرة من ألواح الدف، في الساحة أمام المدرسة، وجئنا بالطبل والزمر، وعلّمنا التلاميذ هتافات تشيد بالوحدة وبعبد الناصر، وتواردت الصبايا من القرى المجاورة وكلّ واحدة تتحدى الأخرى بالدبكة والرقص. رؤوس تتمايل، ونهود تتحدى، وأرجل تطرق الأرض فتهزها. وجاء مدير ناحية الشرقية ومدير منطقة جبلة. فاستقبلناه بالطبل والزمر، وصدحت حناجر الصبايا بأغنية نجاح سلام (بدي عريس أسمر عربي، شرط من المتحدة طلبي، بدي خدوده تفاح شامي، وبدي شفايفو فستق حلبي، يا مين يلبي لي طلبي). الصبايا يردنه أسمر عربي، والتلاميذ بُحّتْ حناجرهم وهم يصرخون، الله الناصر ينصر ناصر، وبالروح بالدم نفديك يا ناصر، وكلّ ذلك لم يعجب المدعوين فاعتذروا عن الغداء، لم نفطن إلى أمر بغاية الأهمية كان يجب أن نذبح خروفاً ونعمل غداء مستقلاً لمدير المنطقة ورجاله!

حمّاد على بساطته قال لي:

ـ السلطان بدو يأخذنا لمصر وهذا ما رح يكون أبداً.

جاري حمّاد البسيط وضع يده على جرح تاريخي دون أن يدري، فقد عمل الآشوريون في أحد عهودهم على نقل سكان البلاد الأصلية إلى بلاد بعيدة للقضاء على روح الثورة لديهم بدمجهم في السكان

الأصليين لتلك المناطق! وقد رفض الأهالي أخذ الطحين الذي أرسله عبد الناصر، كانوا يعتقدون أنّه سيأخذهم إلى الجزيرة ويأتي بسكان من مصر إلى قريتهم! حاولت إقناع حمّاد أنّ الطحين هدية من الشعب الأمريكي، لكنّه بقي على عناده وتمسك برفض الهدية.

اقترب موعد الامتحان، وحاصرني الضيق والقلق فلم أكن على استعداد جيد لمواجهته، لا أعرف شيئاً عن المقررات الّتي كانت تتبدل بسرعة. واتفقت مع أسيد أن يداوم أسبوعاً وأهرب أنا، والأسبوع الذي يليه نتبادل الدور، وإذا جاء التفتيش يرفع الموجود منا كتاباً إلى التربية يطلب إذناً بإحالة زميله إلى الطبيب.

ضجر بعض الأهالي من تغيبنا عن المدرسة، فأخبروا المفتش بذلك، وجاء جرجس، ولم أكن موجوداً، ولم يرفع أسيد كتاباً بإحالتي إلى الطبيب! حين عاتبته ارتبك وحاول التماس العذر لنفسه بالمباغتة من قبل جرجس، لكنّ كلامه لم يقنعني. وقررت إيقاف حالة الشتات تلك بترك القرية، وطلب النقل إلى درعا، فلم يكن بالإمكان أن أصل دمشق لأنّها محتلة من المحاسيب وأصحاب الوساطات، وحاول صلاح ثني عن قراري بتصوير حال القرية الّتي سأنقل إليها بأنّها أسوأ من كلّ الأماكن الّتي درّست بها سابقاً، وتزيين ماضيّ الجميل هنا، ولما لم يجد لكلامه صدى في نفسي اختنقت العبرة في عينه فأدار وجهه إلى الجدار متشاغلاً بإعداد الشاي.

رافقني صلاح إلى جبلة وبقي واقفاً على الرصيف والسيّارة تمضي باتجاه اللاذقية، وهو يلوّح بيده ويمسح بالأخرى دمعاً لم يصمد في المقلة. أين أنت الآن يا صلاح؟

❖❖❖

قررت أخيراً أن أترك الرواية والقصة وأسلخ الشعر من وجودي لأتجه إلى الكتابة في السياسة، وكانت الأحداث الّتي تأخذني في تيارها، وترميني إلى جزر نائية، تمرّغني بين مد وجزر، فأشعر بالاختناق، وأصارع للبقاء على الشاطئ (عبد الناصر نموذجاً)، هذا ما أردت الكتابة عنه في معرض كتاب عن الاشتراكية العربية الحديثة، قدّمت للكتاب بالحديث عن الثورات الاشتراكية عند العرب في القديم، مرورا بالمماليك، وصولاً إلى عصرنا، واحترت في هذه الاشتراكية الّتي تعصرني، أهي اشتراكية مماليك أم صعاليك؟ احتجت معلومات دقيقة عن حياة عبد الناصر فأرسلت له أطلب ما أحتاجه. تأخر الرد، فيما بعد علمت أنّ مدير المباحث في المحافظة أعاد الظرف إلى مصدره بحجة عدم معرفة العنوان! هاشم كان أول مستاء من فكرتي:

- هل أصبحت ناصرياً؟ آخر ما كنتُ أتوقعه منك.

هل أملك جواباً مقنعاً أرد به على استغراب صديقي؟ هل أعتذر بأنّ الأمواج رمت بي آخر المطاف على ضفة الإيمان باشتراكية عبد الناصر؟ لم يكن هاشم من يجب إقناعه، بل نفسي، يجب أن أقتنع أنا أولاً بما أقوم به، علّلت الأمر بأنّي سأنتقد في كتابي سياسة عبد الناصر وحكمه الديكتاتوري، لكنّ ضعفاً غريباً تسرب إلى حججي الّتي اعتقدتها منطقية ودامغة. هل وقعتُ في المصيدة؟ رمى لي هاشم سؤالاً ساخراً:

- كم من الكتب والبحوث بدأتَها ولم تكملها؟

كان سؤالا يحمل إجابته معه، ولا يحتاج مني إلى رد، رغم أنّي لست على يقين من الجواب، فهو تقريبي ينحصر في كلمة (كثيراً). أشعر بالملل، أدرك أنّ ما أفعله ليس صحيحاً، لكنّ الأفكار تزاحم بعضها في رأسي، تشدّني القصّة، فلا أجد في قِصَرها غايتي، أبدأ الرواية فلا

أجد في متاهتها متعتي. ما يحدث أنّي أريد كتابة أشياء كثيرة لا يتسع لها وقتي، ربّما ليس الوقت بل النفس!

نفث هاشم الدخان بحركة أغاظتني وقال مازحاً:

- ارمِ كلّ شيء وراء ظهرك، واقرأ، القراءة تحدد لك هدفك بدقة.

هل يريد هاشم تشتيتي أكثر؟ قال بجدية هذه المرّة:

- اترك نفسك على سجيتها، أكثر ما يقتل الفن التخطيط له مسبقاً، دعك من مشاريعك الفكرية، أعتقد أنّها مشاريع فاشلة، واترك نفسك تفيض على الورق بتلقائية، ارفض كلّ القوالب والقوانين، الكتابة ليست صنعة، وأنت تريدها مهنة على ما يبدو.

لم أكن أوافق هاشم فيما ذهب إليه، فهو يرى القصّة كالشعر إلهاماً محضاً، وأنا أرى أنّ عليّ التقيد بالقوانين مادمت أريد فناً يبقى على مر الزمن، ورغم تأكيد هاشم على أنّ حصر تفكيري في (كيف، ومتى وأين) سيجعلني أفشل، إلا أنّي كنت أبحث عن جدران وسقف، وطريقة بناء تعتمد على وعيي الكامل. ولم نصل - كعادتنا - إلى اتفاق!

انتشلنا حضور الأصدقاء من العوم في بحيرة الأدب الراكدة، دوائر تتبعها دوائر إلى ما لانهاية! ورمانا في بحر هائج تتلاطم أمواجه متدافعة باهتياج، تشبث بحناجرنا ليطفو على سطح نقاشنا، ودائماً نكتشف عقم ما نتحدث به! اتهمني هاشم بالازدواجية:

- أنت مع التأميم وضده! أكاد لا أفهمك.

كنت أدرك تلك الحقيقة، وأعرف أنّي ممزق بين قناعتين، لقد تعرضت نظرية الإدارة الجماعية للمعامل والمصانع إلى انتقادات شتى، وحفل التاريخ بصراعات الغرب والشرق، ذلك لم يكن قصدي، بل إبعاد الانتهازيين عن الإدارة، وحسن التخطيط للعمل، وأنا على يقين من فشل تلك الإدارات، لأنها وجدت بالوساطة لا الكفاءة، فالمعمل الذي يتسع لعشرة أشخاص يعمل فيه عشرون، وتصرف أجور مائة لا

يعملون! وتجربة المُجمّع الاستهلاكي في بلدتنا أكبر مثال على فشل النظرية، فقد كلّف البناء ملايين الليرات، وعيّن فيه عشرة موظفين ومديراً ومعاونين، وإذا جمعنا قيمة البضاعة الموجودة فإنّها لا تعادل ما يسرقه المدير ونائباه، والمدير ينتقي أفضل ما في المجمّع ليرسله لرجال المخابرات ومدير التموين، وما يتبقى لا يكفي أجرة الموظفين! ويستطيع أيّ شخص أن يرى أرباح دكان عادي فيها عاملان، فيجد أرباحهما أكبر من أرباح المجمّع. هذا ما عدا معامل الجرارات والإطارات الّتي لا تعمل! في الواقع كلّ من عمل في الإدارة عمل على تخريب الاشتراكية.

استقام مصطفى في جلسته وقال بحماس:

- لكنّها جاءت بفائدة، ألا ترى عبد الرحمن بيك يسير في الطرقات كالمجنون، نسف عبد الناصر أحلامه نسفاً بتأميم مصنعه، إنّه يشحذ اللقمة الآن.

عقّب محمد ديب:

- أي عليّ الطلاق مال الخسيس بيروح فطيس. بدو يطعمينا لحم معلب، الله نشّف لحمه.

ونفخ بقايا الدخان بلامبالاة. قال هاشم معقباً بسخرية واضحة:

- أمم عبد الناصر دكّاناً لصنع الأحذية، ومعملاً للكبريت فيه أربعة عمال مستنداً إلى تقارير المخابرات، وفتح بذلك باباً جديداً للسرقة وآوى اللصوص في المعامل، هذه قوانين الاشتراكية.

- أخطأ عبد الناصر في هذه، رغم كراهيتي لعبد الرحمن، ولكثير من المتسلقين الذين طفوا على السطح فجأة، إلا أنّي ضدّ التأميم.

محمد ديب تحفز وهو يلف خرطوم النرجيلة على عنقها:

- ما سمعتهم يقولون، إنّهم قرؤوا في الجفر عن لسان الإمام الأعظم علي بن أبي طالب أنّه قال: (سيجتمع اليهود والصليبيون في حطين، وسينتصر عليهم جمال الدين، كما انتصر صلاح الدين!).

أي عليّ الطلاق ما في غير "أبو خالد" رح يحرر القدس، ما لنا ومال التأميم؟

رفع هاشم حاجبيه الكثيفين استغراباً:

ـ ماذا تقول؟ والله لم أقرأ أنّ صلاح الدين كان جاهلياً ً! متى انتصر قل لي؟

وأعقب كلامه بضحكة جمّدت محمد ديب في مكانه. استأذنت ونهضت، كنت أشعر بتقلصات رهيبة في معدتي، وأحسّ بحاجة للدفء والانفراد بنفسي. سلكت الطريق المعتاد ناسياً أنّي غيّرته منذ زمن لأتحاشى اللقاء بسعيد. ساقتني قدماي إلى الزاوية، كما يساق محكوم بالإعدام إلى حبل المشنقة، لقائي بسعيد كان يشبه حفلات التعذيب في أقبية عبد الناصر، لذا كنت أتجنبه جهدي. بادرني بابتسامة مرّة وهو يتطلع إليّ ماطاً عنقه النحيل بصعوبة:

ـ أديب يريد أن يصبح قائداً كعبد الناصر، وأنا لا أرى عبد الناصر قائداً ناجحاً، هاهو يتخبط على جميع الأصعدة ولا يعرف الطريق الّتي توصله لبر الأمان، أمامه مشكلة القنال والوجود الإنكليزي والوضع الداخلي، الفقر والإقطاع والأحزاب.

ـ عمّا تتحدث يا سعيد؟ عبد الناصر هنا، هنا، في سوريا ..أديب طار من زمان، وعبد الناصر طيّر القوتلي.

ـ عبد الناصر يحمل عقدة الفالوجة، وأديب يحمل عقدة باخرة مردم بيك، الباخرة راحت لليهود في فلسطين.. الباخرة راحت.. يا ضياع الأيام الّتي...! الباخرة راحت، الأسلحة أطلقت للخلف، احذر يا إبراهيم، إنّهم يهجمون، احذر، انظر خلفك.. لا .. سيأخذونك غدراً، اهرب بسرعة، اهرب...

عبد الناصر ركب براق القومية العربية، هل تعتقد أنّه سيصل القدس؟ لا،لا، لن يصلها، أعتقد أنّ رجلاً مثل أكرم الحوراني هو

الأصلح للرئاسة، يجب أن يحلَّ مكان أديب، هل تعرفه؟ أنا التقيت به في الرامة، كان معه عبد السلام العجيلي، لابدّ أنّك سمعت به، فهو كاتب مثلك، كم هو جميل!

ـ العجيلي؟

ـ لا، أكرم، بسيط، ومثقف، رجل مختلف! انتبه، إنّهم يحلّقون فوقنا، انتبه، لقد ملؤوا السماء، طائراتهم تحاصرنا.

بتلقائية رفعت رأسي، فاصطدمت نظراتي بسقف الزقاق!

كان الزقاق خالياً والعتمة تهجم على النوافذ الّتي تحتال عليها بضوء قناديلها. حين ارتدت نظراتي إليه، رأيته يزحف مبتعداً ولهاثه يمتزج بصرخات تقطع نياط القلب، كلمات مبهمة وأخرى مفهومة، وصفير ينذر بغارة جوية يطلقه من حنجرة مجروحة! يعقبه سكون مريب.

وصلت دار "أبو حشيش"، احتلت على العتمة بخطوات حذرة ورميت جسدي بملابسي فوق فراش في النزع الأخير. جاءني صوت أمينة يغالب النعاس:

ـ تأخرت؟

لم أرد، اكتفيت بصمت يبلغها أنّي لا أرغب في الحديث، كان عليّ الاستيقاظ باكراً لأسافر إلى دمشق فقد بدأ الامتحان.

❖❖❖

أحكم المرض قبضته حول جسدي فكان أعنف من عبد الحميد السراج، حملت مستودع الأدوية ودخلت مشفى الجامعة. أفرغ لي صديقي الدكتور وليد سريراً في الغرفة المخصصة للطلاب، أثبت لي وليد باهتمامه الزائد وعنايته بي أنّ نظرتي لم تخب به حين التقيت به أول مرّة في الدورة التدريبية في الجيش، إنّه حقّاً ابن ناس. وجاء

الدكتور محمود سعدة بقامته الطويلة وطلعته المهيبة ليضع علمه وعقله النيّر في خدمة جسد كاد يتناثر أشلاء من شدّة الألم، اطلع على التحاليل والأشعة، وهز رأسه بارتياب، طلب إعادة كلّ شيء، لم يقتنع أنّي أعاني من قرحة في القولون والمعدة، منعني من الطعام أربعاً وعشرين ساعة. ثمّ جاءني في اليوم الثاني مبتسماً:

ـ انهض، ليس بك شيء، دود في معدتك وأمعائك، دود بالمئات بل بالآلاف!

لحقني الدود حتّى قاعة الامتحان، لم أكد أبدأ بالإجابة على الأسئلة حتّى لامست كتفي يدٌ ناعمة، تلتها ابتسامة من شاب في العشرينات وسيم مهذب، همس لي:

ـ لك برقية عاجلة، متى خرجت من الامتحان تعال إليّ في الديوان.

ظنّت زميلتي ابتسام أنّه ينقّلني إجابة سؤال، لكنّها فوجئت بما قلته لها. البرقية تستدعيني على وجه السرعة إلى كلية الضباط الاحتياط خلال أربع وعشرين ساعة وعليّ أنْ أمرّ بشعبة تجنيد أريحا!

حمدت الله في طريقي إلى كراج الانطلاق أنّ البرقية لم تحمل لي خبراً سيئاً عن الأهل، فجلّ ما كنت أخشاه أن تكون زوجتي في خطر فهي في الشهر الأخير من الحمل، وأنا أنتظر الصبي الذي سيثبت قدميّ في الحياة، وينتشلني من الصراعات الّتي تتجاذبني يميناً ويساراً، كنت أريده انتماء جديداً إلى الحياة، يجعلني أباً، قريباً من تلك المرأة الّتي أحببتها يوماً وأسرتني بمنطقها وثقافتها، وأجبرتني بتهذيبها وسلامة طويتها على الاقتران بها رغماً عن أمي، وإن شابت علاقتنا غيوم سقت أرض القطيعة الجافة وأنبتت شجاراً وخصاماً يتراوح بين القسوة واللين، ويمتدّ إلى حوارنا في السياسة، والحياة. هي متمسكة بحبها لعبد الناصر كرمز، وأنا متشبث بآرائي تجاهه، كلانا يحاول جذب الآخر إلى طرفه، أعترف أنّها أكثر ليونة، وأنّني في البعد أحمل

عقدة ذنب تجاهها ويؤنبني ضميري مذكراً بإهمالي لها بعد زواجنا بأشهر، وسفري للالتحاق بوظيفتي في (حرف المساترة) تاركاً إياها على شاطئ يرتفع المد فيه شتاء ليأكل ما تبقى من إلفة بيننا، وينحسر الجزر عن خلافات لا تحصى، لكنّنا نعود لنتصافى ونتحد في وجه أقدار مشتركة نحن وضعنا أنفسنا في مواجهتها.

البرد والجوع والعتمة اجتمعوا عليّ لبث فكرة طارئة في داخلي تحوّلت إلى قناعة راسخة عندما وصلت البيت أخبرت بها أمينة وهي تناولني كأس الشاي علّه يدفع البرد عن عظامي:

ـ لقد قررت، سأصبح ضابطاً متطوعاً في جيش الوحدة.

قالت لي بحنو:

ـ لا أعرف لم لا تتخلى عن سخريتك.

لم أكن جاداً في حياتي بقدر ما كنت في تلك اللحظة، فعلاً ملأت الفكرة نفسي، لمَ لا؟ لكنّ أحلامي بمجملها قصيرة العمر! نظر إليّ رئيس شعبة التجنيد ملياً وقال:

ـ أنا آسف جاءتني برقية معاكسة تقول: لا تدخل كلية الاحتياط إلا بأمر من قائد الجيش الأوّل. يعني وقف سوقك لأنّك غير مرغوب فيه. بصراحة أستاذ ليكن الأمر بيننا، هناك تقارير ضدك، أنت متهم بالشيوعية.

تمتمت باصقاً على النظام الذي حرمني من الامتحان. تطلّع إليّ رئيس الشعبة متسائلاً باستياء:

ـ ماذا تقول؟

قلت بحرقة:

ـ أقول: يعيش عبد الناصر، فأنا ناصري منذ اليوم.

قال بخبث:

ـ باختيارك؟

قلت محاولاً اغتصاب ضحكة من الحنجرة:

ـ بل بالْجِزَم، على حدّ تعبير الرئيس!

حقائبه امتلأت بالمرارة! كثيرا ما أعتقد أنّ ريح الشمال الّتي خلّفها وراءه ملتمساً الجنوب، كانت السبب في تلك الأزمات المتلاحقة الّتي عبرت أفق العمر تاركة وراءها جروحاً غائرة لا يمكن لذاك الحب الباهت أن يسدّ نزفها. للوهلة الأولى اعتقد أنّ بوّابة الجنوب ستفتح ذراعيها لاحتضان أحلامه، وستحوّلها إلى حقائق ملموسة، فيقهر فقره وغربته، ويتجاوز عجزه الذي تركه في قفر الشمال!

نهشته أنياب الأهواء المتضاربة، ومضغت قلبه بقسوة، أحسّ أنّ شرنقة وجودها تحاصر روحه، تضغط بعنف، فتح فمه تلقائياً وضغط صدره، وانفلت خارجاً من غرفته طالباً الهواء النقي في ليلة مقمرة.

تطلّع حوله بعد ارتخاء أطرافه المتشنجة، ماذا سيفعل؟

يريد أن يمزق ذلك الغلاف الرقيق، وينطلق طائراً في فضاء تسبح فيه غزالة. . وردة. . أم تراها تمام؟

بحياد همس لنفسه: (لا يمكن لك أن تحب ذلك الحب الجارف النقي، مادام الحلم المسيطر على روحك يشعرك ببرودة الدم في أطرافك فينتابك الحياد والملل بعد انطفاء الإشعاع الغامر للحب الجديد!).

للحظات سيطرت عليه فكرة خبيثة (كيف سيتخلص من أمينة؟) سيغتالها بحبه لوردة، أم سيتحقق حلمه بامتلاكه أجنحة ليطير بعيداً عن واقعه؟

الحجارة السوداء

حقيبة سفر صفراء منتفخة بالوهم والآمال وبعض الكتب، وجسد يبحث عن مكان يفرغ فيه أوجاع الروح!

المسافة الطويلة من اللاذقية إلى دمشق أرجحتني بين يقين النوم وشك الصحو! عند وصولي دمشق أيقنت أنّ النوم هو المنقذ من تقلبات الصحو الذي صدمني بمنظره القذر في سوق الدجاج والزبالة خلف ساحة المرجة. كان لا بدّ لي من إغماض عينيّ لأرى حقائق أخرى أرساها تاريخ ليس ببعيد في هذه الساحة، لكنّ الحقيقة الوحيدة أصرّت على فتح عينيّ على منظر الأمعاء المكوّمة في واجهة الملحمة، ولم أستطع منع الرائحة من اختراق جسدي فانتفض تقززاً. هل كان وصولي إلى فندق الوردات الثلاث منقذاً؟ تصورت ذلك للحظات، حتّى ارتمى الجسد على سرير حديدي صدئ، والتحف بغطاء قذر، وابتعدت رائحة الورد والياسمين، لتترك الفرصة أمام رائحة زنخة لاحتلال أنفاسي حتّى طلع الصباح.

وجدت نفسي في محطة الحجاز أبحث عن حافلة تقلّني إلى درعا إلى أنْ داعبني صوتٌ خشن: (ناقص واحد، درعا، ناقص واحد). لم يصدق المعاون حين سألته عن الأجرة، تأملني باستغراب مستنكراً أن لا أملك أجرة الطريق! لكنّه ابتسم مفسحاً لي مكاناً قرب الشبّاك حين قلت له: (إن شاء الله ما يطوّل الناقص، وتمشي قوام).

خلّفنا جدار المدينة وراءنا، ودخلنا الغوطة، لم يكن الوصف كالنظر، سمعت وقرأت شعراً كثيراً فيها، لكنّي لم أصدق أنّ للشام جنتين عن يمين وشمال حتّى صافحتني الخضرة مرحّبة بنسيم اخترق القلب فأنعش نبضه. هبطنا وادياً صغيراً يسير من الغرب إلى الشرق،

احتضن بلدة صغيرة مكسوة بالأشجار الباسقة، حين سألت عنها قالوا لي إنّها الكسوة! وفاحت رائحة الكزبرة في مزارع ملاصقة للطريق نافستها رائحة اليانسون وغلبتها في بعض المواضع، حتّى شعرت برأسي يدور مع تسرب الرائحة المسكرة. تجاوزنا (الأعوج) الذي يسقي الغوطة القبلية، وتوقفنا قرب كازية مبنية من حجارة سوداء للتزود بالبنزين، وتابعنا السير في أرض شبه قاحلة، أراضي شاسعة كئيبة المنظر! مررنا ببيوت مبعثرة على جانبي الطريق فسألت عنها، قالوا هذه الصنمين! أثارتني العبارة فقلت ساخراً: (يكفينا صنم واحد نسبّح بحمده بكرة وأصيلا) ضحك أحد الركاب بخبث وسألني: (من وين الأستاذ؟) أجبته: (من اللاذقية) فسأل: (شامي من اللاذقية؟) استغربت السؤال، فوضّح لي أنّهم يقولون لكلّ شخص ليس حورانياً شامياً! قلت ضاحكاً: (ونحن نعتبر كلّ شخص ليس من الشام حلبياً).

أخيراً وصلنا درعا المحطة. في المحطة قطار يتعالى صفيره ذكّرني بطرفة يرويها العامة عن (ترين يمشي على الجلّة). فتشتْ عيناي المكان، فوقعت على دار الحكومة، ودار البلدية ودكاكين للمحامين وثكنة عسكرية، وإدارة جمارك، وحديقة فيها مقهى ودار للمحافظ وأخرى للمباحث، و عيادة طبيبة الأسنان إنعام المسالمة، لكنّي لم أجد مدرسة! سرت في الشارع الرئيسي الآتي من دمشق حتّى ضاق باقترابه من المخيّم وتفرّع إلى أزقة ضيّقة قذرة! عدت أدراجي إلى وسط المحطة بإحساس الغربة الّتي باغتتني فوجدت نفسي طائر سنونو أضاع سربه ووقع في شرك أسلاك شائكة. كنت أبحث بين الوجوه المغبرة الصامتة الّتي تمر بي غير عابئة بشيء عن وجه تسبقه الابتسامة لتصافحه تحيتي وسؤالي، فما وجدت غير أناس اكتست ملامحهم بصمت كئيب، يجترّون أحاسيسهم بالعزلة وسط الشارع، فبدوت بينهم كأنّي قادم من كوكب آخر!

اتجهت إلى الحديقة، جذبني منظر العرائش المتدلية على المدخل، فلم أنتبه مباشرة لتلك المظاهرة الصغيرة من الأولاد الذين تجاوز عددهم العشرين، هبوا واقفين هبة رجل واحد، ملامحهم تشترك بالبؤس والفاقة والشحوب، هلعت أوّل الأمر وأنا أرى الوجوه المصبوغة بالسواد والأوساخ، وطرقت سمعي كلمة واحدة (بويا) مترافقة مع طرق منتظم بالفرشاة على الصندوق المهترئ، كررها الأولاد وكلّ واحد منهم يود الفوز بحذائي! ابتسم داخلي ولد بائس كان يغني للوجوه السمراء المتشابهة (بدّنا الأسمر عبد الناصر). ارتفعت يدي بالتحية العسكرية دون أن أنبس بكلمة، ومضيت إلى المقهى.

جاءني النادل النحيل القصير، غلام أسمر يشبه هؤلاء الذين اصطفوا بالباب لتأدية التحية العسكرية للقادمين، وظننته سيصرخ: (بويا أستاذ، لمّع صباطك)، لكنّه سألني ماذا أشرب، أعطيته ثمن القهوة وربع ليرة له ليدلني على مبنى مديرية التربية، المفاجأة لم تكن سارة لقد كانت قريبة ولم أرها!

دخلت البناء المتواضع فأعطوني قرار التعيين (مدرسة الطائي) استبشرت، لعلّه حاتم، وأضعف الإيمان ليكن أبو تمّام! سألت عن موقع المدرسة فقيل لي: (فوق في الكرك).

كان عليّ أن أمشي مسافة كيلو متر لأصل الكرك. وصلت كتف الوادي، حيث شركة الكهرباء على يميني كما أشاروا لي، ثمّ هبطت الوادي وأخذت الطريق الجنوبي الشرقي، وتسلّقت الوادي إلى رأسه حتّى وصلت الهضبة الّتي رأيتها وأنا في المحطة. على يساري تناثرت دورٌ سوداء مغبرة كئيبة، أورثتني كآبتها فشعرت بدوار لرؤيتها. سرت خطوات غرباً في طريق ترابي قادني إلى القمة حيث امتدّ سور طيني أحمر مجبول بالتبن في طرفه الشمالي باب عريض بفردتي خشب متآكل،فتح للريح والغبار وجسدي! دلفت إلى ساحة مفروشة بالحجارة

الصغيرة والتراب، فيها أشجار توت بري ضخمة، أوراقها خشنة ترتجف عطشاً. الساحة خالية إلا من مراحيض بلا أبواب! توسط الجدار جنوباً بابٌ كبير، نقلت درجتاه خطواتي إلى قبو مظلم، على جانبيه أبواب لا تكاد تبين في العتمة. استقبلني رجل مسن مستدير الوجه، شاحب البشرة، جاحظ العينين، ثيابه عديمة اللون غامضة الشكل! ابتسم عن أسنان حفر فيها الزمن كهوفاً فبدت مبعثرة في فمه الواسع:(أمر أستاذ، أنا أبو أحمد آذن المدرسة). هل كل آذن في مدرسة اسمه أبو أحمد؟ ناولت أبا أحمد حبّة كرميلا وأخبرته أنّي الأستاذ الجديد، سار أمامي في البهو الطويل المظلم وأدخلني غرفة فيها عدد من المعلّمين، قطعوا شجارهم ملتفتين إليّ عندما قدّمني أبو أحمد متسائلين: (ما هي شهادتك؟) بدون تردد وببرود أخرجت من جيبي شهادة فقر حال ووضعتها أمامهم على الطاولة، ماذا ستكون شهادتي؟معلّم منفي من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، هل يملك إلا فقر الحال؟ صمت الجميع وهم يتطلعون إليّ باستغراب، حك أبو أحمد رأسه من تحت حطّته، ونظر إليّ المدير معتذراً:

- تفضل أستاذ، لم نقصد إزعاجك، كنّا نتشاجر على الصّفّ الأوّل، كلّ منا يرفضه، وظننا أنّك تحمل أهلية التعليم الابتدائي فقلنا نلزمك به حسب شهادتك.

علقت المرارة في حلقي، فخرجت كلماتي كئيبة لا مبالية، أعلنت أنّي سآخذ الصّفّ الأوّل، وسأناوب منذ اليوم الأوّل، كلّ تلك التفاهات لم تعد تشكّل شيئاً بجانب ريح الغربة الّتي هبّت تحمل لونها الأصفر مشبعاً بالغبار ورماد حجارة سوداء.

وبفعل المرارة فرضت نظاماً صارماً أدّبت فيه تلاميذ المدرسة بشخص أشرسهم، لم تكن ذكرى حكمت أفندي وهو يقرع الجرس النحاسي بعيدة، كانت ماثلة أمامي وأنا أفعل الشيء ذاته، حتّى جاء

مانع أفندي راكضاً ليتدارك الأمر، فأوقفته شتائمي ولا مبالاتي عند حافة الساحة، واعتذر حين رأى حدتي في القول، كانت عمّان قريبة، وكنت على استعداد تام للمقامرة بكلّ شيء مقابل إثبات وجودي في المدرسة. لم يمض سوى يوم واحد حتّى رافقني (رفعت) إلى المحطة، دليلاً على بيوتها وناسها وقادني إلى الفندق الوحيد فيها، كنت أؤمن أنّ صحبتنا لن تكون إلا بعد (قتلة) كما يقال، بعد أن أنهى عقابه وعرف حدوده أصبح ملازماً لي باستمرار. أخذني إلى درعا البلد. الجامع بساحته الواسعة لفت انتباهي إلى أنّ عدد سكان هذه المدينة كان أكثر مما هو عليه الآن، وموقعه يقول إنّه كان في وسط المدينة القديمة تحت قلعة الكرك، مع كلّ بهائه كان فقير الكساء! ومياهه شحيحة. البلدة بشكل عام أزقتها ترابية ضيّقة، ودورها مبنية بأحجار سوداء عابسة، وشارع وحيد يقطعها من الشمال إلى الجنوب، ينحني في نهايته ليلتقي بالشارع الممتد إلى الحدود الجنوبية. يفصل المحطة عن البلدة واد عريض، فيه بعض المقابر، تجري فيه مياه الأمطار شتاء، ويفيض في مواسم الخير، في حين أنّ الكرك تتصل مباشرة بالبلدة. ما أثار استغرابي أنّ الأيدي العاملة في المحطة كلّها غريبة، فسكّانها لا يتجاوز عددهم ليلاً الألفي نسمة، ويرتفع نهاراً إلى العشرة آلاف! العمل عندهم عيب ما عدا التجارة والزراعة! فمن لم يكن موظفاً أو طبيباً أو محامياً، تراه متسكعاً لا يتقن إلا شرب المتة والشاي، يسند الحائط في الأزقة، ويقضي يومه في أحاديث تافهة.

الشيء المريح الوحيد أنّ الفندق لم يكن يحمل صفات (فندق أريحا الجديد) غرفة وحيدة على السطح شبه نظيفة، لا قمل ولا براغيث، ينفتح بابها على سوق الخضار، منظر الفاكهة ينقلني إلى كروم لا حد لخضرتها، أصوات الباعة تطرق أذني بأنغامها الشاذة! ورغم إلحاح رفعت في دعوته للمبيت عندهم فضلت البقاء في الفندق.

عكس ما خططت له طالت إقامتي، ونفدت نقودي، وتأخر راتبي، واضطررت لاستدانة التموين على الدفتر!

الحذر والترقب عملتان كنت أتبادلهما مع المدير مانع أفندي والمدرسين بانتظار ما ينكشف عنه الضباب! لم أكن أرغب بمشاكسة أحد - ربّما للمرّة الأولى - فقد رغبت في إنهاء دراستي والعودة شمالاً. وكان عليّ أن أجد لي بيتاً وأحضر زوجتي، فقد مللت العيش في الفندق وسلّمه المنتصب، وضجيج السوق والوحدة، وأرهقني ثمن الأطعمة الجاهزة الغالية، واشتقت لرؤية جمال!

خليط عجيب من المشارب والانتماءات واجهني في بيت الأستاذ محمد المسالمة في أوّل دعوة أتلقاها للسهرة، بدأت ظهراً بالغداء، وانتهت ليلاً بلعب الطرنيب. المدير (مانع) كان يدّعي أنّه عربي من غسان، وحدوي اشتراكي ناصري، يكره الرجعية وأعوان الاستعمار، وهو أبخل من بني زياد، متعجرف يحاول فرض سيطرته على المعلّمين، انفرد بي بعد أيام من وصولي المدرسة، وحذّرني من المدرسين، وأوّلهم الأستاذ محمد:

- احذره فهو من الأخوان، سيجرّ رجلك، وأنت كما يبدو لي ناصري قح.

أخطأ مانع أفندي في الاثنتين، لم أكن بحاجة لتحذيراته، وقد عرفت أنّ الأستاذ محمد - منذ وطئت قدمي المدرسة، ومدّ يده السمراء القصيرة لمصافحتي، وطافت نظراته الودودة وجهي - طيب القلب، كريم النفس والمعشر، حرٌّ لا يخاف في الحق لومة لائم، وربّما هذا ما جعل مانع أفندي يكرهه ويكيد له. أمّا وائل النجار الأصفر الوجه، فقد كان انعزالياً ملحداً، يدخن عشرين سيجارة (أبو زبلة) في الساعة، يحذر الخوض في السياسة، ويحتسي الخمر حزناً على زوجة فارقته إلى آخر! باختصار كنّا شلّة من المعلّمين لا ننفصل عن بعضنا،

كلّ يوم في بيت أحدنا، نشكو همومنا، ونحكي في السياسة، وقد يشتدّ النقاش حول موقف أو قضية بين مؤيد ومعارض، حتّى يظن الضيف الجديد أنّنا سنضرب بعضنا بعد قليل، وستكون النتيجة جروحاً وكسوراً وجثثاً تنقل إلى المشافي، لكنّنا ببساطة نتحلّق حول طاولة الطرنيب ونبدأ اللعب! وغالباً ما يأتينا زوّار من خارج الشلّة، يجلسون مع المضيف يراقبون اللعب ويشجعون اللاعبين. ويتحمس فريق اللاعبين، وينشب الخلاف أظافره في الحلوق، وقد يصل حد ضرب الورق بالطاولة وانسحاب اللاعب، فنصرخ طلباً للهدوء. فيصمت الجميع ويعاودون الدور!

وكانت المباحث تدس رجالها بيننا، فإذا شكّ أحدنا بزائر، نادى بكلمة السر (كبة) ثمّ يكرر (القص موجود) إذا كان اللعب قائماً، أما إذا كنّا على الطعام فكلمة السر (الطرنيب لعبة سيئة، لنلعب الباصرة هذه الليلة). وقد انضمّ إلينا في هذه السهرة موظف في العدلية، كاتب محكمة، طويل، نحيل، كبير الرأس، بارز الوجنتين، شعره خفيف يميل إلى السواد، باهت النظرات، عرّفنا عليه معلّم الرياضه: "أبو جابر" يرافقه شخص قصير يغطي رأسه شعر كثيف أجعد، يقفز كالقردة وهو يبتسم بلطف متصنع: " مفتش الرياضة "، فرفع "عقل" المدرس الفلسطيني صوته قائلاً: (أصدقوني القول يا شباب، مع من منكم برلي الكبة؟). عقل متهم بالإخوان وقد أقلقه منظر الضيفين، فرد عليه مصطفى مدرس الرياضة: ((ما في كبة، نحن من دين إبراهيم)).

أخذنا نمازح الضيف، وكان مزاحنا مكشوفاً وقاسياً، حتّى زاغت نظراته وهو يراقب أيدينا في اللعب وألسنتنا في الكلام! التفتُ إلى محمّد قائلاً: (إذا بعث من في القبور، واستوى ربك على العرش، فمن أيّ جماعة تكون؟) فرد قائلاً: (أنا مع رضوان). ظهرت علامات الارتياح على وجه عقل وراح يحرضني على الاستمرار، فسألته: (أبو

جابر، إذا ضرط الزمان، و استدعاك عبد الناصر وعيّنك رئيساً للوزارة - لا سمح الله - فماذا تفعل بنا؟) رد ببرود: (عقل نائباً لي، وأنت للعدلية) قلت: (وإذا نسيتنا؟) قال: (أرسل لي برقية). قلت: (سأفعل، ولو أنّي متأكد أنّ الزمان لن يأتي بك لرئاسة الوزارة) قال بشماتة: (ولا بك لوزارة العدل!).

أخيراً التقيت الحاجة ندوة في طريقي إلى المدرسة، عجوز قصيرة ترتدي " الكب الحوراني"، وجهها صغير مستدير لا يكاد فمها يبين إن لم تضحك، رفعت إليّ عينين مدورتين ترشحان طيبة وحناناً، وتساءلتْ من أكون؟ أخبرتها بإيجاز أنّي أبحث عنها، فقد أخبروني أنّ عندها داراً للسكن. تبسمت الحاجة بود: (أي نعم، دار ابني المنحوس، سكن في المحطة وترك البلد). اصطحبتني الحاجة إلى الدار لتريني إياها. قطعنا الشارع الوحيد في البلدة الآتي من المحطة والذي تصطف على جانبيه السوق المحلية، في نهايته انعطفنا نحو الشرق، كانت الدار في نهاية البلد تقريباً، لكنّ موقعها مناسب جداً. لفت انتباهي باب الدار، كان كبيراً كأبواب الخانات القديمة، في إحدى فردتيه طاقة لها باب يبقى مفتوحاً ليدخل منه السكّان، سألت عنه فقال الأستاذ محمّد:(إنّ أبواب البيوت صنعت هكذا لتناسب الجمال الّتي كانت تحمل الحبوب إلى البيوت قديماً!). دخلنا فسحة سماوية أرضها ترابية قادتنا إلى البيت، أعجبتني الدار وإن كانت تحتاج لبعض الإصلاحات. وأحالتني الحاجة ندوة إلى زوجها للاتفاق معه على الأجرة والإصلاحات. في طريقي إلى الخارج رأيت الحنفية تكف فوق برميل كبير في أسفله حنفية! حاولت إغلاقه فنهتني الحاجة ندوة:(يا ابني، هذا اختراع حوراني لتوفير ثمن الماء). الحورانيون كانوا يوفرون ثمن الكهرباء بوضع مغناطيس يوقف حركة الساعة، اعتقاداً منهم أنّهم يستوفون حقوقهم من الدولة الّتي تأخذ الضرائب وترفض تقديم الخدمات لمدينتهم!

جاء أبو قاسم لعند الأستاذ محمّد. رجل طيب القلب، ملامحه تنطق بالتسامح، اتفقنا على أجرة البيت والإصلاحات، ونقلت أشيائي البسيطة إلى الدار، وأخذت شتل الورد والأشجار من حديقة شركة الكهرباء القريبة، أعطاني إياها المشرف مجاناً. صنعتُ أحواضاً حول الفسحة وغرستها بالقرنفل وفم السمكة والريحان وبعض الأشجار المثمرة، ورحت أتنفس هواء هبّ نظيفاً محمّلاً بندى الصباح لأوّل مرّة!

الحاجة ندوة جاءت بعد أيام لتطمئن عليّ وتتعرف على زوجتي، فرأت الباب مغلقاً، وضعت عينها على الثقب فرأت منظراً جعل جسدها يرتجف. كما روت لأم جمال فيما بعد عن ذلك اليوم المريع. فقد وجدتني بملابسي الداخلية أدور في الساحة راكضاً وأحرك يدي بهستيريا، فلطمت وجهها وقالت: (لقد جنّ الرجل). رآها الحاج أرشيد على تلك الحال، فوبخها لوقفتها أمام الباب، لكنّها تسمّرت مكانها وعيناها جاحظتان، حتّى رأتني خارجاً، فلمست ملابسي وهي تبسمل وتحوقل، وتنظر إلى وجهي دهشة، لم أفهم حينها سؤالها اليتيم: (إيش بيك يا بني؟ في أخبار سيئة من أهلك؟). لكنّ الموقف انجلى وزوجتي تضحك لحديث الحاجة الّتي كانت تحمل جمال بين يديها وتهدهده بحنان حين وصلتُ البيت ظهراً. قالت لي: (الحاجة رأتك وأنت تمارس رياضة الصباح بالشورت، ظنّت أنّك جننت، شرحتُ لها الأمر فحدّثتني عن رحلتها إلى دمشق، وكيف رأت طفلاً مسجوناً في جام البلور في أحد المحلات وحاولت كسر الزجاج لإنقاذه، واكتشفت حينها أنّه دمية!).

الحاجة ندوة تشبه في نحولها وقامتها وتلك الطيبة المتدفقة في أحاديثها خالتي فاطمة، كثيراً ما أراها بيننا تتحدث أو تغني للطفل كي ينام. في رحلاتي الإجبارية الممتدة من الشمال إلى الغرب إلى الجنوب، لم أر مثيلاً للحاجة بدماثتها، وطيبتها وتسامحها، ربّما تشبهها بعض

عجائز حوران، لكنّي كنت أراها نموذجاً للمرأة السورية المكافحة الّتي لا تعرف حقداً ولا ضغينة، وتتعامل مع الأشياء بالفطرة الّتي خلقت معها. وقد كانت عوناً لزوجتي في غربتها ووحدتها، ترافقها وتهوّن عليها أمور الحياة الّتي تسير نحو الأسوأ دائماً!

قدم إلى البيت للترحيب بي شيخا الصياصنة والأبازيد، الشيخ عبد العزيز والحاج أرشيد. الحاج أرشيد قصير القامة، نحيل الجسد، مستدير الوجه، يشع منه نور الرضا والتسامح، شبه أمي، يرتدي اللباس الشعبي للمنطقة، له مسجد ملاصق للدار الّتي أسكنها.

أمّا الشيخ عبد العزيز، فهو قصير، مدوّر الوجه، رزين وقور، ملمٌ بالعلوم الدنيوية، وفقيه في أمور الدين، وهو خطيب مسجد، يقطن في أعلى قمة في الكرك، في دار صغيرة تطلّ على الوادي.

وقد ابتلى الله كلا منهما، الحاج أرشيد بزوجته كونة، والشيخ عبد العزيز بابنه العاق.

حين زرت الحاج أرشيد رأيتها بباب غرفتها، امرأة طويلة ضخمة، تمشي كالجمل فيهتز جسدها وتتمايل تحت ثقل اللحم المكدس في جسدها، وجهها مستدير وشفتاها سميكتان وقد غطّى جبينها العريض حجاب الرأس الأسود المنسدل خلف ظهرها حتّى الأرض، تطلعت إليّ بعينين واسعتين، وتبسمت باستهزاء. وأومأت إليّ، فتجاهلتها. سارع الحاج أرشيد ليقول لي: (اتركها هذه امرأة مجنونة). لكنّ ابنه الهادئ حين رأى أمه الغاضبة تناديه بلقبه (الدب) قال لي: (اذهب إليها حتّى لا تبهدلك أنت أيضا). استضافتني الحاجة كونة في غرفتها المظلمة، صنعت لي القهوة في عتبة الغرفة الّتي لم أكد أتبين معالمها بسهولة، وحكت لي بحرقة عن ابنها الدب وزوجته العاقر. ابنها يرفض عرض زوجته على طبيب، وهي تنتظر حفيداً يؤنس سنين الكبر والعجز، ورغم القسوة الّتي عرفت بها هذه المرأة وسخريتها من الجميع

وخصوصاً زوجها، وسكنها لوحدها في غرفة ترفض أن يدخلها أحد أولادها أو زوجها، إلاّ أنّ داخلها يفيض طيبة، ربّما كانت تلك القسوة قشرة هشة غلّفت بها مشاعرها خلال العمر الذي مرَّ بسنابكه القاسية على جسدها وروحها. لقد عملت داية، نزل على يديها معظم أولاد المنطقة، وكانت تشتهي أن ينزل على اليدين القاسيتين الكبيرتين حفيدها، فتدق ظهره برفق، وتسمع أولى صرخاته مستقبلاً الحياة. أنهت الحاجة حديثها بابتسامة طيبة، وتابعت التدخين بشراهة عجيبة ونظراتها تسرح في نقطة شديدة الظلمة في زاوية الغرفة.

كنت أبحث عن وقت إضافي في زحمة الأيام للدراسة فلا أجده إلا ليلاً، حين تسكن الحركة، وتنام البلدة على رماد التاريخ القاطن في حجارتها، وأزقتها. وحين أفتح الكتاب، تشدني أصابعي إلى قلم مهمل وورق أبيض، فيعاودني الحلم، حلم الكتابة، فأحاول ولوج عالم الرواية الّتي أهملتها زمناً، فتهرب مني الأحداث، وتتوارى جثث شخصيات كانت حية للحظات في ذاكرتي، فأعود للبحث داخل النفس الحيرى عن هدف ينقذني من شتات الروح، فأفتح صفحات كتاب كنت أنوي إكماله، فيتسرب الوقت معلناً صباح عمل لا ينتهي ودوامة جديدة.

ذاك الكتاب (فرعون الصغير) هاجسي الذي مَلك الحواس وأقصى الرواية والقصة إلى جب النسيان، فمنذ مدّة لم تعد تفارقني تلك الابتسامة الغامضة المرتسمة على شفتي " تحتمس الثالث" ابتسامة الموناليزا الحقيقية الّتي نطق بها الحجر تحت أنف أشم، كان ينطق هو الآخر بذاك الشبه العجيب بين شخصية أول غازٍ مصري لسوريا وآخر غزاتها! هل ذاك الشبه بين تحتمس وعبد الناصر مجرد صدفة؟ هاجسي ذاك تحوّل إلى كوابيس، أستيقظ من حصارها مكللاً بالخيبة والعرق البارد، فأمزق ما كتبته خشية أن...

استدعاني مدير المباحث في درعا. جلست في الصالة الباردة أنتظر الحارس يقول لي: (مشغول، عنده اجتماع)، ولا أرى أحداً يدخل أو يخرج! حتّى تخلخل البرد في عظامي ورحت ارتجف وكأنّ تياراً كهربائياً مسّني، حينها جرّني الحارس كطفل صغير وأدخلني إلى سيادته! رحّب بي ببرود من وراء مكتبه الفخم وابتسامة غامضة تعتلي شفتيه، بادرني قائلاً: (نحن نهتم بالمعلّمين، فهم يربون الأولاد على مبادئ تسيء إلى الوحدة) تطلع إليّ يستقرئ وقع العبارات، لكنّي لم أكن مبالياً سوى بتدفئة جسدي، وأفكار أخرى تسحبني بعيداً عن المكان الغريب بتفاصيله الشاذة. تابع حديثه وهو يتشاغل عن النظر إلى وجهي بالعبث بقدّاحة جميلة، يشعلها ويطفئها دون مناسبة، فالسيجار مازال مشتعلاً في فمه يتساقط رماده فوق المكتب الأنيق، وتغزو رائحته خلايا جسدي! مدير المباحث كان يتابع أحاديث أثيرية عن الوحدة وعظمة عبد الناصر ليصل إلى غايته:(سمعت أنّك تؤلف كتاباً عن عبد الناصر، أريد نسخة منه). لم يكن لديّ سوى نسخة مشوّهة ناقصة، حرقت الصفحات الّتي تنتقد سياسته إثر الكوابيس الّتي اعتقلتني في زنزانة من القسوة اعتصرت روحي فلم أعد أطيق الخوف والحذر اللذين لازما خطواتي وتحركاتي. حينها كان لا بدّ لي من الاعتراف أنّ الكتاب لم يكتمل وفور انتهائي منه سيكون بين يدي المدير، لأخرج إلى الهواء الطلق الذي قرص أذني ببرودته مجدداً، وراح القلب يرتجف قبل تسرب القشعريرة إلى أطرافي. رمتني البرداء أياماً في الفراش أعاني الحرارة، أدخل مدناً غريبة، أطأ أسناماً تتكشف عن جماجم، أدخل سراديب الغيبوبة، وحين تنفتح طاقة الصحو عن وجوه حبيبة، أجد نفسي في بحيرة العرق والارتعاش.

كان عمر أكثرنا مرحاً، ينقل الأخبار الطازجة ليستفز بها الحضور، هذه الأمسية كان على غير عادته، عندما سألته ما به، ردّ بمرارة:

ـ السرّاج نال حظوة لدى المشير عامر بزعمه أنّ سعود أعطاه مليون ليرة سورية ليغتال عبد الناصر، فعيّنه عبد الناصر رئيساً للمكتب الثاني (المخابرات العسكرية) ووضع زلفو رئيس الشعبة الثانية رهن الإقامة الجبرية في منزله، كما جرى تسريح عدد كبير من المشتبه بهم، ولم يبق في الساحة سوى السيّد عفيف.

ضحك الأستاذ محمّد قائلاً:

ـ بقي أمام أكرم خازوق واحد، لقد تجاوز الكلّ بصداقته مع بعبع سوريا عبد الحميد السرّاج. ولا أظنه سيتأخر في التعاون معه للخلاص من الشيوعيين.

قلتُ معلقاً:

ـ أكرم على استعداد للتحالف مع الشيطان لينتهي كابوسه المرعب.

عادت الابتسامة لوجه عمر:

ـ لقد تحالف معه فعلاً، هل بعد السرّاج شيطان؟

قال عقل بهدوء:

ـ عبد الناصر آمن بتذويب الطبقات عن طريق التأميم وقوانين الإصلاح الزراعي، قوانينه تلك أفرزت طبقة طفيلية من ضباط المباحث، المخابرات، المهربين، تجار السلطة، وزوار الفجر يسوقون النّاس حفاة عراة إلى أقبية التعذيب.

ضحك عمر معقّباً:

ـ معك حق، والسرّاج آمن بتذويب الأجساد بالأسيد، كلّه في النهاية يصب في بالوعة الوطن، ليتماسك بالذوبان!

قلت متحسراً:

ـ قلب عبد الناصر كلّ شيء، غيّر المسميات،الدرك أصبحوا شرطة، وألغى الدرك الخيّال، وأصبح مدراء المناطق من الشرطة برتبة عسكرية، والحكم بوليسي. ومحافظو المدن عينوا من ضباط الجيش،

يحكمنا العسكر حتّى في رغيف الخبز، والله أخشى يوماً أن أستيقظ صباحاً لأجد "أبو عبدو" الخبّاز يرتدي بزة العسكر!

قال محمّد باستياء:

ـ قف عندك، لا تقل لي إنّ المرأة ستدخل الجيش وسأضطر لأخذ التحية لزوجتي!

ما فرّقته السياسة جمعه "الطرنيب"، ولم يكن وحده نشاطنا الاجتماعي، فكنّا نقيم الندوات والمحاضرات والمسرحيات في المركز الثقافي العربي، بدأت شلتنا بتجمع معلّمي الطائي، وكبرت بانضمام موظفين في دوائر أخرى.

كنت ألاحظ اضطراب عمر وضيقه كلّما مرّ يوم جديد له في المدرسة، انتحيت به جانباً وتساءلت عمّا به فأخبرني أنّه يشتاق لدمشق وأهله، وأنّ روحه تكاد تفارقه وسط هذا الكم من السواد والغبار والغربة، فاقترحت على المدير الجديد أن يعطيه مادة الرسم كي يستطيع الترويح عن نفسه. عمر كان هاوياً للفن بشكل عام، رسام ومسرحي وله شقيقان يعملان في الإذاعة، ووالده يعمل في المتحف الحربي، في تكية السلطان سليم بدمشق. خطرت لي فكرة أسرعنا بتنفيذها، فقد كان عمر مهووساً بالتمثيل (يسري في دمه كما يقول) أنشأنا فرقة تمثيلية، قمنا بتدريبها وقدّمنا مسرحية "الحلاق" على مسرح الثانوية، مسرحية هزلية ساخرة، تنتقد العادات والتقاليد والسياسة، لاقت رواجاً، وغصّت القاعة بالنّاس. وجد عمر متنفساً له في درعا، ووجدت تسلية برفقته أبعدتني قليلاً عن أجواء السياسة والكتب. ومرّت الأيام على نفس الوتيرة، عمل وسهرات ولعب!

جاء دور عقل في استضافتنا، دلفنا المخيّم البائس القائم على بقعة سهلية في الجهة الشرقية من درعا ـ المحطة ـ أزقة ضيّقة وحارات ملتوية، تنام الدار على كتف الأخرى، بيوتٌ صغيرة بُنيت من الطين

وسقفت بالعيدان والطين، أرضها ترابية في جدرانها كوى صغيرة. (أهي نوافذ الأمل تلك الطاقة الّتي لا تمرّ منها شمس الصباح؟).

لم يقتنع عقل رغم إلحاحنا بإلغاء الزيارة، وتمسك بالقول الشعبي (بيت الضيق بيساع ألف صديق) وكانت الغرفتان تعانيان من اكتظاظ الأنفاس وتلاحم الأجساد، مع ذلك وجدت النقاشات المتعددة طريقها وارتفعت الأصوات لتبرز قضية العودة حادة ومستفزة، كان زياد المدرس الفلسطيني الآخر، أشدنا تطرفاً، رمى العرب بالخيانة، وشبههم بالاستعمار، ودرنا في الحلقة المفرغة نفسها لنقاش عقيم، البعض علّق الهزيمة على شماعة الملك عبد الله، والبعض رماها في ملعب العراقيين (ماكو أوامر) والبعض أصرّ على أنّ القادة العرب باعوها في مؤتمراتهم الّتي لا تنتهي! وظلّ السؤال معلّقاً في الهواء: من باع فلسطين؟ ولم يكن السؤال الآخر: كيف نستعيدها؟ أقلّ حضوراً، ولم تكن الإجابات لتختلف! هي نفسها، لم تتغير منذ بدء النكبة وحتّى الآن. لكنّ أحد المنافقين تبرع أخيراً ووهب عبد الناصر شرف التحرير، فهو قائد الأمة المعتمد عليه في هذه الظروف الذي سيقذف اليهود في البحر! كانت تلك العبارة تستفزني، فانبريت بحدة أقول:

- صاحب الدار أولى بالدفاع عن داره.

قال محمّد:

- هذه إقليمية!

كنت أراها وحدوية صحيحة، فالمثل العامي يقول: (أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب). إذا كان للفلسطينيين جيش وحكومة في المنفى - كما للجزائر - وزودهم عبد الناصر بالسلاح وساندهم حرروا أرضهم، أمّا أن ينتظروا الأعراب! فعليهم توسيع هذا المخيّم، لأنّ الإقامة ستطول فيه!

وعاد شباط، كما بدأ أيام الوحدة، بخيلاً مشمساً، دافئاً، أسراب الضباط تغني بنشاز نغمات الوحدة، وأسراب الطيور اختفت خوفاً من قمع محتمل من أمطار لا تسقط!

فراغ احتلّ السماء فبدت باهتة مغبرة، وأزمة أخرى نشأت في المدرسة، فقد فرضت علينا طريقة جديدة لتعليم الصّفّ الأوّل تعتمد على التفكيك بدلاً من التركيب، فالكلمة هي الأصل والحرف هو الفرع! وسميّت بالطريقة الجملية، وسمّاها البعض بالطريقة التصويرية، وأعُدت لها دورات في دور المعلّمين، وكان عليّ أن أداري مرارة علقت في حلقي لترك الصّفّ الأوّل وفراق أصدقائي الصغار، وخصوصاً سامح اليتيم ـ الذي يذكّرني وجهه الصبوح وإشراقة نظراته بوجه صديقي أحمد اليتيم، وطفولتنا.

اخترت العربية للصفين الخامس والسادس، وفرقة كشفية للبنين والبنات، وكان عليّ أن أنتقي التلاميذ وأعدهم إعداداً جيداً أنافس به تلاميذ المحطة الذين يلقون عناية من الدولة كونهم أبناء ذوات!

وكانت تواجهني مشكلة في التعامل مع مديرة مدرسة البنات (جليلة خانم) عانس حازمة ومعقدة، جعلتني أكره المهمة الّتي أوكلت إليّ، مع هذا انتقيت أجمل الفتيات لتقود فرقة الكشفية وأقوى الفتيان، مرّت فترة التدريبات على خير رغم حصار جليلة الّتي كانت تراقبنا من تحت منديلها الأسود السميك وهي تسند جدار غرفة الإدارة!

مررنا أمام المنصة، وتعالت الهتافات للوحدة وقائدها العظيم، الجماهير تصفق، وتنشد، والفتيات يغردن بحنجرة عندليب وسط الزحام فلا تكاد تبين الكلمات! فجأة وجدت " الكابتن " يقفز على ظهر جواده كالقرد مقتحماً صفوف النّاس ووراءه خيّالته، أحاط بسيّارة الفريق الركن وهو ينزل منها ليضع حجر الأساس لمشفى فوق مُجمَّع الزبالة الذي أزيل قبل وصول سيادته ورشت الأرض بالماء، وكاد يدوس

الكشافة بسنابك الخيل لولا هروبهم في الوقت المناسب، وعمّت الفوضى بهرب التلاميذ الذين كان من المفروض أن يصطفوا لتحية الفريق الركن وترديد أناشيد الوحدة والهتاف لسيادته!

ما أثار ضحكي وغصتي أنّ الأولاد وهم يركضون كانوا يصرخون: (جاء اليهود)! ذهبت صرخاتي سدى، لم يستطع الأولاد التزام الهدوء، فعدت بهم إلى المدرسة.

وجهاً لوجه وقفتُ أمام "تمام" مسحوراً وكأنّي لم أرها قبلاً! سمرة خفيفة لفحت الوجه المدوّر المزيّن بضفيرة غطّت انحناءة الساق، وعينان تفوحان برائحة ربيع غض انتشر في الجفن زنابق خفيفة الزرقة، وومض في الخدين بحمرة توهجت للتو. غمرتني بابتسامة عذبة، ورفعت يدها لتحييني، (تحيّة العسكر، كما فعلت في الحفلة) وتنحني مفسحة الطريق أمامي للدخول. خطوتُ إلى الداخل وأنا لا أكاد أمس الأرض، شيءٌ ما حملني، طار بي، فعبرتُ المدخل المعتم إلى فسحة سماوية ازدانت بأشجار وأحواض ورد، وشيخ قام ليرحب بي بطيبة متناهية. شدّتني من يدي لتدخلني غرفة واسعة تصدّرها سريرٌ فُرش بأغطية مطرزة زاهية ووسائد موشاة بأزهار رقيقة تحطّ عليها طيور ملوّنة. وكأنّي سمعت صوتها من عمق الصمت تدعوني للاستلقاء. تقدّمتُ خطوات، لمست الفراش بأصابعي مسّاً خفيفاً وزفرت أنفاسي دفعة واحدة وارتميت على كرسي قريب. لم أكد أصحو من أسر الحلم ورائحة مسكرة تلعب برأسي حتّى دلفت وردة تحمل أكواب الشاي!

هل كانت المفاجأة أم الرغبة تلك الّتي سرّعت نبضي واعتقلت تفكيري للحظات؟ كيف حدث ذلك؟

ابتسمت وردة بخبث:

- أهلا أستاذ، تفضل.

أخذتُ فنجان الشاي من يدها وأنا أحتفظ بذهولي. هي، نعم، تلك الغزالة الشاردة الّتي اقتحمت خلوتي في البريّة وسرقت (علبة دخان الريم) وأضحكت الصبايا عليّ، قلتُ: (أنت ...) ردت وهي ترفع كتفيها بلا مبالاة: (لا أظن.. لم أرك قبل الآن). لكن لا يمكن ذلك، أنا متأكد، لا أستطيع نسيان وجهها، حاصرتني زمناً، سكنت الحلم، واقتحمت الصحو بعنف، حتّى تمنيت لو ألقاها ثانية، كانت هناك على كتف الوادي بين جمعٍ من الصبايا، تحمل سكيناً تجتث بها الخبيزة الغضة، كانت ضحكتها ترن في سمعي أجراساً ناعمة، تحاكي السواقي ورقة نسيم آذار. رأيتها وأنا أتشاغل بكتابي مستلقياً على ظهري، تحملني زرقة السماء القريبة إلى عوالم نائية، أرى فيها الغيوم وقد تشكّلت بيوتاً وقطيعاً يرعى، رأيتها هناك وأنا مغمض العينين، غزالة مدت يدها بخفة لتأخذ الباكيت والصبايا يشجعنها، ويدرن حولها، لم أكن أحلم، فقد طردتُ أطيافاً سكنت تحت الجفن المغمض لأفتح عينيّ على ملامحها المتناسقة الجذابة وبسمتها الّتي تغوص على إثرها غمازتان عميقتان على أطراف شفاه مكتنزة بالشهوة، رأيتها وهي تبتعد بخطوات واسعة لتحتضنها رفيقاتها وهن يضحكن ويغنين بلهجتهن المحلية ويصرخن (ايش عملت بالقاروط يا وردة؟) وعلا صوت إحداهن مستنكراً وهي تشير بيدها إلى قامتي: (كلّ هاد قاروط؟). وحين رأينني أنهض واقفاً وأنفض الحشائش العالقة بملابسي، اقترين وتحلّقن حولي، مدّت وردة يدها بالباكيت والقدّاحة، فقلت: ضعيها مكانها. انحنت إلى الأرض، وكاد خدها يلامس خدي، فارتعش القلب، وحين التقت عينها بعيني، سبحتُ عميقاً في نهر العسل، أرشف شهده دفعة واحدة. غزالة، لابدّ أنّ اسمك غزالة، ابتسمتْ: (اسمي وردة). تمتمتُ مسحوراً: (وردة عطشى تبحث عن ماء، وعندي منه الكثير). علّقت الصبايا بمرح: (بتتزوج وردة يا قاروط؟). نهرتْ صديقاتها

بغضب، وكانت أوّل من ابتعد مفسحاً لي الطريق لأمرّ. مضين وهن يلتفتن إليّ ويضحكن غامزات بأعين حوراء. ابتعدت كومة السواد المزدانة بعصابات زاهية، حمراء ومطرزة.

إنّها هي! تمتمتُ بصوت هامس:

- وردة...

ضحكت بنبرة عالية وقالت:

- اسمي رفعة.

قلت بغيظ:

- أنا الولد المسكين الذي ادّعيت أنت وصديقاتك...!

دخلت تمام في تلك اللحظة منفعلة، تعلو جبينها تقطيبة مفتعلة:

- تعرف عمتي..؟

شعرت أنّي وقعت في فخ انغرزت أنيابه الحديدية في روحي، تمام وعمتها! اللعنة كيف أنجو؟ لم يعد هناك مفر! فتشت عميقاً في القلب، وسألته مراراً عن معنى ما يحصل، فصمت مستهزأ بي، سألت العقل: (إلى متى ستجرّك الريح وراءها فلا تعرف في أيّ هاوية ستستقر؟) ابتسم بخبث: (منذ متى تقرصك الحيرة، وتداعبك أحلام الاستقرار والهدوء؟ منذ يفعت وأنت تطارد الحلم ولا تقبض سوى السراب!).

فاجأني تلميذي عفيف هذا الصباح برسالة دسّها في يدي، كانت من شقيقته تمام، تخبرني فيها أنّها مريضة، وتنتظر أن أزورها. أهي لعبة أخرى من ألاعيب تلك الفتاة المدججة بالاندفاع والرغبة واللامبالاة؟ أهو فخ جديد؟ حاولت تجاهل الأمر، ورافقني عفيف إلى المحطة ومنها إلى الجمارك، فقد قررت السفر إلى دمشق لشراء بعض الملازم والكتب. وقد عرّفني عفيف على والده الذي يعمل في الجمارك سابقاً وسهّل لي أمر السفر إلى دمشق مجاناً.

هربي ليوم أو يومين لم ينفع فقد أرسلت تمام ثانية تريد رؤيتي، هل أدخل الجحيم بقدمي؟

خطوتُ إليه، دخلته بجرأة هذه المرّة وقد قررت أن أوضح موقفي. كانت تمام مستلقية على السرير في وضع صعب، دموعها تغمر وجنتيها ووجهها شاحب، لم تستطع رفع يدها لتسلم عليّ، ووجدت نفسي في دوامة، أغوص عميقاً وراء نظراتها، تهزني بعنف وعمتها توبخني وتتهمني. دخلت أمها بالقهوة ونظرت إليّ بسخرية، أحرجتني نظراتها، فاعتذرتُ عن شرب القهوة وسألتها :(ماذا حدث لتمام؟) تأملتني باستهزاء وقالت: (بدّها خال!). وخرجت من الغرفة. وقع الكلمة كان قاسياً مع أنّي لم أفهم معناها، لكنّ عمتها الّتي رمقتني بغيظ، أخبرتني أنّ الخال تعبير شعبي مأخوذ من الخليل، والخال يزيّن الخد كالقبلة! اشتعلت حرائق في داخلي حتّى شممت رائحة جلدي ورفعة تدعوني بصراحة لأداوي ابنة أخيها! (هل يتوقف الأمر عند خال تطبعه على الخد؟ أم أنّك ستخوض البحر حتّى تبتل عظامك؟ وبعد؟ عليك أن تحسم أمرك قبل أن يغمرك الطوفان...) خرجتُ من الغرفة متعثراً بظلي هارباً من رغبة غزتني ولم أعد أستطيع مقاومتها.

ما الذي أعادني إلى بيتهم؟ هل حقّا تمام بحاجة لمدرّس في اللغة العربية، أم أنّها حجة تشبثتُ بها لأقنع نفسي أنّ لقائي بها له ما يبرره؟

هي اختلقت العذر وأنا تمسكت به تمسك غريق بقشة. هل كنتُ حقّاً بحاجة إلى ما يبرر وجودي هناك؟ كانت نارها تحرقني، لكنّ وجود رفعة في لقاءاتنا يرفعني من أرض الواقع ليرميني في أحضان حلم تنبت على أطرافه خبيزة خضراء طريّة وحميضة لاذعة الطعم، وتتدفق مياه نهر صغير غاسلة أيدي الصبايا وسكاكينهن، وتدمع العيون الضاحكة وتبرز رفعة غزالة شاردة تفتح عينيها على أفق أزرق، فتورق حقول البنفسج، ويمتد الأقحوان إلى السهول القصية، فينتشي النظر ويخفق

القلب! تتقدم مادّة يدها لمصافحتي فأشعر بدفقات حارّة من الدم تغزو رأسي وأعصابي، وفي عينيها نداء مكتوم وكأنّي بامرأة العزيز تقول: (هيت لك).

رفعة كانت الوتد الذي غرس بقوة بيني وبين تمام الصبية الّتي لم تبلغ السابعة عشرة، لكنّ اندفاعها ألجم كلّ قدرتي على المقاومة والاتزان، وإن كانت حواسي كلّها مستنفرة في حضورها، إلا أنّي أقترب من الهزيمة كلّما اشتدّ اندفاعها وتوهجت أعماقها. العرض الصريح الذي بادرتني به اليوم عمتها كان فجأً لدرجة صعقتني، كانت تدعوني بوضوح (هيت لك) لكن ليس الجسد الذي أشتهيه بل جسد ابنة أخيها! هل تريدني حقّاً أن أفعل ذلك بابنة أخيها؟ أم هو فخ ستندفع على إثره سكاكين تصوّب إلى صدري، وأخرى قد... لا، لن أفعل، لقد وقعت في أسر مجنونتين إحداهما لا تفقه ما تفعل والثانية تخطط بخبث لشيء لا أدركه بالضبط، ربّما تريد توريطي مع الفتاة ووضعي أمام الأمر الواقع، وربّما... يا إلهي!

عدت مساء متخماً بالأوهام، أسكرتني تمام بأحلام تتجاوز الواقع بأجيال. كانت أمينة تتصفح المصور وآخر ساعة، سألتها بحياد:

- ماذا تقرئين؟

ردت دون أن ترفع رأسها:

- المفاجأة، قصة بقلم أمينة السعيد.

قلت وأنا أخلع ملابسي:

- أعرف هوسك بما تكتبه هذه السيدة.

نظرت إليّ بضيق:

- لأنّها مختلفة، تدافع عن وجود المرأة كإنسانة، ولا تعتبرها سلعة للتسلية.

عرفت ما ترمي إليه فآثرت الصمت، فتحتُ كتاباً وتشاغلت عن الحديث، فرمت المجلة بعصبية ونهضت، أحضرت الطعام، وعادت إلى ركنها تهدهد الصغير كي ينام.

كانت تنظر في وجهه غير مصدقة: (انظر ما أجمله! العيون، الفم، الأنف، سبحان الخلاّق، طوله كأنّه ابن سنة!). منذ ولادته شعرت بغصة لقول كان العامة يتداولونه عن الولد الشديد الجمال، اللافت الذكاء: (إنّه ابن عزرائيل). فغالباً ما يخطف الموت هؤلاء الأطفال حتّى بات النّاس يخشون على أطفالهم إذا ولدوا أصحاء فيخفونهم عن العيون ويحصنونهم بالأحجبة! كلّما نظرتْ إليه أمه بهذا الشكل أقول لها: (لا يحسد المال إلا صاحبه). لكنّها كانت تحضن فرحتها بأجنحة أثيرية غير مصدقة أنّ "جمال" يشبّ بهذه السرعة، فبات يخطو وهو في الشهر التاسع، ونطق حروفه الأولى. وكانت تريه للجارات وتتباهى به، فنصحتها الحاجة ندوة بوضع طوق خرز أزرق في رقبته لحمايته من العين، ابتسمت زوجتي واستخفت بقول الحاجة: (إنّها خرافات). المشكلة أنّ ما اعتبرته زوجتي خرافات انقلب فجأة ليصبح حقيقة، حقيقة قلبت بمرارتها حياتنا رأساً على عقب، هزل الصبي فجأة وبدأ يعاني من إسهال شديد، وجفّ حليب أمه! فصارت تهزل هي الأخرى، تسهر الليل والدموع على خديها، رميت الكتب جانباً، وصرت أدور في أرجاء البيت أبحث عن حل لمصيبة باتت وشيكة الوقوع ولو أنّي رفضت تصديق حصولها. من أين أجلب الحليب؟ كلّ حليب في الأرض من سورية ولبنان أصبح سمّاً يحرق أمعاء الطفل فيطرحه في لحظات. أربعة أشهر مرّت وهي لا تنام، يرتطم رأسها بصدرها وتسقط أرضاً لتنهض مذعورة وهي تصيح: (مات!). ثم تهدأ لرؤيته يتنفس. اصطفت أنواع الأدوية حول فراشه في فوضى، عساكر من وهم أسلحتهم تطلق للخلف! أتحسس نبض الطفل وأمسح جبين أمه بالماء لتصحو، هل

أطيل في عذابها؟ بتّ على يقين بعدم جدوى كلّ تلك الأدوية الّتي تحاصر الفراش.

بين غرفتي الّتي أدرس فيها والغرفة الثانية حيث يرقد الطفل وأمه كوّة لها باب من الدف، أدلف منها ليلاً كلّ ساعة لتفقد حاله، الوضع يزداد سوءاً، ذبل جمال، وجفّت عروقه، ولم يعد فيه سوى عينيه الجميلتين، يحدّق بأمه وكأنّه يودعها، (أين ستذهب هذه العيون الساحرة يا حبيبي؟) تخاطبه وتذرف الدموع، لا تكاد نظراتها تفارق عينيه، فيغمضهما وكأنّه لا يريد رؤية دموعها! أمسح وجهها وأطلب منها تسليم الأمر لله. لكنّها لا تكف عن النشيج. استدنت راتب شهرين حتّى جلبت الدواء، وباعت أمه أساورها، ولم يعد لدينا ما نأكله. الشيخ محمود ينادي لآذان الفجر، حاولت إقناعها أن تنام قليلاً، لكنّها رفضت، لو كنت أملك أجرة سيّارة لذهبت به إلى بيروت. لكنّ الفقراء يموتون جوعاً ولله حكمة في موتهم، أو يشفيهم الله!

صراخها هذه المرّة أبعد طيف النوم، ولمحت خيوط النور المتسللة على استحياء إلى غرفتي، إنّه الفجر، وصوت الشيخ محمود ينادي: (ألن تصلي الصبح يا أستاذ) وزوجتي تردد كالمجنونة (إنّه كالخشبة، لقد مات فعلاً). هل جنّت زوجتي؟ هل يعقل أن يخطف الموت طفلي بهذه القسوة؟ أقفز عن السرير، أتعثر ببقايا شرود رنّح خطواتي، أنحني أمام الطاقة متسللاً إلى الغرفة الثانية، أحمله بين ذراعي، صفرة الموت تعلوه، قطعة من الجليد حملت روحي، عيناه نصف مغمضتين، يتطلع من تحت الجفن إلى وجهي بنظرة جامدة، كيف فقد الجسد حيويته وبات قطعة خشب؟ حاولت أن أثني يده بحماقة لعلّها تتحرك، لعلّه سيتنفس بعد قليل، ربّما.. لكنّ يده تأبى أن تتحرك، يا رب.. يا إله السموات، لمَ لا يحرك جفنيه؟ كيف تعتزل الخضرة روحها وراء أفق جامد؟ كانت زوجتي بدموعها الغزيرة تشفّ عن روح الحزن مؤكدة

أنّ الموت هو زائرنا، تلفعتْ بدموع الخنساء على صخر، ولبستُ عباءة الصبر، ضممتها إليّ: (صبراً بالله، سيعوضك الله بأفضل منه، هو أعطاه وهو أخذه). تملّصت من يدي بعنف، هزت رأسها وهي تصرخ بحنجرة مبحوحة: (ولماذا يأخذ ما أعطاه؟ أليس كريماً؟) جمدت في مكاني، كلماتها صفعتني بقسوة، كانت كلماتي عن الصبر والعزاء قد ذهبت أدراج الرياح، لم تكن تسمعني، كانت تخطو إلى دنيا الجنون بصراخ يشقّ صدر الفضاء ولا تستطيع له لجماً. الحاجة ندوة كانت أوّل النسوة اللواتي اندفعن إلى صحن الدار وقد غسلت الدموع وجنتيها وعلا صوتها بالدعاء وطلب الصبر والرحمة للطفل.

ازدحمت أرض الديار بالنّاس، المعلّمون، والجيران والتلاميذ، وحضر رجل ليغسّل الطفل، رفعه وهو يخلع عنه الثياب فسقط رأسه أرضاً، صرخت به:(احترس يا رجل لقد كسرت رأسه). ابتسم ببرود: (الميت لا يشعر يا بني). صرخت ثانية: (ولكنّي أشعر، لقد كسرت رأسي!) واندفعت نحوه لأخلّصه من يدين لا تعرفان الرحمة، فتدخّل الشيخ محمود: (اهدأ يا أستاذ لا يليق بك أن تغسّله). تناوله الحاج أرشيد وسار أمام الجمع وهو يتلو القرآن. سرنا باتجاه الشرق، على ضفة الوادي الغربية في أرض سوداء شبه مستوية، في حفرة صغيرة وضعت فلذة كبدي، وعدت خالي الوفاض!

كانت أمه طوال الليل تحدّق في الفراغ، وترى ابتسامته وتحدّث عينيه، وتبكي. باءت محاولاتي في التخفيف عنها بالفشل. عمن أخفف؟ وأنا نفسي أحتاج لمن يقول لي هل ما حدث حقيقي؟ أم أنّي سأصحو في الصباح لأراه قرب فراشي يداعب جبيني بيده الصغيرة ويلفظ حروفه المحببة، ويضحك عن أسنان صغيرة بزغت كنجمة صغيرة في لثته الطرية!؟

لم تطق أمه صبراً، كانت روحها تغادر المكان وجسدها يذوي، فآثرت تركها ترحل إلى أهلها لعلّها تنسى بابتعادها عن السواد المقيم في الحجارة القاسية.

يحاصرني الخوف، أقبع بين الجدران، فتبرز العيون من الشقوق تراقبني وتحصي عليّ أنفاسي، لماذا مات طفلي؟ هل أنا السبب في موته؟ لو استطعت تأمين الحليب، لو...

صحوت صباحاً على أكواب الشاي الفارغة وفناجين القهوة وعلب الدخان كلّها فارغة. خواء وجوع يلازماني، ولا تقبل نفسي سوى المزيد من السجائر والقهوة والمزيد من الشرود، فتحتُ المذياع لأسمع همس الصباح، علّه يعيد إليّ بعضاً من توازن أكمل به يومي في المدرسة.

هنا دمشق إذاعة الجمهورية العربية السورية.

بلاغ رقم واحد!...

......

هنا حلب إذاعة الجمهورية العربية المتحدة.

بلاغ رقم واحد ...

....

(عبد الناصر يا جمال، يا مقدام عروبتنا، فيك حققنا الآمال ونلنا غاية وحدتنا)

هنا دمشق، إذاعة الجمهورية العربية السورية...

جاءنا من قائد القوات الجوية ما يلي....

.....

....

..

. صوت صباح يصدح مرحاً..

(أكلك منين يا بطة؟!!)

لم تتضح لنا الرؤية مباشرة، فقد ظننا أنّ السرّاج هو من قام بالانفصال، وقد منع التجول في المدينة، ونزل "الكابتن" إلى الشارع بجنوده ودباباته، واعتلى الجند المدججون بالسلاح أسطح المنازل، ودار الحكومة، ومنع التجول!

أصيب الشعب بالذهول، وخرجت النسوة والأطفال والرجال في مظاهرات عفوية رافضة الانفصال، أطلق "الكابتن" ورجاله النّار على المتظاهرين، فقتل أربعة، دفنهم دون مراسم في المقبرة الشمالية. في البداية فكّرت بالهرب إلى الأردن، ثمّ عدلت عن الفكرة حين تبين لي أنّ لا علاقة للسرّاج بما يحدث.

رغم الأحكام العرفية ومنع التجول وسقوط قتلى إلاّ أنّ أحداً في درعا لم يلتزم بأوامر "الكابتن" وبقيت آثار الانفجار تتدفع حمماً بركانية من المظاهرات المطالبة بعودة عبد الناصر. وانتهت الحالة بإعلان ترحيل الضباط المصريين ومغادرة المشير عبد الحكيم عامر البلاد.

سحب عبد الناصر قواته بسرعة من جبل العلويين، ربّما خشي أن يفعل السوريون بكتيبة المظليين ما فعله اللبنانيون بجيش إبراهيم باشا! هل تتحقق نبوءة عبد الناصر (لقد رأى سوريا تغرق ببحر من الدماء) قال لي الأستاذ محمّد ساخراً:

- الأيدي الّتي وقّعت ميثاق الوحدة وقّعت صك الانفصال.

قلت بمرارة:

- أحدهم له توقيع في حلف وارسو وحلف بغداد والغريب أنّه لم يسجن ليلة واحدة رغم تبدل الأحوال!

همت على وجهي في الطرقات الملتوية حتّى وصلت الكرك، صعدت سطح المدرسة، فنهض الجند رافعين أيديهم بالتحيّة العسكرية

خابطين السقف الهش بأقدامهم حتّى ظننته سيسقط، وأدركت بسرعة الالتباس الحاصل فابتسمت للجند وحييتهم ونزلت إلى الإدارة. علا صوت الرصاص في الطرف القصي من البلدة فجاءني أحد الجنود مسرعاً:

- سيدي، هل نطلق النّار؟

أمرته أن يطلقوا في الهواء، بلا مبالاة ارتفعت الأعيرة النّارية معانقة صمت الليل الموحش، ترد عليها طلقات من أماكن أخرى. كنت في حالة يرثى لها أفكر بما يحدث لي، ما يحدث حولي، ماذا أفعل؟

لم أر وجه تمام وإن سمعت صوتها ينادي وأنا أعبر أمام بيتهم، ثم لاحقتني شتائمها الّتي ختمتها بعبارة (مجنون) رشقات رصاص لا تهدأ. لكنّ شيئاً في داخلي أصرّ على النفاذ للسطح، انقشعت غمامات، وكان جلياً لي شعوري النابع عن تفكير ثلاث ليال من منع التجول، لقد خرجت روحي من القفص، وتأكدت أنّي أحبُ عبد الناصر بقدر ما كنت أهاجمه! ليس ذلك غريباً، ولم أحتج لمبررات فقد قصم الانفصال ظهري، وأشعرني بأنّي عار في مواجهة ريح عاتية! وجدت نفسي تنقاد منومة إلى قبر صغيري، أذرف الدمع والقهر وأتطلع في البرية الخالية، وغراب ينعق في السماء، يحلّق فوق رأسي، يخفض جناحيه ويحطّ على شاهدة القبر، أراه بوضوح يحدّق في وجهي ويهز رأسه، ثم يطير مع غراب آخر إلى بطن الوادي ويتركاني وحيداً. هل كانت روح صغيري تحوّم في المكان على هيئة غراب هزّ رأسه مواسياً؟

ما أخطأت أمينة حين سمّته "جمال" دون أن تلتفت إلى احتجاجي.

في درعا كنت محاصراً، لم أعد أثق بأحد، أعلن بعض رفاقي ولائهم لعصام العطار، وكراهيتهم المطلقة لعبد الناصر، واحتاط مني الشيوعيون، رغم مجاهرتي بالتطرف والتأثر بالماركسية، ورغم قناعتي الّتي لم أخفها يوماً أنّ اشتراكية البعث كانت أقرب إلى البيروقراطية

الإقليميـة البورجوازيـة. كـلّ ذلـك لم ينقـذني، بـل رمـى بـي في أتـون الاتهامـات والدسـائس، والعزلـة. لم يكـن رفـضي الانتمـاء إلى الاتحـاد القومي في عهد الوحدة كافياً لبعث الثقـة فيمن عرفـت مـن الأصدقاء لاسـيّما الفلـسطينيين منـهم، لم يعـد "الطرنيـب" يجمعنـا فقـد أثبتـت الـسياسة أنّهـا مفـرّق القلـوب، ومـشتت الجماعـات! وذهـب اعتقـادي الساذج بـأنّ البعـث لم يوقـع صـك الانفـصال بل وقّعـه ميـشيل وصـلاح وأكرم بأسمائهم، أدراج الرياح.

وكان لا بدّ لـريح الشمال من الهبوب على حرائقي لتزيدها اشـتعالاً، فأجد نفسي في طريق العـودة ململماً جـراحي ونـزيفي بانتظار أن تفـتح حركة الوحدويين الاشتراكيين نافذةً أخـرى لـشروق شمـس الوحـدة مـن جديد!

❖❖❖

الأرض كروية! هكذا قالوا له على مقاعد الدرس، وهو على يقين أنّ الأرض كروية، فقد عاد من حيث بدأ، هبّت رياح الشمال، لتحمله إلى قراها معلّماً. هبّت رياح الصدف لتقذف في طريقه رضية، أهو ماضٍ هرب منه؟ أم حب جديد؟

هبوب الشمال

استقبلني محمد ديب بابتسامة واسعة، نهض لاحتضاني فشعرت ببرد ينخر العظم، أين القوم؟ أين خلدون؟ كأنّي رأيته يتململ على كرسيه بعصبية وينظر إليّ بشرود، ثمّ ينهض مغادراً وهو يلعن نفسه والساعة الّتي ولد فيها! خيِّل إليّ وأنا أسحب الكرسي أنّ سعيد يصرخ بصوتٍ عال: (ألا زلت حيّاً؟ كنت أقول لنفسي لن أراك بعد اليوم؟). تنتشر ضحكة جودت سمراء صافية في فضاء المقهى، ويقول بشماتة: (كلّكم مجانين، ماذا تريدون من الأحزاب؟ ستقودكم إلى حتفكم وسأجلس في عزائكم جميعاً إن شاء الله).

سحب محمد ديب نفساً عميقاً من نرجيلته وتطلّع إليّ بعينه السليمة:

- أي أستاذ، ما قلت لي، مع من ستقف، مع موشيل ولا صلاح؟

كان من عادته أن ينطق اسم ميشيل ممطوطاً كأغلب العامة في البلدة، قلت ساخراً:

- انتظر يا صديقي ربّما تضطر للوقوف مع غيرهما، شخص مثلاً يُكنى بـ "أبو عبدو" الجحش.

رمقني محمد ديب باستغراب:

- وأنت ستقف مع الجحش؟

قلت ضاحكاً:

- لا، أنا سقطت من القائمة، ولم يعد لي علاقة بالبعث، ولا أنوي العودة إليه.

اعتدل محمد ديب بجلسته وسأل مستفسراً:

- لا تؤاخذني أستاذ، عليّ الطلاق أنت غلطان، نحنا نربي الشجرة لنأكل الثمر، والآن بدّك تترك، ما معك حق. وصلت اللقمة للفم!

أبو أكرم على ما يبدو كان ينتظر فرصة هبوب الريح ليغتنمها! شعاره الذي يرفعه دائماً دون أن يجني ثماره! قلت بمرارة:

- يا محمّد، أنت أمي، وغير وظيفة زبّال ما رح يعطوك، وإذا طفح الكرم، ستصبح رئيساً للزبالين. فلا تتسرع، وانتظر حتّى تتجلي الأمور.

امتقع محمد ديب، وارتعشت شفتاه، ربّما ظنّ أنّي أحقّره، وربّما مرّت بذاكرته تلك المسرحية الّتي مثلناها سوياً، لا أعتقد أنّ محمد ديب سينسى شخصية غورو، والصفعة الّتي بقيت آثارها زمناً على وجهه! تجاوزنا ذلك الموقف وعدنا أصدقاء، مع هذا أشعر أحياناً أنّ محمد ديب يغصّ بذلك الموقف ويحاول أن يرتفع بمستواه كي يثبت لنفسه قبل الآخرين أنّه مثلنا . فلا يبرح المقهى ويصرّ على ملازمتنا، ومن هذا المبدأ اغتصب ابتسامة واسعة وقال بلهجة مرحة:

- يا صديقي، محمّد صلّى الله عليه وسلّم كان أمياً .

قلت وقد اشتدت المرارة تشبثاً بحلقي:

- محمّد من قريش، وأنت من بلدة الطيش، محمّد نزل عليه جبريل، وأنت نزل عليك ميشيل، وإذا صدف وناداك النّاس أستاذ فهم يسخرون منك. وإذا نادوك رفيق محمد، فقد أنصفوك.

مطّ محمد شفتيه، ونهض مغادراً دون أن يلقي السلام! وكأنّه يقول: (شوف ها الأمة الزفت!).

كان محمد ديب محقّاً، فقد أثبت الزمن أنّني من أمة غاصت في مستنقع الزفت، وركب هو الموجة!

لم يكد محمد ديب يغادر المقهى حتّى هبّت رائحة ضحكة هاشم الممزوجة بضباب أيام غامت في فضاء الذاكرة ولم تعد تهطل فرحاً! كان عناقاً حارّاً استطعت أن ألمس فيه لزوجة أسئلة على وشك أن توقع بيننا، احتفظت بريبتي وحذري، وخضت في أحاديث عن الأيام والأولاد،

لأبتعد عن كهرباء السياسة الّتي تمسّ الجسد فينبض بالغضب والاختلاف، دخل معي دوامة الحجارة السوداء بتعزية مباشرة:

ـ البقية في حياتك...

صمت هاشم بعدها وحوّل نظراته إلى باب المقهى وتشاغلتُ بتفسير التعزية، أهي شماتة أم...؟

أبعدتُ شبح فراق قادم من مخيلتي، لا يمكن لهاشم أن يشمت بموت جمال، فقط لكوني.. لا، يبدو أنّي أحمل انكساراتي سكاكين شك تقطّع لحمي قبل الآخرين. التفتَ هاشم قائلاً بمرح:

ـ ماذا ستفعل بعد موت الوحدة؟

سؤاله أكّد الشّك، ونأى بمساحة الود القديم ليترك الفرصة لنزاع بارد يدمي القلوب، هل اقتربت نهايتنا؟ (أبداً لن تموت، وسنعيدها ولو بأرواحنا)، كنت أريد أن أقول لهاشم أشياء كثيرة، أشياء تذبحني، لكنّ الصمت خيّم على سماء المقهى، وابتعدت الأصوات، حتّى شعرت أنّي أهوي في فراغ، مطارق تدق الرأس، ودوّار يحتل مساحة الرؤية. نهضت مغادراً، رغم أنّ هاشم غيّر الحديث بعد أن رأى صمتي وامتقاع لوني، وحدّثني عن سفر مصطفى إلى القاهرة لمتابعة دراسته العليا، لم أعد أهتم بالكلمات المتناثرة من شفتيه، لم أعد أسمعها، كانت تبتعد فراشات سوداء لتشكّل أمام عينيّ نفقاً لا نهاية له، ترنّحتُ مراراً في الطريق، وحين وصلت البيت كان الجسد في حالة إعياء لا حدود لها، فدفنته في فراش بارد ورحت في نوم عميق.

❖❖❖

على فوهة البركان وقفت ألتمس دفئاً لم تحمله لي ريح الشمال. مذ كنت صغيراً كنت أزور "بسامس"، وكانت العجائز في القرية (أخوات أبي، وما أكثرهن! ففي كلّ قرية له أخت بالدم منعاً للحرام! يجرح يده

وتجرح يدها ويمزجان الدم، وتصبح أخته، يترافقان في السفر، ويقيم عندها في زيارته لقريتها!) يحكين لي قصّة هذه التلّة الرمادية. ففي الكهف القريب سكن النبي أيوب، وبيده المباركة أطفأ البركان، وتجمعت به المياه فاغتسل فيه فانقلب الدود الذي أكل جسده إلى زمرد ومرجان، وهنا يمكن للمرء أن يحفر الأرض بحثاً عن الأحجار الكريمة الّتي خلّفها جسد النبي أيوب عليه السلام. وفي صغري كنت أنكش الأرض فلا أعثر إلا على خرزة زرقاء من طوق حمار!

ولتلك الخرزات حكاية، فقد كثر المشعوذون في تلك التلّة، يبعثرون تلك الحجارة والخرز ليأتي الأغبياء فيسبحون في مياه موحلة ويكتبون لهم الأحجبة الّتي تقي من العين وتمنع الأمراض وتقوي الذكر!

وها أنا أعود إليها معلّماً.

استضافني الشيخ عبد الله في غرفته اليتيمة ونمت ليلتي الأولى مع عائلته! وتنازعني الأصدقاء القدامى لوالدي كلٌ منهم يريد استضافتي، لكنّي أردت الاستقلال بغرفة، لم يطل البحث عنها إذ وجدها لي الشيخ في عشية ذلك اليوم.

على كتف الوادي المغروس بأشجار اللوز والمشمش والزيتون، وجدت ضالتي عند أم أنور، وهي امرأة سمينة منتفخة الكرش، مستديرة الوجه، شاحبة اللون، رحّبت بي بود ومشت أمامي بتثاقل وهي تلهث لتدلني على غرفتي المفتوحة على الوادي من الشمال. ارتحت لكون الغرفة مبنية من الحجر وسقفها من الاسمنت وأرضها مفروشة بالاسمنت، حسناً هذا يعني سهولة التنظيف والإقامة. وعلى عكس أم أنور كان زوجها نحيلاً طويلاً، أنيق الملبس الشعبي، يحمل ساعة في حزامه ويبتسم بود، استقبلني هو الآخر:

- الغرفة لك طول العمر وبدون أجر، المهم أن ترتاح عندنا. لكن.. أستاذ عدم المؤاخذة، لا يوجد عندنا مرحاض.

ارتباك أبو أنور أضحكني فاهتز الجسد سعادة، نعم، هناك أمور تنغص إقامتي دائماً. لم تطل أم أنور غيابها، جاءتني بعد دقائق بصبية في الثالثة عشرة، وأمرتها بتنظيف الغرفة وترتيبها، وقالت بود:

- هاي نورا، امتى ما صحت عليها بتلاقيها في خدمتك.

خلال ساعة كانت الغرفة نظيفة، مرتبة، وقد اكتست بكلّ ما يلزمني من بيوت أهل القرية! سهرت على لمبة الكاز وأنا أكتب إلى ساعة متأخرة، وفي الصباح الباكر طرق بابي التلاميذ، كان كلٌ منهم يحمل شيئاً، بيض، وحليب وخبز تنور طازج، أجفلتني المفاجأة. فقد جاءت نورا على عجل دون أن أناديها غلت الحليب، وسلقت البيض وجهزت السفرة وأنا في ذهول، أين أنا؟ ابتسمتُ هبوب الشمال وهي تقرص وجنتي بلطف (هنا كرم وناس بسطاء يعرفون قيمتك، وأهميتك لهم، يريدون الخروج من جهلهم بصدق، ويؤمنون بقدراتك، فلماذا تنسف أحلامهم بتقوقعك في محارة فارغة؟).

جاءت أم أنور ووقفت في العتبة على استحياء:

- خير أستاذ، ليش ما نمت؟ شفت الضو في غرفتك طول الليل، شغلت بالي.

دفء الكلمات الّتي خرجت من قلب أم أنور حيية بسيطة، أشعرتني بحاجتي لحضن أمي، ومرَّ أمام عيني جمال يخطو إليّ وهو يضحك، ورأيت أمينة بابتسامتها الحزينة وعينها الدامعة، لم أتمالك نفسي، ولم أستطع حبس حسرة زفرتها مع ردي على أم أنور:

- كنت أكتب قصّة عن مأساة راضية.

تطلعت أم أنور بوجهي مستغربة:

- بدّك تبعتها للمعلمة؟

عرفت من أم أنور أنّ هناك معلّمة في المدرسة تحمل هذا الاسم. صفعني نسيم بارد أم تخيلت ذلك؟ لا بدّ أن مصادفة عجيبة حدثت، فما الذي سيأتي براضية إلى هذه القرية؟

بنيت المدرسة في عهد الوحدة، وكانت جميلة الشكل، صفوفها على نسق واحد تجاه الشمال، أبوابها من الدف، ومقاعدها جيدة. دخلت غرفة الإدارة، نهض المدير مرحّباً بي:

- زارتنا البركة أستاذ.

وسلّم عليّ الأساتذة معرّفين بأنفسهم، لفت انتباهي "أبو وديع"، فهو يبدو كزعيم في أناقة ملبسه، ومسبحة الكهرمان الّتي تصدر حباتها أنغاماً رتيبة مصاحبة لوتيرة كلماته، جلس يتحدث عن أيام زمان، أيام العز، حين اختاره حزبه للذهاب إلى موسكو مع الوفد الشعبي قبل الوحدة. إذاً هو من جماعة أكرم! وهو زعيم كما توقعت، فثقته في نطق الكلمات وهو يفرد ظهره على مسند الكرسي، ومركزه الحزبي، المهابة، وشكله الذي يُرهب محدثيه، فهو طويل القامة، ممتلئ الجسم، كبير الرأس، مستدير الوجه، عيناه جاحظتان، ينظر إلى محدثه كصقر - كلّ ذلك جعلني أستعيذ بالله من حديثه، وانطلقت إلى صفي قبل أن أسمع بقية مزاياه وأمجاده، لكنّي تساءلت: أيّ الصفوف يُدرّس "أبو وديع"؟ لم أره يدخل أحدها! كان لـ"أبو وديع" طاولة صغيرة بجانب طاولة المدير، يجلس على كرسيه واضعاً ساقاً على ساق، ويوزع الأوامر، ولكلّ صفّ عرّيف ومساعد من التلاميذ الكبار، ينتقيهم "أبو وديع". ساعة الانصراف تناول كلّ عريف مقشة وراح ينظف الصفّ، توقفت قليلاً قبل أن أتابع سيري إلى البيت وأنا أراقب ما يحدث، لقد قام التلاميذ بإغلاق الصفوف بالمفاتيح، ونضح المياه من البئر وتنظيف المراحيض، وسلّموا كلّ شيء لأبي وديع وغادروا المدرسة!

تريثت قبل الانصراف في اليوم التالي وناديت التلاميذ، وجمعت منهم المقشات والمفاتيح وطلبت منهم الذهاب إلى بيوتهم. لم يغادروا، وقفوا على التلّة يراقبون ما يحدث.

لم يكن منظر "أبو وديع" وهو يكنس الصفوف وينزح الماء من البئر غريباً فقط، بل أصبح حديث القرية، بعد أن خرجت طاولته منكسة الرأس إلى مكانها الطبيعي بجانب باب المدرسة، وأصبح العجائز يتندرون بما فعلته به.

كانت مدرسة البنات في طريقي إلى البيت، غرفة من الطين الأبيض المطلي بالكلس، في دار ريفية، تدافعت الصبايا منها والصغيرات منفلتات إلى بيوتهن.

وحانت مني التفاتة فرأيتها، كانت تقف بباب الصّفّ وتسند ذراعها على الباب المفتوح وهي تعد التلميذات برأس عصا تحملها. هي، نعم، لست مخطئاً (أيّ ريح حملتها إلى دربك؟). لم تطل التساؤلات، هي المعلّمة الّتي ظنّت أم أنور أنّي أكتب لها مكتوباً. (**هاهي رضية تمد يدها الصغيرة لأدلق في حرجها الكرز، وتنظر إليّ بعينين يتقاطر عسلهما وابتسامة تغسل الروح فأطير بجناحي سنونو مبتعداً عن سقف الزقاق المظلم**).

هاهي رضية تطلع كجنية من الحكايات لتصل حاضراً مسكوناً بالقلق والحيرة، بماضٍ غسل الزمن جماله وأبقى شحوب الذكريات، رضية تبتسم خلف الشبّاك المفتوح على نسائم نيسان، تتنهد من وراء الستارة البيضاء وترقب خطوتي العابرة، تكبر في غفلة من الزمن، وتعترض طريقي ثانية بعد تراكم الجراح والانكسارات. أيّة أقدار حمقاء رمتها في طريقي ثانية؟

حضر ذلك الزمن بتفاصيله التافهة الصغيرة أمام عيني، تجارة الكرز، شراكة سلطان المناحيس، إفلاس وخواء، ووجه رضية المكتنز

يضحك بغنج وهي ترفع الستارة وتستند بذراعيها العاريين على حافة النافذة الّتي تعلو فسحة الزقاق، كانت صغيرة تلوذ بباب الدكان، توزع ابتساماتها البريئة، وكلماتها العذبة، تمطرني صباحاتها بسعادة خفية ترسل برودة في القلب في قيظ حزيران

. كبرت رضية وشاخت روحي، فأيّ لقاء سيكون؟ ولماذا تصرّ الصدف على مشاكستي دائماً؟

مضيت مسرعاً صوب البيت، هل كنت أفر من صوتها الذي لاحقني بالسلام وهي تدندن أغنية سميرة توفيق: (بس ارفع ايدك وسلّم سلام الحباب، بس ارفع ايدك)، أم من ضعفي؟

ارتميت على فراشي البارد أحضن دفء ذكريات باهتة، لم أكن أفكر يوماً برضية، كنت أراها طفلة رغم سنواتها الثلاثة عشرة، لكنّي أذكّر تلك التنهيدات الحارّة الّتي تلذع سمعي كلّما صادفتها في النافذة المشرعة لبرودة المساء!

هاهي الآن تحاصرني برسائل صغيرة مع تلميذاتها، تعيد إليّ ذكريات جميلة، وتصف شعورها عندما رأتني في الطريق، (إلى أين تسير بك ظروفك؟)

❖❖❖

كان تنظيمنا في الحركة الوحدوية الاشتراكية سريّاً، هرمياً، يرتكز إلى الخلية، والحلقة، والارتباط الفردي، وقد تغلغلنا بين الطلبة والمعلّمين، وشكّلنا قاعدة عريضة لقيت دعماً شعبياً قوياً، فخرجنا إلى الشارع بشكل علني.

اقترب موعد الاحتفال بعيد الوحدة، اجتمعت قيادتنا لتقرير أسلوب الاحتفال، فاقترح أحدنا أن نشعل النيران فوق قمم الجبال ليلة العيد، واقترح آخر أن نضع متفجرات في أطراف البلدة نثبت بها العيد،

كما يجري في الأعياد الدينية، لم ترق لي الفكرة، واقترحت أن نتصل بمعلّمي المدارس، وأتولى أنا السوق والشارع، والطلاب يقودون المظاهرة.

خرجنا بمظاهرة عارمة نطالب بالوحدة. حاولنا قدر الإمكان تجنب الصدام مع الشرطة، والمحافظة على النظام. كنّا ندرك أنّ "الشعّال" مدير المنطقة له علاقات مع بقايا الجاسوسية الفرنسية الّتي تدعم الانفصال في البلدة، وهو أشد كرهاً لعبد الناصر من شمعون وكولدا مائير، ولم يكن يجرؤ مع هذا السير منفرداً، بل يحيط به رجال الشرطة.

علت البلدة أعلام الوحدة وغطّت صور عبد الناصر الجدران، وملأ النّاس الشوارع، والنسوة فوق السطوح يزغردن ويهنهنّ لجمال فارس الوحدة والوطنية، لا أعلم من أين أتت الطبول تقرع، ولا كيف نفذ السيّافة إلى الساحة وراحوا يلاعبون سيوفهم وأقدامهم تدق الأرض على نغمات الطبل، وازداد حماس النّاس، فماجت الشوارع بالأجساد المتدافعة ولم يعد للشرطة مكان فأغلقوا باب المخفر، واختفى مدير الناحية حين اشتدّ حماس النّاس للخطاب الذي نزف معه الجرح حتّى آخره، كان صوتي يأتي من مكان في الجسد لا أعرفه، الأضلاع والقلب والمعدة واليدين، كلّ ما فيّ كان يصرخ، والنّاس تصفق وتهتف.

هدأ الليل والهتافات مازالت في أذني، طبول تقرع، وقلوب ترقص، وعقلٌ مشوش بالأحلام والأوهام ينتظر فجراً يطلع فيه عبد الناصر معلناً الوحدة من جديد! وحدة عربية شاملة كانت تداعب الرأس مسكرة، فينتشي الجسد ويتمطى ملتذاً!

لم يكن الفجر بعيداً فساعات الحلم تمضي مسرعة، ولم يكن الشعّال ليضيع الوقت سدى، فما كدت أخطو خارج باب الدار حتّى أحاط بي رجاله. لم تنفع مقاومتي ولم يكن أمامي سبيل للهرب بعد

الطوق الشرس الذي لفّ حول جسدي فرفعت صوتي متحدياً، وضربت أحدهم وكسرت الطوق لأضرب آخرين يجرّون طالبين كانا يقودان المظاهرة أمس، هرب الطالبان واجتمع الرجال حولي وصوبوا مسدساتهم إلى صدري، أضحكني الموقف، وكان الشعّال يقف على شرفة داره المطلة على الساحة الغربية، فقال لي أحد رجاله:

- موقوف أنت بأمر من مدير الناحية.

فشتمته هو والمدير بعبارات تليق بقذارتهم. بسرعة اجتمع النّاس محاولين تخليصي من أيدي الشرطة. غشيت عيناي زهواً، لقد أصبحت زعيماً، والسجن للرجال هذا ما كنت أصرخ به لأبعد من جاء ينقذني عن بؤرة الخطر.

تلك الغشاوة دامت عشر سنوات من عمري، ترفدني بيقين أنّ العرب سيتوحدون يوماً ولن تذهب التضحيات هدراً! وأنّ عبد الناصر سيعود لحكم الأمة العربية حكماً ديمقراطياً. وكم كنت غبياً لا لأنّي اعتقلت، بل لثقتي بالعرب! ودخلتُ المخفر محاطاً بالشرطة المدججين بالسلاح، يزرعون الغرفة جيئة وذهاباً، وقد أغلقوا الأبواب، وبين الحين والآخر يفتحون الباب الخارجي ويدفعون إلينا بالطلاب حتّى امتلأ بطن جهنم ولم تعد تقول: (هل من مزيد). كدنا نختنق، أنفاسٌ يكتظ بها الفضاء الضيّق وأجساد تلتفّ حول نفسها لتفسح لغيرها المكان. أمرت أحد الطلبة باعتلاء زميله ليكسر كوة النظارة، فاجتمع النّاس أسفل الكوة ينادون عليه كي يمد رجليه ليسحبوه خارجاً! لم تكن الكوة تتسع للرأس فكيف بالجسد؟ رفعني الطلاب على أجسادهم ووقفت أخطب من الكوة بالنّاس فاشتدّ حماسهم وهاجموا دار مدير الناحية ودور أزلامه، وهم يصرخون بألفاظ تدين الجاسوس والخيانة. فهتف إلى قائد الشرطة طالباً النجدة.

لم يشأ العقيد فواز قائد شرطة المحافظة أن يأتي إلى البلدة لوحده خوفاً من موقف النّاس، فهتف للأستاذ عبد الحميد حميداني، المفتش في مديرية التربية، الرجل الذي عركته الأيام فأحنت ظهرة وبرزت عظام وجهه، فاستجاب للدعوة وطلب من قائد الشرطة عدم اصطحاب قوات معه. فوجئ مدير الناحية بتوبيخ قائد الشرطة الذي أحال أمرنا لقاضي إدلب كي لا نقيم دعوى عليه بجرم حجز الحريات، عقد لنا القاضي محاكمة، وحكم ببراءتنا من جرم شتم مدير الناحية وشتم الحكومة، وتجمع النّاس حول دار مدير الناحية وهم يكيلون له الشتائم ويبصقون عليه. وخرجنا للنّاس الذين حملونا على الأكتاف وطافوا بنا في شوارع البلدة وأزقتها وهم يهتفون، كان هذا أقصى ما استطعنا تحقيقه!

❖❖❖

كانت تتنزه مع تلميذاتها بين الحقول، وكنت وحيداً أعبر الخضرة الساحرة للعدس الذي شبّ عوده فغطّى الأرض ببساط رائع الجمال. كنّ يجمعن لها أزهار الأقحوان وشقائق النعمان، ونسمات الربيع تداعب وجنتيها المتوردتين، وقد خبّأت شعرها بإيشارب عسلي اللون، وجلست أمها بقربها بملحفتها السوداء. لفتت إحدى التلميذات نظرها:

ـ انظري يا آنسة، هذا المدير الجديد.

هل نظرت صوبي حين هطل غيث بارد فبلل القلب وانتشت الروح؟ جذبت إلى المكان بقوة غير مرئية، كنت أشعر بأنّ للربيع سحراً يسحبني وراءه فتختلط أزاهير، ألوان وروائح مسكرة، لكنّي توقفت على بعد خطوات (إلى أين تسير أيّها الأحمق؟ أيّ الدروب ستطرق؟ وهل للحبّ مكان في زمنك البائس هذا؟). استدرت عائداً من حيث أتيت، تبعتني إحدى تلميذاتها وقدّمت لي زهرة نرجس: (إنّها من الآنسة).

داعبت أنفي الرائحة المسكرة احتضنتها كفي طويلاً، قبل أن أتركها تسبح في كأس ماء، تحدّثني بلونها الرائق عن أبدية ذلك الحبّ بينها وبين الماء.

في اليوم التالي وصلتني رسالة مع أحد تلاميذي، كانت رضية تدعوني فيها للغداء عندهم. حين خرجت من المدرسة وجدتها تنتظرني على المرتفع قرب مدرستها، رافقتها صامتاً، كانت تتدفق بأحاديث شتى وأنا أتأمل ذلك السحر المنساب من ملامسة النسيم لوجهها، حمرة طفيفة تعلو الخدين، وابتسامة تتألق على شفتيها بعذوبة، وهي ترفع إليّ نظرات هائمة.

أثناء الغداء فردت رضية ماضيها ومستقبلها أمامي بتلقائية عجيبة وجلبت لي رسائل جاسم، جارهم الذي يلاحقها مذ أصبحت معلّمة وصاحبة دار وعقار وحلي ذهبية. لم أشأ التدخل في الموضوع لكنّها أصرّت على إشراكي، كنت أفهم أنّي دخلت الدوامة ومن الصعب أن أخرج منها مهما حاولت وقاومت. أردت إفهامها أنّ ارتباطها به معقول ما دام يحبها، لكنّها لوت شفتيها انزعاجاً:

- لكنّي لا أحبه، أنا ...

تطلعت فيّ، حدّقت طويلاً، حتّى ارتعش داخلي فتشاغلتُ برشف الشاي. جملتها المفتوحة على الأفق أكثر من واضحة، أفهم أنّها تريدني، لكن كيف أفهمها أنّي لا أصلح زوجاً لها؟

زاد تعلّق رضية بي مع الأيام وكانت تنتهز الفرصة لنبقى لوحدنا، فذهبنا بعيداً في تورطنا بعلاقة حب عقيمة! كانت تزورني في البيت وأزورها، تطبخ وتدعوني، وترسل لي الأزهار، حاصرتني برقتها وأنوثتها وعطائها بلا حدود، لم أعد أستطيع التراجع، غاصت قدميّ في رمالها المتحركة، لكنّ القلب كان يتوقف عند انكساراته المتتالية طالباً مني الفرار، وكيف أفرّ ورضية تنسج الحب حول قلبي وروحي

بدقة ودأب؟ كيف أقنعها بالزواج من جاسم؟ أعرف أنّه قميء، مع هذا هو المنقذ لي من ورطة الحب هذه.

جاءني شرطي إلى المدرسة يحمل برقية من النقيب مدير المباحث في إدلب (دعوة لمقابلة سيادته) خير إن شاء الله، وهل هناك خير يأتي من وراء حكومتهم، السجون كما هي والحراسة مشددة على باب سيادته، والرفيق الذي وجه "السنوبال" إلى صدري أمرني بالوقوف إلى الحائط وأمر آخر بتفتيشي، وهو يقول ساخراً:

- أنت إبراهيم؟ غريب، فكّرتك إبراهيم هنانو، المدير يقول هاتوا إبراهيم، أحضروا إبراهيم، قلت لنفسي أنّك شيء مهم، طلعت رجّال مثلنا!

دخلت غرفة فخمة مفروشة بالأرائك الوثيرة والسجاد العجمي، وسيادته يجلس على كرسي برّام وراء مكتب من الزان، نظر إليّ بعينيه الصغيرتين اللتين تنمان عن خبث، وابتسم ابتسامة باهتة صفراء، ونادى على الحاجب ليأتي بالقهوة، وأومأ لي بالجلوس! ونادى رفيقي إسماعيل وأمره بالجلوس، وقال مباشرة:

- أي شباب، بدّنا نعرف من معكم في التنظيم؟

قدّم لي سيجارة وهو يقول:

- الأستاذ إسماعيل اعترف.

لم يمض وقت طويل على معرفتي بإسماعيل، كان مدرساً للغة الإنكليزية معي في بسامس، وهو فلسطيني أمضى حياته متنقلاً بين مدارس سوريا من الجنوب إلى الشمال. طويل القامة، ممتلئ الجسم، شاحب البشرة، يستعمل نظارة سميكة كبيرة الحجم فلا يبدو من وجهه إلا فمه الرقيق الشفتين وأرنبة أنفه المحمرة دائماً، شعر رأسه خفيف، مائل إلى الشقرة. خلال لقاءاتنا القليلة في الحزب، عرفت أنّ إسماعيل كان طائشاً ومتهوراً وثرثاراً، لكن هل من المعقول أن يعترف

بهذه السهولة؟ إسماعيل خيّب ظني فقد اندفع يشرب القهوة ويثرثر كعادته دون حساب للنتائج. فقاطعته:

- باختصار، نحن وحدويون اشتراكيون، جذورنا بعثية...

قاطعني النقيب:

- أنت كنت بعثياً لكن الأستاذ إسماعيل، لا.

قلت بسرعة:

- أنا مرتبط معه ولا أعرف غيره.

ابتسم النقيب بخبث:

- لا يوجد تنظيم في العالم تتألف خليته من اثنين فقط.

قلت مبتسماً:

- يبدو أنّ تنظيمنا اكتشف أنّ للإنسان يدين اثنتين فأخذ بهذا المبدأ.

تجاوز النقيب سخريتي، وأوضح لي أنّه يعرف كلّ شيء، يعرف أنّنا في أريحا خمسة أنا البعثي الوحيد، إذاً فقد تكلم إسماعيل عن كلّ شيء أراده النقيب، فهو يتباهى ويتفاخر دون أن يدري أنّه وقع فريسة سهلة في فخ كلماته. حاولت التملص بعدم معرفتي، لكنّه واجهني بصراحة:

- لستُ بحاجة لرفاقك، أنا أريد منك أن تتعاون معنا.

نهضت وأنا أقول:

- اعرض الأمر على إسماعيل فهو يحب البوليس، ويجيد الإنكليزية وقد قرأ الكثير لشارلوك هولمز وأرسين لوبين.

وسحبت إسماعيل وأنا أستأذن، فدخل ملازم وصاح بنا بصوت جهوري: (والله لن يدخل عبد الناصر هذه البلاد ثانية إلا على جثتنا). اتضح لي فيما بعد أنّ الملازم المقدام كان عميلا صهيونياً، تابعتُ محاكمته أمام المحكمة العسكرية الّتي كانت تحاكم كوهين!

❖❖❖

أرسل النقيب وحيد بطلبي ثانية لكنّه هذه المرّة لم يكن لطيفاً كما في المرّة الأولى بل كلّمني بحزم:

- أريدك أن تعود إلى الحزب، وصلتني معلومات تقول إنّك تستطيع أن تلهب جبل الزاوية حماساً.

قلت بلا مبالاة:

- المعلومات الّتي وصلتك مبالغ فيها، ففي الجبل زعامات محلية عائلية، شرقية وغربية، فرنسية ووطنية، يمكنكم السيطرة على الجبل بتنظيم رؤوس هذه العائلات.

قال مقاطعاً:

- أنا لا أريد الدخول معك في مشاكل، الأصلح لك أن تكون معنا، سيأتي أمين الفرع الآن، وستكون عضواً في قيادة الفرع لشؤون التنظيم الحزبي، وأنا أتعهد لك أن تصبح محافظاً في فترة وجيزة، وإن شاء الله أراك وزيراً.

لعبت خمرة الأحلام برأسي للحظات فانتشيت، محافظ، وزير! (وتخرج من هوة الفقر والعوز، وتبتعد عن التشرد في القرى ومعالجة البهائم، يا إلهي، هل يعقل أن تبيع عبد الناصر بمنصب؟ ليس عبد الناصر، بل هي الوحدة، لا، لن يكون ذلك أبداً ولو عرضوا عليك الوزارة الآن! وماذا سيقول عنك النّاس؟ أصدقاؤك أوّل من سيفتح عليك بوابات الجحيم، سيرمونك بالخيانة والتذبذب والخداع، ستصبح عميلاً في نظرهم، و..) تركني النقيب لأقابل الرفيق بكّور علّه يقنعني، الرفيق بكّور يكبرني بثلاث سنوات ولكنّي أقدم منه في الحزب، سلّم عليّ بلطف، لكنّي حافظت على فظاظتي، حاورني بهدوء ورقة، ولم أحترمه، لا أعرف ما الذي يدفعني للمشاكسة والعناد هكذا؟ فقد أسأت للرجل واتهمته بالجنون، فقام مغادراً بهدوء دون أن يرد عليّ، وجاء النقيب يسألني إن كنّا اتفقنا، فتماديت في غروري وعنجهيتي

وأعدت على مسامعه نفس الكلام الذي قلته للرفيق بكّور، فقال النقيب:

- هذا مسمى من القيادة ولا أظنك تريد أن أضعك رئيساً للفرع مكانه، أمامك أسبوع تفكر فيه، إمّا إلى الزنزانة، أو إلى عضوية الفرع، وسأريك أياماً تندم فيها على ما تفوهت به بحق رئيس الفرع، لا أعرف لم وصفوك بالذكاء؟! انصرف الآن.

كنت أعيش صراعاً رهيباً، هل أعود إلى الحزب ويقال عني انتهازي وصولي، أم أبقى على مبادئي الّتي لا تغني ولا تسمن من جوع؟

❖❖❖

خرجت من بوابة الجنون إلى جحيم الغرور الذي وسمني بالحماقة والغباء. أدرك جيداً أنّ ما أراه في الأفق سراب خادع، وأنّ ما أدافع عنه مجرد أوهام تشبثت بمخيلتي، وسيطرت على وعيي تماماً. ورحت أصارع طواحين الهواء بسيف خشبي.

بسيفي المثلوم ذاك ظننت أنّي طعنت رئيس الحرس القومي، ورئيس الدورية حين جعلته يأمر الحرس بمتابعة السيّارة - الّتي حُشرت فيها - مشياً ريثما نصل (الرام) بعيداً عن البلدة. لم أكن أريد أن يقال أنّهم ساقوني أمامهم كالنعجة، ولم أدرك أنّ الأسباب تتعدد والموت واحد. فما همّ ما دام السجن في انتظاري؟

أعرف أنّ الرفيق ناصر وافق على طلبي لأنّه هو الآخر كان ناصرياً، لكنّه يفكّر بعقله، ويضع الخبز كأولوية للعيش لا السياسة. أعترف أنّي لم أملك الحكمة الّتي تؤهلني للتفكير بمعدتي، رغم أنّها كانت مشكلتي الصحية الأساسية.

دفعوني إلى النظارة فوجدت في الغرفة طلاباً في الثانوية، يحملون مناشير أتلفتها لهم في المرحاض وعلّمتهم ماذا يقولون أمام المحقق، لم

أر بعدها من الرفاق إلا رأس ذنب الثور يحفر الجلد ويأكل اللحم! فقد وشى بي أحدهم بعد صفعة من المحقق أخلّت بتوازنه، ولم يكن أصلاً يحتمل، ولم تعد للأستاذ هيبة، فقد حلّت على لسانه ألفاظ قذرة وشتائم هي كلّ ما يملك تجاه رفاق الأمس!

نُقلت بسيّارة المباحث إلى زابوق ضيّق خلف المقهى في الساحة الغربية في إدلب، حططت الرحال في دار فسيحة أرضها مبلطة بالحجارة البيضاء، تتكئ في زاويتها شجرة كباد ضخمة محنية على باب خشبي عتيق، على جانبها باب قبو تدمع عيونها على درجاته القذرة الّتي احتوت خطواتي المتعثرة قبل أن أجد نفسي في قبو معتم كان إسطبلاً للدواب!

فاحت رائحة رطوبة نتنة ما تزال تحمل ريح البهائم الّتي مارست حياتها هنا.

شعرت بالجدران تقترب كثيراً وتكاد تطبق على أنفاسي، حاولت استحضار الحلم، وخلق كوة تشرق منها الشمس في سقف القبو، لكنّي فشلت، تحسست جنبي بألم، كان هناك شيء مفقود، لم تعثر يدي على بقايا جيب عميق لجلابية مهترئة، ولم تتحسس أصابعي تفاصيل صورة، ينبعث الربيع من جنباتها، وتتألق فيها ابتسامة هادئة لوجه سيدة صغيرة متزنة!

تمددت فوق الأرض الترابية ورحت أنبش خلايا العتمة علّ وجهاً من وجوه الذين مرّوا من هنا أيام " أبو علي " ـ نعمان عبدو، و"أبو فلان"، وإبراهيم النبعة، وغيرهم من رجال الحرس الحديدي ـ يضحك من تشابه الأيام. تنهدت بعمق، ما أقرب اليوم إلى الأمس، الخان هو، هو، الوجوه تغيّرت، أبو علي رحل مخلّفاً ظلمه الرهيب تشهد جدران الخان عليه.

جاءني السجّان بلحاف وفراش من فندق قذر مجاور، لا زالت آثار البول ورائحته تفوح منه. همس لي الرفيق ناصر: (سيأتيك المحافظ والنقيب، امتثل لطلباتهم وإلا لن تخرج من هنا). قرقعت الأقفال، وسمعت نحنحة المفاتيح وأنين الباب الثقيل، وتراءت لي خيولٌ تصهل ودبابات تعبر فوق جسدي، وسبحت في بحيرة من اللزوجة الخانقة (إنّها الحرب، حريك، فأين المفر؟).

لم يخطر ببالي يوماً أن يصبح السجّان صديقاً لي، لكنّه فعلها بكلّ طيبة ومودة، ترك لي الباب مفتوحاً، وسمح لي بالاستلقاء على سريره في غفلة من رؤسائه، هل يمكن أن أقول ما أشبه اليوم بالأمس؟

فرصة التنفس تلك أعطتني فرصة أخرى للتفكير فيما وصلت إليه، قضيت أياماً أفكّر في الممكن والمستحيل، المزاوجة بين كلّ تلك التناقضات أمر مستحيل، هذا ما وجدته في طريقي المسدود أبداً. اتبعوا معي سياسة الترهيب، يجلدون أمامي الرجل حتّى يكسروا ضلوعه وروحي، ويبول دماً فأرى النزف في جلدي! ويرمونني في القبو الرطب علّ القذارة تستفزني لطلب الهواء النقي، ولم يخطر لهم أنّ النوم مع الخضراء (صديقتي الحمارة) كان ملاذي في طفولتي!

لكنّ أنين الرجل وصوت عصيهم أطار أمان القبو إلى الأبد.

هل كانت مفاجأة لي أن أرى معروفاً في السجن؟ تدحرج أمامي مقيّداً ينزف بصمت. تطلع في عينيّ بثبات: (ألم تعرفني أستاذ؟) ربّما للوهلة الأولى لم أستطع تبين ملامحه في العتمة، لكن كيف لا أعرفه؟ معروف الرجل الضخم القوي، لو ترك حرّاً من القيد لصرعهم جميعاً، أدركت أنّهم تعمدوا تعذيبه ورميه على تلك الصورة أمامي، وهم يعرفون جيداً أنّي التقيت به في قرية منطف، والتهمة الموجهة إليه المتاجرة بالسلاح (مع أنّهم يقاسمونه الأرباح). كانوا يصرّون أثناء تعذيبه على انتزاع اعتراف منه بشراكتي له، لكنّ معروفاً رفض

الاعـتراف، وبقـي ثابتـاً علـى أقوالـه حتّـى أغمـي عليـه، ونقـل إلى المستشفى.

استـدعاني الرقيـب ناصـر، والتـفّ حـولي زبانيتـه علـى استعداد لتقطيع اللحم ورميه للكلاب، زجرهم بنظرة صارمة، وانتقل معي إلى غرفة ثانية محاولاً إقناعي بالتخلي عن عنادي، وأمام إصراري تنفس الصعداء وقال بلطف:

- ليس لدينا في الواقع أوامر بتعذيبك، طلبوا منّا تهديدك فقط، هم بصراحة أذكى منـك بكثير، لا يريـدون أن يصنعوا منـك بطـلاً، وأنـت عليك أن تدرك أنّك تقاتل الهـواء. أنـا أوضـحت لـك الـصورة وأنـت حـر، وأنصحك ألا تعترف، لأنّهم سيحيلونك إلى محكمة الأمن القومي.

كان الرقيب ناصر أكرم مما تصورت فقد أمر بعدم إنزالي إلى القبو وبقائي في المهجع بين الجنود وإحضار الجرائد لي! يومياً يستدعيني إلى التحقيق، ويكرر نفس الأسئلة وأكرر نفس الأجوبة حتّى أطلق سراحي!

الخروج إلى التيه...

تساءل بمرارة عالقة بحلقه عن جدوى مواجهته الشرسة مع الضوء، الأبيض يطغى، النور يحرق عينيه، الإسفلت بلونه الرمادي يحضن الخطوات المتعثرة بأمسها القريب. لم يكن الرمادي يثير كآبته فقد تعوّد اللون الباهت لجدران السجن، وأصبحت الألوان الزاهية في واجهات المحلات تضغط على ما تبقى من أعصاب في الجسد المنهك.

يقف على عتبة غربة جديدة، لا يعرف إن كان سيتأقلم مع تفاصيلها الصاخبة أم سينسحب داخل قوقعته الحلزونية. يتساءل إن كان الآتي يستحق ما مضى؟ يجب أن يعترف أنّ السجن هو المذلة والهوان مادام أحط النّاس يتناوله بالعقاب ويتسلط عليه بقذارته، يجب أن يعترف بلا جدوى ما مضى.

ضحك لخاطر مرّ في ذهنه (النضال لهدم سجن الشيخ حسن). تلفت حوله خشية أن يعتبره المارّة مجنوناً، لم يكن أحدهم قد انتبه لهيئته الغريبة أو ضحكه الهستيري. وجد نفسه بعد تيه ساعات في المقبرة مقابل (دار الإصلاح)، نظر إلى المكان الأليف من الخارج، تساءل بحرقة: (هل اختلف الوضع وأنت خارج الأسوار؟). تقدم خطوات تجاه البوابة، صرخ به الشرطي كي يبتعد. اتكأ على الجدار المتداعي للمقبرة ودمعت عيناه (إلى أين؟ هل في الأرض متسع لك، ها أنت قد نلت حريتك، ماذا تريد بعد؟). مرّت سيّدة ترتدي فراء ثعلب وتحمل مظلة، نظرت إليه بإشفاق، لم يكن قد لاحظ بعد أنّ ثيابه المبللة قد كشفت تضاريس الهزال في جسده، وأنّ ذقنه الشائكة قد غطّت وسامته، وأنّ نظراته التائهة، خطفت مشاعر السيّدة فرمت له ربع ليرة وهي تسرع الخطى!

لا زال يتفقد جسده بنظرات بلهاء ويتحسسه غير مصدق أنّه خارج (القيادة العامة)، وأنّه يمشي على قدميه! هل حقّاً خرج من هناك؟ الغريب أنّ العقيد لم يقابله، لم يركله أحد، لم يُصفع، لم يلكزه جلادٌ بعصا في...

يجب أن يصدّق أنّ الجلاد نهض متثاقلاً من وراء طاولته وهو يترنح من أثر المخدر، وأنّه احتاج وقتاً كي يتذكره، وأنّه طلب منه التوقيع على أوراق، وطلب منه بابتسامة مريبة أن يحضر كلّ خميس لرؤيته!

(هل شاهدتَ شيئاً؟ هل ضربك أحد؟ لم يطلبوا لك قهوة! سأعاقب العسكري المسؤول.)

لا زالت كلمات الجلاد تتضخم، تطرق جدران الدماغ، فيشعر بالصداع يفتت قدرته على التركيز. تلفت حوله، لا أحد يلاحقه، هو حر، يسير على قدميه، يعبُ الهواء ما شاء له، يضرب الأرض بقدميه، يصرخ عالياً، ويضحك.

وقف على الرصيف، فتح عينيه جيداً، حدّق بالمارة، السيّارات، العربات، تلمّس ثيابه ثانية وفتش جيوبه، قبض على ربع الليرة، شعر بالدفء، وانحرف صوب باب الفرج. هاجمته رائحة الشواء فانتفضت أمعاؤه، ربع ليرة! تكفيه ثمن فنجان قهوة. جلس في مقهى شعبي مقابل ساعة باب الفرج، دخّن بشراهة، وشعر أنّ للقهوة طعماً يشبه لذة الطيران بجناحي يمامة.

تدفقت كلمات جميلة داعبت مخيلته (الحريّة) حرية الطيران، حرية التنفس، انتقل بإغماضه صغيرة إلى سهول فسيحة من القمح، لمح زهور النرجس تتمايل على الرابية العالية، ووجه رضية يبتسم فتخضرّ الحقول، وتنعس شقائق النعمان على خديها، انتفض من قسوة الحلم، أيّة حريّة يعيش في وطن يرفع شعارات جوفاء و يبني المعتقلات؟ أيّة حريّة في وطن جلادوه خبراء في فن التعذيب، وحكّامه يتشبثون بأوهام

المجد والسلطة؟ (مع هذا أنت حر، لقد خرجت قدماك من القفص، لا تسأل عن الروح، ربّما تداويها الأيام!).

كان ينتظر وصوله إلى بلدته بفارغ الصبر، به لهفة للقاء النّاس، للحديث مع أيّ إنسان.

حين وقفت الحافلة في الساحة وجد نفسه وحيداً، النّاس يمضون لشؤونهم دون تحيّة أو سؤال! هل أصبح غريباً أم هو الزمن؟ زمنهم الذي لم يعد له مكان فيه!

حين ولج باب بيته، هاجمته رائحة العفونة والفراغ، أحسّ بانقباض في صدره، قلّص ضلوعه واقتلع من حلقه آهة كوت جلده. الضوء الأصفر الباهت أرسل وحشة إضافية في المكان، رأى الأشياء الصغيرة المكوّمة في الزاوية، أشياؤه! ضحك جمال وهو يخطو صوبه بثقة، فتح ذراعيه مبتسماً فاحتضنتا الفراغ! تسللت دمعةٌ مشاكسة بين الشعيرات القاسية لذقنه، حاول أن يضحك، رفع صوته بالغناء، فتحشرجت الكلمات، وخرجت باردة كئيبة. تراها تجلس على أفق الأقحوان لتكتب له رسالة مختصرة (بس ارفع ايدك، وسلّم سلام الأحباب)؟ لمْ يكن قبل رسالتها تلك يحب هذه الأغاني، كان ما يشدّه إلى المذياع أخبار صوت العرب، وصوت أم كلثوم يشدو بالروائع كلّ خميس، وخطابات عبد الناصر. كان ذلك الصوت يأسره بحزمه ورقته ورنينه المميز، هل قال إنّه أحبَّ صوته؟ لم يكن حبّاً ذاك الذي رمى به إلى المعتقل، بل حماقة، يرى نتائجها بوضوح.

تهالك على الفراش، لا يدري هل كان غافياً حين اقتلعه من مكانه طرق على الباب، فوجد نفسه يصعد السطح قافزاً! تخلّى عن فزعه حين أدرك أنّه حر، ضحك وهو يعود إلى فسحة الدار ويقترب من الباب ليرى من الطارق، دلف شخصان ملثمان يتلفتان خلفهما وأغلقا الباب بسرعة، ضحك ملء جوارحه حين احتضنه هاشم: (الحمد لله

على سلامتك أبو جمال). وبقي جودت منزوياً قرب الباب. تجاوزت الساعة منتصف الليل. جاءا حذرين فزعين، هل أصبح خطراً عليهم، ولماذا يأتون ما داموا يخشون أن يراهم عملاء السلطة؟ أطاح الشوق بمرارة حلقه، اعتذر عن صنع القهوة، لم يكن يملك شيئاً يقدّمه سوى الحديث عن السلّال، ومحمد حيصو، والجدران العالية.

حين غادرا شعر بارتياح. تنفس بعمق وذهب في إغفاءة قصيرة.

انفتحت بوابة الذاكرة، صرّ الحديد الصدئ معيداً بأنينه الرتيب وجهها إلى القلب، أحسّ للحظات أنّها ستنفر طالعة من أعواد الدالية اليابسة، وستتقاطر شهداً على شفتيه. كانت الغيوم المغادرة لفسحة الدار تحكي تلك الحكاية الصباحية لفنجان قهوتها المقلوب، هنا كانت تدمع عيناها، وتسكب بقايا الشكوى وهي تطالع مجلتها المفضلة وتهدهد جمال. هل كان عليها أن ترحل ليدرك كم من الفجائع مرّت في حياته تاركة أبواب القلب منزوعة المزاليج؟ هاهو وجهه الصغير يريك وجوده ببسمة وحروف منداة بالباء، يهمسها فتخرج منغمة على وقع دقات القلب. يقترب منه، يداعب بيده الصغيرة شعره، ينهض فزعاً (كم مرّ من العمر مذ كنتَ على أعتاب بوابة الشمال؟ العمر لا تحصيه بالسنوات الّتي مرّت وأنت تصارع لإثبات وجودك، بل بذاك الكم الهائل من الانكسارات والهزائم الّتي مرّت على الروح فشاخت قبل الأوان). تنهد والزمن يستدرجه إلى فخه، فيشعر أنّه لم يبارح العتبة، وأنّ حافلة "أبو النوري" ما زالت بانتظاره!

وجد نفسه ثانية حيث اعتقل، لكنّ النّاس غير النّاس، زهرة النرجس ذبلت على الرابية، اقتلعتها يد قذرة، ورمت بها في أحضان جاسم، تزوجت رضية، ربّما يئست من انتظاره، ربّما أفلحت جهود ملوك الجان الّتي لجأ جاسم إليها لتوافق على الارتباط به. أم أنور

أول الغيث

(المخابرات من أمامك، والحرس القومي من ورائك، والمباحث تحيط بديارك، والإذاعة تشتمك، فأين المفر؟ كان لا بدّ أن تتوارى عن الأنظار ريثما تهدأ العاصفة، ها أنت أعزل في مواجهة الطوفان، لا بوصلة، ولا مرساة! تحسست الدرب الصاعد إلى الوعرة بعصاك، الليل الحالك العتمة لا ينيره قمر في السماء، والقلب تقوده حاجته إلى الأمان، لكنّ الأعمى يعرف دربه فهو ابن الأرض، عانقت خطواته دروبها الوعرة صغيراً، فكيف تغفل عن حمايته كبيراً؟).

احتضنتني صخور الوعرة الكبيرة حيث وضعت فراشاً وطعاماً وغطست في أوراقي، أستعيد أمجاداً تافهة! هل حقّاً كلّ محاولاتي تلك كانت بلا جدوى؟ في قربي من السماء كانت الخواطر تسير بي بعيداً، فتلتحف نظراتي الغيم الشارد في أحضان الزرقة لأجد نفسي تتوق إلى خالقها، لماذا كلّ ذلك اللهاث وراء الكلمة.؟ توضأت لصلاة الفجر، وجلست ارتعش من النسمات الباردة، أحاول الوصول إلى حل لما أنا فيه. لم يكن اتخاذ القرار سهلاً، لكن كان عليّ اتخاذه بسرعة، فقد علمت أنّ الرفاق اجتمعوا في شعبة الحزب - وقد عرفوا مكاني - ليختاروا من سيهاجمني في هذا الحصن القريب من السماء، لكن من اختاروه رفض الصعود إليّ ورمى سلاحه قائلاً: (وما أدراكم أنّه غير مسلح، سيصطادنا من مكمنه كالعصافير). كان محقّاً في انكشاف السهل والدرب لي، لكنّهم لم يعرفوا أنّي لا أملك من الرصاص سوى قلم بائس أسطّر به خواطر صوفية، أبعدتني عن جوّ الرواية والقصّة والكتب السياسية، حتّى خشيت للحظات أن يمتد الأمر بي فأصبح درويشاً!

ثلاث صفرات من الدرب وصلت سمعي لتنقذني من حمى التفكير في ليلتي الثالثة في الوعرة. اختبأت بين أغصان شجرة باسقة أراقب منها الدرب، صاح إسماعيل:

- لا تخف، نحن نبحث عن الحمار.

قفزت أرضاً، وأنا أقول:

- ربّما ذهب يشرب من العين الكبيرة، كيف الأحوال؟

أشعلنا النّار، وصنعنا الشاي، ومحمود يحكي لي قصّة النجس الذي يريد اصطيادي:

- يجب أن تتدبر أمرك وتخرج من هنا .

وإسماعيل يتذمر:

- يا الله، أنبقى مشردين هكذا؟ إلى متى؟

كنت أضع في ذهني خطة الهرب مع رشفات الشاي، لا بدّ من المغادرة إلى لبنان ريثما تستقرّ أمور البلد . قال إسماعيل بيأس:

- وهل تعتقد أنّ الأمور ستستقر؟ والله أنت تحلم، سيحكمون مائة سنة بشعارات مختلفة وسيموت عبد الناصر، ويأتي غيره، وستبقى أنت داخل محارتك لا تدري ماذا تفعل.

زجره محمود بمرح:

- يا رجل وهل سيعيش مائة سنة ليرى بنفسه؟ وقتها ليكن الطوفان، المهم أن لا ينحني الآن للعاصفة.

ردّ إسماعيل:

- أنت تقوده للتهلكة، لماذا لا تنضم إلى حزبه ما دمت متحمساً إلى هذه الدرجة.

ابتسم محمود بهدوء:

- أنا من حزب الصداقة، نحن لم نفترق مذ كنا في الابتدائي ولن تفرّقنا السياسة يا إسماعيل بيك، وأنا أُكبِر فيه هذا العناد وإن لم أره محقّاً فيه.

كان إسماعيل يعتقد أنّ للموساد يداً فيما يحدث، لكنّي كنت أستبعد ذلك، وأعتقد أنّ المشكلة في الأشخاص الذين يحكمون البلد. لم تعجب إسماعيل فكرة الهرب إلى لبنان فاتخذت قراراً بالذهاب وحدي، تقدّمنا محمود وسرنا خلفه حذرين.

❖❖❖

لم أشعر بفزع مماثل قبل الآن، كنت أخشى أن تهين الكلاب المسعورة كرامتي، على الرغم مما أثيره من فزع بينهم، إلاّ أنّي كنت أدرك أنّ أوباشهم من يحكم، وعليّ الحذر بدل التمادي في اللامبالاة. غادرت إلى بسامس علّي أجد أماناً افتقدته في البلدة بعد أن انفضّ النّاس عني، الجميع أدركوا أنّ مصالحهم لم تعد في الوحدة ولا عند عبد الناصر، وأنا لم أعد أستطيع تحقيق الحلم الذي كويت بناره وخرجت رائحته لخنق من حولي.

كانت الحقول الفسيحة ملاذي نهاراً، وسطح البيت سريري ليلاً، أقضي النهار نائماً بهدوء، تحرسني مجموعة من شباب القرية، يرافقني المذياع والقلم. لكنّ الإقامة طالت وتسرب الملل والخوف إلى قلبي، فغادرت إلى الروج ومكثت هناك على سفح جبل الزاوية الغربي أكثر من أسبوع حتّى امتدت يد الفراغ إلى عنقي فكادت تخنقني، وقررت العودة إلى البلدة، ارتديت عقالاً وجلابية وتزنرت بعدد من البطاقات الشخصية لأصدقائي تحميني من نقاط التفتيش. ونمت ليلتي على السطح في دار"أبو حشيش" وأنا أشعر بسعادة غامرة، انتبهت منها على صوت الكلاب تنبح بشدّة، رميت بنظري إلى الزقاق،

فرأيتهم أمام الباب تتعالى طرقاتهم ولغطهم، فقفزت إلى سطح الجيران، وخرجت من الزقاق الآخر، حثثت خطاي حتّى قطعت المسافة إلى الطريق العام، فكمنت وراء الأشجار بانتظار سيّارة عابرة.

سمعت صوتاً هادراً لسيّارة قادمة، وأطلّ عليّ صهريج رمادي اللون، كبح السائق الفرامل حين رآني، وصعدت إلى جانبه مسرعاً، كان السائق بمفرده، نظر إليّ بعينين تلمعان في ضوء الصباح المتسلل على استحياء من النافذة، نظرته تركت في نفسي حذراً، فتأملت وجهه الشاحب النحيل ويديه القويتين اللتين أطبقتا على المقود بإحكام وأنا أتساءل: (هل وقعت؟). ترددت نظراته المستفسرة بيني وبين الطريق، قدّمت له سيجارة فاعتذر، أشعلتها وقلت بحذر:

- تلقيت هاتفاً يقول: (إنّ سيّارة بطيخ لي قد تدهورت في الطريق) سأنزل عندما أجدها.

نظر إليّ مرتاباً:

- جاكيتك يوب مو متناسبة مع جلابيتك، ايدك عم تضوي، و عم تدخن بافرا، عليّ الطلاق أنت أفندي، ومانك تاجر بطيخ.

فتحت فمي دهشة، فقال مردفاً بود:

- بريك، مو ناصري هربان من الاعتقال؟

أسقط بيدي، فاستوقفته:

- قف أبو الشباب، خذ يمينك وأنزلني، لقد نسيت أوراق السيّارة.

قال بلهجة حلبية عميقة:

- ما تخاف يوب، أنا من الكلاسة، ناصري مثلك، شوف.

وكشف لي عن ظهره، فرأيت حفراً سوداء، وأخاديد طويلة، يا إلهي أيّ تعذيب هذا، صرخت وأنا أغمض عيني رغماً عني:

- يا لطيف.

تابعنا الطريق بعد أن أمرني بخلع الجاكيت، وتلويث يدي بالشحم، وعلّمني أن أنزل عند كلّ حاجز لأتفقد دواليب السيّارة، كأنّي معاونه. عند سهل الروج تخطينا أوّل دورية، و عند وصولنا دورية "جنْقَرَة" كانت قد سدّت منتصف الطريق، فضغط الزمور بشدّة، ومدَّ رأسه من النافذة وهو يصرخ:

ـ بعدوا شباب، ما معي فرين.

لكنّ المصيبة كانت تنتظرنا على جسر العاصي، فقد سدّت الدورية الطريق تماماً وإذا انحرفنا عنها سنقع في النّهر، توقفنا أمامها، ونزلتُ لأعاين الدواليب. سدّد أحد الصعاليك "السانوبال" إلى صدري وهو يصرخ:

ـ ماذا تفعل؟

عقد الرعب لساني لكنّي أخرجت هوية عمر النجار وأريته إياها قائلاً:

ـ أتفقد الدواليب.

ـ اصعد يا غبي، ليس هذا وقته، ألا ترى رتل السيّارات؟ قل لمعلّمك يفسح الطريق.

صعدت السيّارة وضربات قلبي تزداد اضطراباً حتّى تشوشت الرؤية أمام عينيّ، لاحظ السائق ذلك وهو يطير بصهريجه الضخم:

ـ ما عليك، أكيد الدوخة من الجوع.

توقف في (الجسر) أمام أحد المطاعم وأحضر رغيفين من الخبز ولحماً مشوياً، وحلف أيماناً مغلظة كي آكل، فامتثلت. في القسطل هبّت علينا نسمات منعشة من أشجار الدلب الباسقة، شربنا قهوة واشترى لي سجائر وحلف مجدداً بالطلاق كي آخذها!

عندما وصلنا اللاذقية ناولني الجاكيت ودعا لي بالوصول إلى لبنان سالماً. عندما ارتديته اكتشفت أنّه وضع لي في جيب السترة خمساً

وعشرين ليرة! عرّجت شمالاً ودخلت في الزقاق، طرقت الباب بحذر، ردّ الخواء في الداخل (ما في حدا).

❖❖❖

تأخرت الجدة العجوز في الوصول وكدت أغفو على عتبة الدار لولا خوفي من عيون العابرين ليلاً. جاءت بقامتها القصيرة النحيلة وظهرها المحني أمام عواصف الأيام وعربدة الزمن، وقد برزت عظام وجهها من جلد مليء بالتجاعيد والطيبة. جدة أمينة مدمنة على التدخين، علبتها التنك الصفراء مليئة بالتبغ الثقيل الأسود المفروم بشكل خيوط ناعمة طويلة، لا تكاد تطفئ السيجارة حتّى تشعل غيرها، والسعال يتشبث بحنجرتها فيخرج الكلام متقطعاً متناثراً ممزوجاً برماد مقيم في جسدها. حين فهمتُ الموقف أمرتني بحزم أن لا أغادر البيت ولا أشعل الفانوس حتّى تعود من جولتها. ارتدت ملحفتها السوداء وحذاءها الأسود المسطح وخرجت مسرعة.

رحت أبعد شبح القلق بالتدخين، انفثه دوائر رمادية في العتمة وأدعو أن توفق الجدة في بحثها عن فلوكة تنقلني إلى طرابلس. أمشي بحذر إلى الباب، أتطلّع من الثقوب إلى الزقاق، هدوء تقطعه شمس ابنة الجيران القمرية الوجه بعزفها على الأكورديون! وتمرّ بخاطري ليالي السجن في إدلب، كانت نزهة بجانب ما رأيته من آثار على جسد السائق!

❖❖❖

هدأ الليل وخفت الحركة ولم يعد يسمع في الأزقة إلا وقع خطواتنا الخفيفة المتجهة إلى البحر، وأصوات السكارى يترنحون قرب الشاطئ. علا هدير البحر وتلاطمت الأمواج، واشتدت العاصفة، أمطارٌ غزيرة

حاصرتنا فلم أعد أرى شيئاً سوى مصير أسود اجتاح القلب قبل العين، فتصاعدت ضرياته موجعة، القارب يتقدم بنا لا يلوي على شيء والبحارة يشدّون الأشرعة. سكون غريب علا سطح البحر، فأصبح كبقعة زيت لزجة، مقدمة القارب تشقّ طريقها بصعوبة، جسدي يميل يميناً ويرتطم بالقاع! العتمة المريبة تشكّل هوة من الخوف، ترتد نظراتي إلى أسفل، لا أستطيع فهم ما يجري، تغلغل في صدري بخارٌ ساخن، خلته ملأ الرئة، وبدأ يقبض على أنفاسي، إنّه الضباب! ضباب كثيف وضعنا في فخ الحيرة. البحارة الأشداء يتصايحون، ويتراكضون، يجمعون الأشرعة بمهارة ممزوجة بالخوف، لا أفهم ما يقولون، فقط الإحساس بالفزع سيطر عليّ، هو وحده كان قادراً على اجتياحي دون استئذان، اشتدت العاصفة، وهطل مطر أسود غريب الوقع، حباته القاسية تلسع جلدي بسياط باردة فتتجمد أصابعي الملتصقة بملابسي الرقيقة، فجأة دوى صوت رهيب، انشطر القارب نصفين، إثر اصطدامه بصخرة عالية، ووجدت نفسي أصرخ وأخرج رأسي من الماء محاولاً التنفس دون جدوى، أصرخ ولا أحد يجيبني، لكنّ يد الجدة كانت قريبة من كتفي وهي تهزني:

- استيقظ، الرجل بالباب ينتظرك.

نهضت مذعوراً، هل كنت أحلم؟ سلختُ جسدي من لجّة الحلم السوداء، ارتديت ملابسي على عجل، وسرت وراء "أبو تركي" صوب البحر وشيء غامض يوسوس لي: (عد أدراجك) كدت أنصاع لصوت الحلم المحذر من عاصفة وشيكة، لكنّ نجوم السماء الصافية ضحكت ساخرة من خوفي وهي تقول: (أيّة عواصف؟ إنّها داخلك فقط). كنت أسير وراء الصياد "أبو تركي" منوّما وأسئلة كثيرة تطحنني وتُعثر خطواتي، يبرز السؤال الأكثر إلحاحاً في نفسي، لماذا؟ لأجل من؟ لكنّ المناضلين الشرفاء عبر التاريخ يبرزون لي في العتمة ودماؤهم تروي

الأرض، وهم يستنكرون تخاذلي: (هل ناضل أحدهم لأجل مكسب شخصي؟ إذاً عليك أن ترى بوضوح هدفك الذي تسعى إليه).

بدأ الهدف يتضح أمامي، وشعرت بهدوء نسبي، فقد كانت معالم البحر واضحة ووجوه البحارة الصارمة تتحدى الموج بالخوض فيه بسيقان عارية، والقيود جاهزة بأيدي الحرس القومي الذي ينتظرني على الشاطئ!

❖❖❖

وجدت نفسي هذه المرّة في زنزانة منفردة في السجن المدني بإدلب مع خابية ماء على أرض رطبة عارية، سرعان ما أرسل لي أحد المساجين حصيرة من القش، أدخلها من بين القضبان، فقد ذاع صيتي بين المساجين الذين تحدوا الحراس في الاقتراب من زنزانتي والحديث معي أثناء فسحة التنفس، ووجدت حرجي قد امتلأ بالفاكهة والدخان، وامتدت يدٌ بالشاي الساخن، واتفق مختار "رام حمدان" مع السجّان على نقلي إلى غرفته ليلاً! وجدت نفسي وجهاً لوجه مع رجل قلّ مثيله في الرجال، مربوع القامة، ممتلئ الجسم، مفتول الساعدين، مستدير الوجه، واسع العينين، يتدفق النور من وجهه غامراً من حوله بالأمان، شعرت وأنا أتربع على الفراش بجانبه أنّ الأمكنة تكتسب رحابتها من البشر المقيمين فيها. المختار متهم بالقتل وينفي التهمة عن نفسه وقد اتخذ من السجن "أوضة" يخدمه فيها "عزو" كما يخدم الأغوات، يلبي الطلبات بسرعة البرق، دقّ وابور الكاز، وحضّر الطعام، والتفّ الجميع حول المائدة، وشغلتنا الأحاديث طوال الليل حول الوحدة والانفصال، ولم أشعر بالنعاس أو الإرهاق. وفي الصباح الباكر أسرع السجّان لينقلني إلى المنفردة وهو يلهث فقد حضرت المباحث!

أشعلت سيجارة ورحت أنفثها في المجال الضيّق للشرنقة المحيطة بجسدي المتقوقع على شكل حلزونة سمجة. اصطكت الأقفال مصدرة ضجيجاً أعقبه أنين ممطوط للباب، لكنّي لم أتحرك. دخل النقيب وحيد ومعه الملازم "معزا" و شخص ثالث لم أعرفه، لفت انتباهي هدوؤه المريب ونعومته ورصانته ونظراته المتأملة لكلّ ما حوله. أمرني النقيب باللحاق به إلى المكتب. دخلت غرفة مكتب مدير السجن من الباب المفتوح على البهو. في الغرفة سريران عسكريان، وطاولة من الزان وأخرى من الدف. جلس النقيب وراء طاولة المدير ومعزا وراء طاولة مساعده وبجانبه ذلك الشخص الغريب! جلستُ على السرير العسكري ووجهي إلى النقيب، شعرت بنظرات الغريب المتأمّلة، فحدّقت فيه بلا مبالاة، كان يرتدي سترة سبور وسروالاً رمادياً، ظننت للوهلة الأوّلى أنّه رسام لكثرة ما تفحصني، صاح بي معزا بحنق:

ـ أطفئ السيجارة يا أستاذ، يا محامي المستقبل، يا ناصري.

ضربه الغريب على يده بلطف، ولكنّي نظرت إليه باستهزاء:

ـ غداً إذا ساقوك إليّ وأنا رئيس محكمة الجنايات فسأحكم عليك بالإعدام بجرم الخيانة العظمى والتعامل مع العدو إن شاء الله.

لم أكن أدرك إلى أيّ مدى أثرت كلماتي بالفنان الهادئ الذي امتقع وجهه وأطرق أرضاً. وأخذ معزا يرتجف وهو يصرخ بي:

ـ سنرى من سيعلّق على حبل المشنقة يا وغد.

قلت هازئاً:

ـ لو كنتَ جمال باشا، سأضع على رأسي عمامة الشيخ عبد الحميد الزهراوي.

لولا وجود النقيب وحيد ربّما تطور الأمر من الشتائم المتبادلة إلى استعمال الأيدي، لكنّه أمر معزا بالهدوء كي يكمل التحقيق معي.

عرض عليّ النقيب التعاون معهم، ضرب الدم دماغي ولم أعد أرى أمامي، في البداية كانوا يريدونني عضواً في القيادة، الآن عميلاً! (يعني سأترفع إلى رتبة جاسوس؟ وربّما طلبتم مني الذهاب إلى فلسطين!)، قلت ذلك وأنا أشعر بالأرض تلفّ بي، أدخل بيوت أصدقائي وأشي بهم؟ هل هذه الخدمة الوطنية الّتي يطلبها مني النقيب وحيد الذي احترمته يوماً لاعتقادي بحياده ونزاهته!؟

بعد نقاش عقيم لم يكن أمام النقيب سوى إحالتي لمحكمة الأمن القومي!

فيما بعد حضرت محاكمة الغريب الذي كان يدعى "كوهين" بتهمة التجسس على أمن سوريا لمصلحة اليهود!

❖❖❖

لم يكن مفاجئاً لي أن أرى إسماعيل بجانبي في السيّارة، قال بمرح: (هذا أنت). رمقته بصمت، وتبعت عيناي أثر العجلات على أرض ترابية ما لبثت أن تحوّلت إلى سهم أسود ممتد إلى ما لانهاية.

أدخلونا إلى قاضي الفرد العسكري، تصفّح الضبط وقال منفعلاً: (هذا ليس اختصاصي، خذهم للمحامي العام). صعدنا إلى السيّارة، جابت بنا الطرقات إلى السراي. المحامي العام رفض استلام القضية، ورحّلنا إلى الشرطة العسكرية. انتظرنا في ساحة واسعة،ورئيس الشرطة لم يحضر حتّى الخامسة عصراً، ونحن نرتجف من الجوع والعطش، وخارت قوانا فجلسنا على درج الغرف ننتظر جلادينا ليقرروا مصيرنا، رحمة السماء هبطت علينا على شكل مساعد رأف بحالنا فأدخلنا المهجع وأجلسنا على أسرّة حديدية، واستطاع أخي محمد طاهر النفاذ إلينا بعد أن تابعنا بسيارته من إدلب إلى حلب، وجلب لنا الطعام والفواكه، جلس بجانبي ونظراته تلومني على ما

فعلت، همس متألماً: (أخوك خالد معتقل في الضّمير، وابن عمك عبد اللطيف في المزة، ألا يكفي ما فعلته حتّى الآن؟ ألم أنصحك سابقاً بأن تخفف، الوقت لا يسمح بهذا العناد). كان الحاج محمد طاهر يتكلم من قلب أخ مجروح، حاول مراراً أن يثنيني عمّا أفعله دون جدوى، فقد افترقت بنا الطرق، وتشعبت الدروب.

قضينا ليلتنا (أمانة) عند قائد الشرطة، فتشنا أحد الجنود تفتيشاً دقيقاً، وأخذ منّا كلّ شيء، نزعوا ربطات العنق والأحذية، نزلنا عشرين درجة تحت الأرض، إلى قبو بباب حديدي سميك، فتحه جنديان ودفعونا إلى الداخل، لم نر شيئاً في الظلام الشديد، لكنّ رائحة البول والبراز زكمت أنوفنا قبل أن تخوض أقدامنا فيه! وقف أحد الجنود يدخن بشراهة وينفث الدخان في الجوّ الخانق، أحسست بأمعائي تتلوى وتتقلص، وأحدهما يبول أمامنا والثاني يعب الدخان بتلذذ! دخل جندي ثالث وهو يشتم أمهاتنا ويسأل عن مصدر الدخان، الجندي المدخن أجابه بشتائم مماثلة تخص أخواته وطائفته وأمه تحديداً، وطلب منه أن يحضر دخاناً من الدخان الذي صادره رئيسهم منّا! لم يكد يشعل عود الثقاب حتّى رأى كيس البرتقال بيدي، خطفه مني، ورحت أقطع القشر بيدي وأسد فتحة أنفي به دون جدوى! وتبرع أحد الجنديين بإحضار خمس سيجارات بخمس ليرات لنا! فتح باب الزنزانة فدخل هواء مختلف، رطب وعفن، لكنّه أرحم مما نحن فيه. المفاجأة كادت توقعني أرضاً فقد اصطدم بي شخص رُمي إلى الداخل مصحوباً بالشتائم، تحسسني برفق، واعتذر، وعاد لشتم الجندي ورئيس الدولة وكلّ من لا يحب عبد الناصر، وقد اشتدّ قهره بعد أن تلوثت ثيابه بمخلفات من مرّوا بهذه الزنزانة. عتمة وقذارة أين منها جورة بيتنا، تذكرت ذلك الخريف البعيد، حين شتمني أبي لأنّي رفضت أخذ الطعام لجربوع وهو يُخرج مخلفات الجورة إلى الزقاق، وعادت

أمعائي تتقلب بشدّة، وأبو حميد يقترب مني معرّفا عن نفسه. رجل طويل نحيل، في الستين من عمره، يرتدي زياً بدوياً، من سكّان باب النيرب، كان يرتجف وهو يكرر أنّه سيفعل كذا وكذا بأخت "أبو عبدو" الجحش وفلان وفلان، حاولنا إسكاته، قلت له بود: (يا عم أنت بطل، تتحمل التعذيب لكنّنا لا نحتمله، اسكت لأجل خاطرنا). هدأ قليلاً وقال: (أنا فداء القبضايات أمثالكم). حكى لنا أبو حميد قصته مع الراقصة الّتي سلبته أمواله بعد أن أسكرته فخرج إلى الشارع يسبّ البعث والحكومة ورئيسها، فقبضت عليه الدورية ورمته هنا! نظرتُ إلى إسماعيل متسائلاً ما به؟ فقد شرد بعيداً وأبو حميد يحكي قصته، تنهد متحسراً: (هؤلاء هم الناصريون، في الملاهي ومع الراقصات، وفي الأقبية بين البول والغائط، هذه مسيرتهم، من وإلى...!) قلت بلهجة عاتبة: (القضية لا تحتاج منّا سوى توقيع، هل نوقّع؟)

بزغ الفجر وسمعنا صوت الآذان، ووقع أقدام فوقنا وحولنا، وشتائم تنصبّ فوق رؤوسنا من الحارس الذي رفس الباب، وطلب إلينا أن نخرج. (هل تجرؤ على رد الشتيمة؟ الآن يا بطل، قل إن كنت تستطيع، لكنّ ساعة في هذه الزنزانة تساوي العمر كلّه، هل تحتمل؟ ستصمت، ستسمع الإهانة وتصمت، تعلّم أنّ الصمت حكمة). استقبلنا مساعد في الشرطة العسكرية بتحية الصباح (تلحسوا... يا الله ولاك م.... اكنسوا الساحة). انصرفنا إلى جمع الأوساخ بصمت، ونعق البوق، فاصطفّ رجال الشرطة لتحيّة العلم وصاحوا بنا فوقفنا في الصّفّ الأخير بانضباط، ورحنا نحرّك شفاهنا بالشعار دون صوت فاقترب المساعد وصفع أحد المعتقلين فأوقعه أرضاً.

❖❖❖

استلمنا أغراضنا ووقفنا في الساحة كالأسرى، الأسير يفخر بأنّه يحارب عدواً، فبم نفخر نحن؟ أعاد المساعد شتائمه على أسماعنا وهو يدفع بنا إلى سيّارة الجيب، وتعلّق ثلاثة جنود من الخلف وضعوا بساطيرهم في وجوهنا، وانعطفت السيّارة في شوارع المدينة، ونحن نرقب النّاس بلهفة (كم من النعم تفتقد؟ السير على قدمين بدون حراسة أكبر نعمة تفتقدها الآن!). استقرت السيّارة في السليمانية أمام بناء ضخم لم يكتمل، أدخلنا إلى قاعة فسيحة لها قبّة عالية، قيل لنا إنّها كاتدرائية أنشئت في عهد الوحدة ولم يجد لها العهد الجديد ميزانية فباعها لتاجر سيجعلها سينما! وسط القاعة الكبيرة قفص حديدي يُصعد إليه بدرجة واحدة. دارت بي الأرض وسمعت المسيح عليه السلام يتكلم فتهتز القاعة، وتهزني يد إسماعيل، فأطلب من ولد يحمل الكعك الساخن عشر كعكات، لم أرد على الشرطي الذي صاح بالولد ليمنعه من الاقتراب منّا، (لا بدّ أنّك جننت) قهقه إسماعيل وأنا أنقل له كلمات المسيح الّتي ترن بإذني! هل نحن حقّاً في كاتدرائية؟ ضحك الشرطي: (أنت في محكمة الأمن القومي يا غشيم).

لم يكن تحدينا للقاضي بالهتافات سبباً لرمينا في السيّارة ونقلنا إلى (دار الإصلاح) السجن الكبير تحت القلعة من الجهة الشمالية. بل كنت أدرك أنّ رفيقنا في المدرسة الابتدائية تجاهل معرفته بنا، لأنّه اتخذ قراره قبل التحقيق الروتيني معنا.

وقفنا في صف طويل أمام الباب العريض المصنوع من فردتين من الحديد الثقيل الأسود، وفي أعلى درفته الشمالية كوة على مقاس الرأس الصغير، ظهر منها وجه شرطي مدني يسأل عمن نكون قبل أن يفتح فردة الباب ويدفعنا أمامه إلى ساحة شبه مستطيلة فيها عدّة غرف من الجهة الشمالية ومغارة انتصب أمامها شبك من الحديد. أول ما شدّ سمعي صوت شاب ينعق من المغارة الرطبة النتنة بكلمات

غير مفهومة ويصيح كديك على مزبلة، عندما رآنا صرخ: (جاء رجال البعث، جاء أبو عبدو الجحش).

قادونا إلى غرفة كاتب ديوان السجن، الذي نظر في الأوراق وحدّق فينا باشمئزاز: (من إدلب؟ فعل شنيع؟) همس الرقيب: (ليس وقت المزاح الآن حضرة المساعد، خلّص الأوراق). نظر إلينا ثانية بعينين جاحظتين والإرهاق يأكل وجهه (أي سيدي، أين تريدون أن أضعكم؟ في الحبس الصغير؟ الأحداث؟ ولا سجن الأجانب؟) لفظة أجانب أثارتني وتوقعت أنّه المكان الأنسب فطلبته، لكزني الرقيب بحزم: (أنا سأختار لكم، إلى الحبس الصغير، هيّا).

لم أكن أعرف أنّ حبس الأجانب عبارة عن مغاور محفورة في الجبل تحت الأرض، يسجن فيه أتعس النّاس وأفقرهم، فوقها المقبرة الواقعة تحت الرابية العالية في الطريق الجنوبي المؤدية إلى باب الحديد. وتنفتح الغرف على ساحة صغيرة بشكل شبه منحرف، محفورة في الصخر الكلسي، وجدران الصخر ترتفع فوقها بعلو عشرة أمتار، ثم تتلوها الأسلاك الشائكة!

انحنيت وأنا أعبر الباب الحديدي المنخفض إلى البوّابة الضيّقة في الحبس الصغير! وانتبهت أثناء ذلك إلى يد الرقيب تضغط يد إسماعيل الذي سارع ودسّها في جيبه وأخرجها بسرعة.

سخر منا الشرطي الذي استقبلنا فقد رآنا أفندية لا يليق بنا السجن. فدفعت سخريته بسخرية أشد ألجمته فوقف يحدّق في وجهي مذهولاً، ومررنا إلى الداخل بسلام.

❖❖❖

رمانا حظنا في أحضان زعيم محكوم بالإعدام. تحت إمرته أربعون رجلاً! نظروا إلينا بارتياب، ولم يتحرك أحدهم. لم نكن نعرف السبب

حتّى رأينا الزعيم ينحني على مساعده الوطواط الذي نهض مسرعاً وأمرنا أن نبقى في العتبة، لم نرد عليه بل زاحمنا الرجال في أماكن جلوسهم. استنكر الوطواط فعلتنا وقال: (هذا أمر الرئيس "أبو عوّاد" ألا تعرفونه؟) نظرت إليه باستهزاء: (نعرف الرئيس "أبو عبدو") ونظرت إلى "أبو عوّاد"، رجل قصير أصفر اللون، يرتدي قنبازاً من الجوخ ويغطي رأسه بطاقية بيضاء تنزل فوق أذنيه وبيده مسبحة تدلّت من مئذنتها قروش من الفضة، يسبّح بها بعصبية ونزق ويرمقنا بعينه الحولاء الّتي سلمت من الفقء!

جاء الشرطي "دحل" يطحر بشدّة وهو يحمل لنا الطعام: (إبراهيم، إسماعيل، تأكلوا هريا) تناولنا الصينية الملأى بالحلوى واللحم المشوي، عرفت أنّ أخي طاهر قد أرسلها لنا، دعونا المساجين للطعام، لكنّ الوطواط سرق الطعام وخبّأه في صندوق زعيمه قبل أن نشبع، وأخذ يسخر منّا!

للسجن قوانين لا يحيد السجناء عنها. الحكومة أعطتنا ثلاث ساعات في اليوم للتنفس صباحاً وظهراً ومساءً، ويقضي نظام السجن أن يسير كلّ سجين أمام غرفته ولا يتعدى الحدود إلى الغرف الأخرى الّتي يخرج سجناؤها إلى الساحة في أوقات أخرى. لم أكن أعرف هذا النظام فرحت أتمشى أمام الغرف في الطرف الشرقي، ولاحظت لغطاً وضجيجاً، فاقتربت من الغرفة وسلّمت، لكنّ الشباب لم يردوا السلام وأداروا ظهورهم لي، فعدت للسلام ثانية، فقابلوني بالصمت وعيونهم تقدح شرراً، وقفز من بينهم رجل في الثلاثين قصير القامة، مستطيل الوجه، يرتدي سروالاً مقصّباً من الجوخ، وصل القضبان ونظر إليّ بعيني صقر، وسألني عن غايتي، أدركت بسرعة أنّي ارتكبت خطأ ما، فقلت له: أبحث عن شاب طيب وقبضاي لا أذكر كنيته لكنّ اسمه أحمد. سألني: ومن وصفه لك؟ قلت: سائق صهريج حملني معه إلى

اللاذقية. ابتسم عن أسنان منضدة بدقة وصاح بالرجال: (إلى الداخل شباب، وصل لغايته). ونادى الحارس ليفتح لي الباب. لم يزايلني استغرابي للسرعة الّتي استجاب بها الحارس، استقبلني الرجل بالأحضان، والترحيب وأحاط به رجاله يرحّبون بي ويسألونني من أين أتيت؟ أجلسوني في صدر الغرفة والرجل يقول لي ضاحكاً:

- هل يطير صاحبك؟

فتذكرت الاسم فوراً، إنّه أحمد طير! الناصري الكريم الذي يهابه السجناء والشرطة، ويتعامل مع الجميع بطرق خاصة تتلاءم مع أوضاعهم. أحمد الذي قضينا أنا وسائق الصهريج نصف الطريق إلى اللاذقية ونحن نتحدث عنه. هو بعينه، تلقفني بلهفة وسأل عن أحوالي، وأبدى استعداداً لمساعدتي بالمال والسلطة الّتي يملكها. وعرض عليّ أن يجند ثلاثة رجال لحمايتي، لكنّي رفضت، وحدّثني عن الأعور رئيس غرفتنا الذي تشاجر مع زوجته وهي ابنة عمه فقتل أباها وأخاها غدراً برصاص مسدسه الذي يستعمله في عمليات تهريب الكوكائين والحشيش الذي يحمله من تركيا على ظهور الجمال. وحدّثني كيف حاول ورجاله إذلال الأستاذ أديب النحوي ووضعه في العتبة، وكيف تصدّى الطير لهم. هذا الرجل يملك أجنحة يطير بها خارج السجن وداخله بكلّ حريّة، حملني معه فوق الغيم وأراني الدنيا من علٍ (أنت ترى الدنيا مع أحمد مختلفة تماماً، تراها بعين الأمل، بعين المستقبل الذي ستنقشع غيومه ويغمره الغيث). سرقنا الحديث فلم نشعر بالوقت، وحلف يميناً بالطلاق أنّ غدائي ورفاقي عنده اليوم، وكنّا اثنين فقد غادر الباقون إلى سجن الأحداث. شخص واحد بقي نائماً وظهره لي منذ دخولي، لفت انتباهي بشعره الكثيف الشديد السواد، وكدت أسأل عنه، إلا أنّ أحمد طير منعني بنظراته. ظننت أنّ في الأمر إحراجاً، لكن ما لم أتوقعه أن ينهض ذلك الشخص بتثاقل

وكأنّه قضى الليل يسكر حتّى خانته قواه، ويفتح عينيه بصعوبة ويحدّق في باستغراب وأنا أنهض ملسوعاً لاحتضانه. جودت! آخر ما كنت أتصوره أن نلتقي في السجن!

❖❖❖

أول من عانقني كان زميلنا في التجهيز، المشاغب "أبو شرفو" احتضنني بقوة، وأفسح الطريق لصديقي جودت الذي ابتسم وهو يعانقني:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- عبد السلام عارف.

قهقه جودت عالياً وقلب على قفاه.

- خَرْجَك. تستأهل، ما لقيت غيره تعلق معه؟

وجدت نفسي أروي له ما حدث وكأنّي أعاني جوعاً تاريخياً للحديث مع شخص أعرفه.

- كان المنظر مثيراً للضحك، صديقنا محمد ديب على يمين "أبو عبدو" الجحش ومرشد الإخوان على يساره، وخلفه وقف الخازوق النجس، لا بدّ تذكره، و"أبو عبدو" يصرخ بأعلى صوته: (إنّ اليد الّتي ستمتد إليكم، سأقطعها وأقذف بها إلى الكلاب). لم يسعني إلاّ الضحك وأنا أتابع طريقي أمام مبنى البلدية في الساحة الغربية حيث تجمهر البعثيون يرحبون بقائدهم، وصحت بأعلى صوتي: (إذا حلق جارك، بل أنْت ما بعد جارك غير أنْت [٩]).

ضحك "أبو شرفو" وهو يغمز بعينه:

---

[٩]. بل ذقنك

ـ أي "أبـو عبـدو" بـدو يحـرر فلـسطين بمـدفعين عثمـانيين، أكيـد يستطيع قطع ألسنتكم ويرميها للكلاب، هذه سهلة. والأسهل اعتقال النّاس لأسباب سخيفة كهذه.

ـ على كلٍ يا صاحبي هذا ليس غريباً، كان معي في خان "أبـو علـي" رجال اعتقلوا لأسباب مثل هذه، هل تذكر البيك صاحب المكتبة الرئيسة في ادلب؟ اعتقل لأنّ أحدهم طلب منه جريدة البعث، فقال له صادرها عبد السلام عارف، وأبو أحمد السيد الذي اعتقلوه لأنّه شتم أحدهم وقد بصق أمام دكانه، كلّ ذلك في كفة ومختار (كفتين) بكفة، لقد مرّ به أحد الحرس وسانوياله على كتفه يختال كطاووس فقال له: (قلبت) وعلّمته أن يقول في التحقيق إنّ امرأة مرّت به تحمل طنجرة لبن على رأسها فكادت تقع فقال لها: (قلبت) كي تنتبه.

غرقنا في ضحك صافٍ من أعماق القلب ناسين المكان، مبتعدين بروحينا حيث السهول الفسيحة للروج، والدروب المعفرة بالفرح لجبل السمّاق. لكنّ الضحكة لم تطل، وجم جودت وانكمش على نفسه وعاد إلى الجدران الضيّقة بروحه، فسألته مستغرباً؟

ـ وأنت كيف أتيت إلى هنا؟

ـ يا سيدي متهم بمساندة بعث العراق!

جودت! أكاد لا أصدق، طوال عمره يكره الأحزاب، ولا يحب السياسة، بعثي عراقي! إلى هذا الحد؟ قلت ضاحكاً:

ـ احمد ربك، مناصرو العراق يرمون في السجن، لو كنت في العراق وناصرت بعث سوريا لجعلوا جسدك مصفاة برصاصهم.

ارتعب متراجعاً:

ـ فأل الله ولا فألك، يا رجل قل كلاماً آخر، أقتل! فقط لأنّي أساند بعث سورية؟ أنت تبالغ.

ـ أنت كالنعامة، لا ترى شيئاً، ولا تسمع شيئاً، منذ متى لم تزر البلدة؟ لا أعتقد أنّك تعرف شيئاً عن المهازل الّتي حدثت، لقد جمعوا النّاس من القرى وأنزلوهم بحميرهم إلى البلدة، ترفرف الأعلام الحسينية فوق رؤوسهم وهم يصرخون (بعث واحد لا بعثين اسمع يا حسين، يا ابن زين). لم يكن في التظاهرة أحد من أبناء البلد. الحمير المزينة أثارت فضولي فوقفت أتفرّج على مهرجان الخديعة، وشعارات لا يفهمون منها شيئاً، البسطاء كانوا يريدون البترول كاملاً! تصور! كانوا ينشدون بحماس: (بترول العرب للعرب لكلّ أمة العرب، يا مناخد حقنا كامل يا منشعله لهب) كنت أغمض عينيّ على شعارات نادينا بها سابقاً، هل تذكر؟ لكنّ المرارة تقتلني الآن فهم لا يعرفون معنى أن يقولوا: (عبد الناصر مانك منا، خود كلابك وارحل عنا)، كنّا نقولها للفرنسيين عندما كنّا صغاراً، قلناها لديغول. ما أبعد اليوم عن الأمس حين كنّا نملأ شوارع حلب شعارات ونلهبها حماساً؟

قال إسماعيل بمرارة:

ـ لولا غباء ابن عمك عبد اللطيف لكنّا الآن خارج هذه الجدران وربّما كنّا نحكم البلد، من يدري؟

علّق أبو شرفو ساخراً:

ـ أي، صح اختلط عليه الوجه والقفا.

قال جودت بهدوء وجدية:

ـ إدلبي!

لم يضحك أحد، وكأنّه أقرّ واقعاً لا مزاح فيه، (تحسرتَ، نعم لم يعرف ابن عمك وجه الليرة من قفاها، فأعطاها لقائد الدبابات على قفاها، فلم يحرك الأخير ساكناً حسب الاتفاق المسبق على كلمة السر، وباءت حركة جاسم علوان بالفشل.) تابع أبو شرفو:

ـ ألم تسمع برنامج صوت العرب (سوريا في الظلام)؟ يحكي عن مساوئ البعث وانفصاليته ومعاناة الناصريين في سوريا، عبد الناصر لن يسكت، لن يدوم حالنا هكذا أبداً. علينا أن نتحمل فالوطن يمرّ بمرحلة تاريخية...

قاطعه جودت بحنق:

ـ الله يلعنك ويلعن المرحلة التاريخية، لقد اتخمنا مراحل. اصحوا، مازلتم تنامون بعسل الأوهام، المرحلة مرحلة مفاهيم مقلوبة وأنتم لا تريدون أن تصدقوا أنّ كلّ شيء قد تغيّر.

ـ نعم لقد انقلبت المفاهيم، صار عفلق يتبجح بقوله: (إنّ الشعب لا يدرك مصالحه ولا يعرف سياسة نفسه، فهو منفعل غير فاعل، ويجب على النخبة أن تقوده كقطيع الماشية!) أصبحنا ضمن طبقة الغوغاء الّتي تحتاج إلى الصفوة لتقودها إلى ما فيه مصالحها. لم تستعمل عبارة غوغاء من قبل في السياسة.

ألم تسمع أحد المسؤولين يخاطب النّاس بقوله أيّتها القاعدة الشعبية؟

احتدّ أبو شرفو:

ـ هم الغوغاء، ألم يؤمموا معملاً للكبريت لا يعمل فيه سوى صاحبه وزوجته وابنه؟ ألم يؤمموا تنوراً للخبز في حي القلعة ـ يخرب ديارهم ـ ألم يعدّلوا قانون الإصلاح الزراعي؟ لكن مع هذا أملنا يبقى في النّاس، لا بدّ من قيام ثورة.

علقت المرارة بالكلمات رغم إيماني أنّ "أبو شرفو" لمس الجرح، ووصف حالنا:

ـ النّاس؟ تقول لي النّاس؟ النّاس صفقوا لانقلاب حسني الزعيم، قُتل الزعيم، صفقوا للقاتل، قُتل سامي الحناوي، صفقوا لأديب الشيشكلي، ثمّ صفقوا لخالد العظم و شكري القوتلي معاً، اعتلى

القوتلي سدّة الرئاسة صفقوا له، والتهبت أكفهم من التصفيق لعبد الناصر، وحين أعلن المقدم عبد الكريم النحلاوي البلاغ رقم واحد بانفصال سورية عن مصر، صفق الجميع.

قال جودت بمرارة يحدّث نفسه:

- نحن أمة لا ترضينا الحقائق، أذكر حربنا في فلسطين، أذكر نجمة الصبح، كان المذيع يردد: أسقطنا طائرتين للعدو، أسقطنا ثلاث طائرات، والنّاس تصفق وتهتف (عاش شكري بيك، عاش جيش الأردن) العدّاد مستمر، والطائرات تجاوزت الألف!

يومياً يردد المذيع: (احتلت قواتنا نجمة الصبح). وكأنّ هذه النجمة تتوالد وتنتشر في الفضاء كالفطر في يوم غائم، تفرّخ آلاف النجوم، تهاجمها قواتنا، تحتلها شرقاً، فتمدّ رأسها ولسانها ساخرة من الغرب! يلحقونها في حلقة مفرغة فيجدون أنفسهم في الشرق ثانية.! مع كثرة نجوم الصبح وتوالدها، كان الجيش بحاجة للمزيد من سكان الفضاء المدربين على القتال! اشتدّ بنا الحماس، أنترك سعيداً وحده يحمل السلاح؟ قاسيةٌ تلك الأحلام الّتي تفرّخ كوابيس سوداء تقتل إشراقة الأمل، مع هذا كنّا مصممين على القتال!

تجاهل "أبو شرفو "كلمات جودت المرّة والتفت إليّ قائلاً:

- لا يا إبراهيم، ذلك لم يحدث، فئة كبيرة كانت ضد الانفصال بدليل وجودك هنا، والنحلاوي أراد إبعاد السرّاج عن الساحة، وإبعاد البلاد عن حكم المخابرات. هل قرأت التحقيق الذي كتبه فوميل لبيب في مجلة آخر ساعة عن قرية خطاب التابعة لحماة؟ لقد وقف أهلها في وجه محاريث خالد العظم وأعطوا مثالا طيباً لثورة محتملة.

- على الرغم من الحادثة الّتي ذكرتَ، أنا لا أناقشك في أهدافه، أناقشك في هؤلاء الذين تعوّل عليهم بقيام ثورة وأنت تراهم يصرخون، عاش الملك، ليسقط الملك، ولا يعرفون من يسقّطون ومن يعيّشون.

رمقنا جودت بلامبالاة:

ـ لا يغيّر الله ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم.

ـ هل تتصور يا جودت من القاضي الذي أتى بنا إلى هنا؟ الشخاخ، ابن رئيس البلدية أيام الفرنسيين هل تذكره؟ منذ رأيته وراء القوس عرفت أنّ المحاكمة عادلة! وأنّي مُشرّف إلى السجن لا محالة، وهل ينسى ما كنّا نفعله به؟ يا للأيام!

ابتسم جودت بمرارة:

ـ كدت تقتله وأنت تدافع عن آراء فريد أفندي ذات مرة، نعم أذكره، كان دائم الذعر من فريد أفندي رحمه الله، كنّا جميعاً نخافه، أنا كنت أكرهه ـ وأنت تعرف السبب ـ لكنّه الوحيد الذي كان يفعلها بثيابه من الذعر.

ضحك جودت ضحكة خرجت صافية من قلبه ثمّ تلوّنت بالمرارة، وانقلبت إلى بكاء صامت، ربّما تَذَكَّر ما يريد أن ينساه طوال عمره، نوبات الصرع تلك الّتي تفاجئه دون إنذار وتأخذه إلى الغيبوبة، فيرتطم أحياناً بالجدران ويقع في الطريق، وكثيراً ما تسبب له جراحاً جسدية وإن التأمت تبقى في روحه طويلاً!. تابعتُ حديثي وأنا على يقين أنّ جودت لم يعد يسمعني وإن سمع الكلمات لم يعد يهمه فحواها!

ابتسم "أبو شرفو" قائلاً:

ـ يا لتلك الأيام! هل تذكر يوم سرقنا باكيت اللوكي لفاتح المدرس؟

قلت بصوت حاولت أن أكسبه بعض المرح:

ـ نعم أذكر.

قال "أبو شرفو" بحسرة:

ـ كم كان جميلاً، أخته تعشقه.

ابتسمت لتلك العبارة الّتي كان يرددها "أبو شرفو" في كلّ حصّة رسم، وهو يتأمل أستاذنا الرائع الذي يسكب روحه الجميلة في خطوط

وألوان متميزة. لكنّ الحيلة لم تنطل على جودت، نظر إلينا بسخريّة بطرف عينه وكأنّه يقول: (أتضحكون عليّ أم على أنفسكم بهذه الذكريات؟) و ارتفع صوته الخشن بغناء لا يقلُ مرارة عن أحاديثنا (عبيلي الجعبة خرطوش وهيألي ها البارودة، بيكلفني خمس قروش اللي بيقرب صوب حدودي). أغنية مها الجابري تلك كانت تزيد ترسبات القهر في حلوقنا، فتمنعنا من بلع ريقنا الجاف الممزوج بمرارتها...

رحم الله سعد الله الجابري!

❖❖❖

خليط عجيب، القاتل والصحفي والمحامي والوزير واللوطي واللص، في غرفة واحدة! هاهي الرؤوس تتساوى بل الأفضلية لقاتل محكوم بالإعدام، تحت إمرته وزير وكاتب و...

كنت أؤمن دائماً أنّ الإنسان قطعاً لا يولد مجرماً، إنّما تحيط به ظروف اجتماعية تقوده إلى الجريمة، وقد يعود إليها ويصبح معتاداً، ليس هناك مجرم بالفطرة كما يقول "لامبروزو". من هذا المبدأ حاولت الاندماج في جو السجن وخلق صداقات مع هؤلاء الذين أنس بعضهم لي وراحوا يروون لي حكاياتهم، كنت أدرك أنّ للحكاية شكلاً يختلف عن الواقع، لكنّي كنت أستمع للحقيقة من وجهة نظرهم لأستنتج الجزء الحقيقي منها! أحد هؤلاء كان يحمل لي إبريق الماء وينتظرني على درجات المرحاض، ويلح في خدمتي لأكون قاضياً عادلاً في قضيته الّتي ستنظر في محكمتي بعد مغادرتي السجن! كان على يقين أنّه سيقابلني يوماً وراء القوس، وكنت أضحك بمرارة وأنا أحاول أن أثنيه عن خدمتي موضحاً أنّنا كلّنا أولاد آدم، دون جدوى. أكثر سجين لفت نظري مع الأيام، رجل يدعى لبيب، ضخم الجثة، طويل القامة، محدب

الظهر، رث الثياب، كبير الرأس، طويل الوجه، نبت الشعر في وجهه كالأشواك، فمه أجقم، يسيل أنفه فيمتزج مع دموعه ولعابه، يداه مقلوبتان إلى أسفل، يتكلم بصعوبة، فتخرج الحروف لهاثاً. يقف يومياً وسط الساحة ويخطب في المساجين زاعماً أنّه الأمين العام للحزب! يخاطب القادة والوزراء، ويعطيهم التعليمات والأوامر، ويهاجم أعداء الاشتراكية والناصرية، وينهي خطابه بأغنية لعبد الحليم (بحلم بيك يا حبيبي أنا) يجتمع السجناء حوله وهم يصفقون ويصرخون بمرح. لبيب دخل السجن بسبب تهجمه على فتاة تمشي في الشارع، وضعوه على الدولاب، وعذّبوه وافتعلوا به -كما حدّثني. لبيب هذا حكاية غريبة، لم يكن مجنوناً وإن بدا كذلك، تشوهات جسده دفعته ليكون مجرماً حيناً ومهرجاً حيناً، لكنّه كلّ ليلة يبكي بصمت ويحتضن جراحه وينام!

تمرّ الأيام وتتوالى، ويكبر الحذر والخوف، صرت أعيش على أعصابي وأنا بين هؤلاء، رغم الحماية الّتي غمرني بها الطير، ورغم زيارة زعيم غرفتنا له للتطبيع بعدما عرف أنّني أصبحت تحت جناحيه، ولم يعد يستطيع التدخل في شؤوني.

استُدعيت بعد اليوم الستين إلى غرفة الزيارة الخاصة بالمحامين، كان هناك الأستاذ هاشم قوصرة، ومعه بعض المرافقين والهدايا، نقل إلينا نبأ صدور عفو عام عن المعتقلين!

لا أدري لم غادرني الفرح، لم أستطع أن ابتسم للخبر، وبقيت في حال كئيبة، حاول الأستاذ أن يفهم السبب، لكنّي ناورت ودخلت في أحاديث جانبية حتّى انتهت الزيارة. عدت إلى غرفتي بحلم مغتال سلفاً، لم أستطع التفاعل مع تهنئة المحيطين بي، كان قلبي منقبضاً، وقضيت الليل وأنا أعاني من إسهال شديد، اضطر السجناء لإغماض أعينهم عن عورتي المكشوفة في العتبة، وراحت أمعائي تتقطع منذرة

بكارثة. طلب مدير السجن نقلي إلى المستشفى فرفضت، امتنعت عن الطعام وتناول الدواء. حتّى وصل صوت المؤذن القريب من القلعة إلى أذني فهدأت النفس واستقرّت العيون تحت الجفن. في الصباح نادوا علينا:

- إفراج!

حُشرنا في السيّارة بعد أن أخبرونا أنّ "بدر" (مدير المخابرات العسكرية) سيخلي سبيلنا فوراً ودون إزعاج. هذه الكلمات كانت طعنة في الصدر، بدر! مجرد دخولنا هناك لا يبشر بالخير، همست لإسماعيل: (ضعنا). قال لي مستبشراً: (لكنّه عفو عام من رئيس الجمهورية!) قلت: (وإنْ). كنت أعرف بدراً، ولا أعرف لمَ أسموه كذلك؟ هل كانت أمه اليهودية تتمنى أن يضيء في سماء سوريا ليصبح قائدها؟ ليس حلماً غريباً عليها، وليس غريباً على والده الجزائري المرتزق الذي جاء مع حملة غورو، وحارب معه في ميسلون ضدّ يوسف العظمة. وأحلام هؤلاء تتحقق، فبدر سيّد المنطقة الشمالية بلا منازع لا يهمه قرار رئيس الجمهورية ولا يعبأ بتنفيذه! فقد اتصل به "أبو عبدو" شخصياً لإطلاق سراح الأستاذ أدهم مصطفى فتجاهله.

عشت تلك اللحظات الّتي تسبق ذبح الأضحية، كم يتعذب هؤلاء الذين يساقون إلى المقصلة؟

سدّ الحرس القومي علينا منافذ الهواء والرؤية، كنّا نختنق داخل صندوق السيّارة وهي تلفّ بنا ورؤوسنا تصطدم بالحديد والجهة الّتي نساق إليها مجهولة.

أنزلونا أمام مبنى القيادة الشمالية والرشاشات تحيط بنا، وطال بنا الوقوف، ثمّ أعادونا إلى السيّارة، وأخذونا إلى بناء آخر، دُفعنا إلى درجه بأرجل الحراس وسياطهم المصنوعة من أسلاك فولاذية، حتّى هبطنا حوالي ثلاثين درجة تحت الأرض. دخلنا غرفة الاستقبال،

يطلقون عليها غرفة (الشّبّح)، عصي غليظة ورفيعة عليها آثار الدماء، ورجال عراة وجوههم وبطونهم ملتصقة بالحائط وأرجلهم مقيّدة بالجنازير المشدودة إلى سكك حديدية مثبتة بالأرض. رحم الله إبراهيم النبعة، لقد كان يربط الحمير بسكك مثل هذه إلى الأرض وهو يرفع أقدامها ويغرسها بالمسامير! لكنّ الأسلاك المستخدمة هنا للحيوانات الناطقة أضخم من تلك الّتي يستخدمها البيطار. أيديهم الممدودة على شكل صليب مشدودة إلى الحائط بسكك مشابهة، وعلى رأس كلّ منهم طربوش من القش القذر، تحت الطربوش صرصور يسعى إلى حريته مذعوراً فإذا وصل القمة سقط على رأس المصلوب المسلوخ بالموس، وعاود رحلته فوق الدماء الجافة ليصعد ثانية إلى الطربوش! المصلوبون كانوا ضباطاً بالأمس القريب، والآن تعيد إليهم الصدمات الكهربائية بعضاً من إنسانية مفقودة!

أخرجونا من غرفة الاستقبال، إلى غرفة اللحف، وهي غرفة رهيبة، مربعة الشكل، مساحتها تسعة أمتار تقريباً، أرضها مزروعة بسكك حديدية ومسامير غليظة ربطت إليها قيود حديدية، سمّرت على سقفها وجدرانها عدّة لحف بيضاء كدست فوق بعضها، وعليها تسير كتائب من القمل والفسفس ببطء شديد! يتدلى من السقف براجكتور بقوة ألف وخمسمائة واط، ينشر حرارة شديدة وضوءاً يبهر العيون فلا يستطيع المعتقل فتح عينيه، ويفصل الغرفة عن المرحاض بهو ضيّق. لشدّة الضوء لم أستطع تبين ملامح الرجال الثلاثة المقيدين إلى الأرض من أرجلهم وأيديهم، كلّ ما رأيته بحيرة من الأقذار والماء حولهم. التصقنا بالجدار منكمشين على أنفسنا، خلعت سترتي ودفنت بها وجهي كي أتفادى الضوء. الجلادون يصيحون بهستيريا وهم يقفزون فوق المعتقلين طالبين منهم الاعتراف والرجال يصمتون صمت الموت، لم أسمع أنيناً ولا نَفَساً، كلّ ما كان يصلني شتائم وصراخ

مجانين يضربون جسداً ميّتاً طالبين منه أن يقرّ ويعترف! ثمّ اشتد الضحك وتعالت سحب الدخان. شعرت بالدوار، الأرض تميد بي، والفسفس يرحب بالجسد بلسعاته اللزجة، اقشعرّ الجلد واستنفرت حواسي كلّها، لكزني إسماعيل خشية أن أتكلم بعد أن منعني الحارس من دهس قملة سارت على يدي بهدوء يتناسب مع أهمية وجودها وعظمته!

كعادتها معدتي انفجرت معبرة عن غيظها، ورحت أتلوّى على الأرض وأستغيث. اقتلعني الجلاد من الأرض بعنف ورمى بي أمام باب المرحاض. كانت معدتي تنزف دماً، لم يعد في أمعائي شيء. وخارت قواي وارتميت أرضاً قبل أن يأتي دوري بالتعذيب!

عندما أعادوني إلى الغرفة، كان الرجال الثلاثة قد أفاقوا بعد غسلهم بخراطيم الماء. همس لي أحدهم: (يا حيف على شبابك). كانت أضلاعه مكسرة والدم ينزف من فمه وأنفه، أطرقت مبعداً المشهد الدموي عن عينيّ. (ها أنت اشتريت هذا المصير بعضوية قيادة الفرع، إلى أين ستصل بعد؟) سحب الجلادون الرجال من الغرفة، وجاءنا جلاد قصير القامة يهز عصاه الغليظة بوجوهنا ويطلب نقوداً ليحضر لنا طعاماً، لم نكن نريد الأكل لكنّه أجبرنا على دفع خمس ليرات عن الشخص ثمناً لصحن حمص نتن، رائحته مقززة، رشّ عليه بذور الفليفلة الحمراء، وصُبّ فوقه زيت خنزير، أتى به ورماه مع الخبز أمامنا، وأطعمنا منه غصباً. كانت رائحة الصديد تصعد من حلقي وتكويه، والحموضة تقتلني، رائحة بشعة لاحتراق لا أدري من أين، زكمت أنفي، فوضعت يدي عليه، سرعان ما عاجلني الجلاد بضربة أبعدت يدي وأمرني بالطعام تحت الضرب، تناولت لقمة ووضعتها في فمي وتقيأت أمعائي وعصارة معدتي، ثم تدفق القيح والدم من فمي. لم يعد يجدي دخولي إلى المرحاض، كنت أشعر أنّ أمعائي ستهبط

خلال ثوان إلى الأرض، ورأيت أمامي بقع الدم، الصفراء، ودوّار أقعدني ورحت في غيبوبة. أصحو بين حين وآخر على صوت أنين يطرق أذني فأحسبه لشخص آخر في الغرفة!

تمنيت لحظتها أن تزلزل الأرض فيفنى كلّ من عليها وتخرجنا من باطنها، كم يبدو القبر قريباً من خضرة التربة، وكم تبدو الزهور فوقه مريحة للعين مقارنة بهذا الجب الذي رمينا فيه؟

لا أعرف كم من الزمن مضى بين الصحو والغيبوبة، ذهني يسبح في بحيرة من الفراغ، تلاشى الوقت ولم تعد الساعات تعني سوى انتظار المزيد من العذاب، سمعت من مساجين كثر عن انعدام الإحساس بالألم، فهل ذلك بعيد؟ أنتظر تلك اللحظة الفاصلة الّتي أفقد فيها إحساسي وأنا ألفظ أسماءهم من خلال الأنين، لأرى فوق رأسي ذلك السجّان الضخم "أبو ذراع" كما سمّاه إسماعيل، يطلّ من فتحة في السقف، كفه الشاسعة تمتد لتغطي الفضاء فلا أرى شيئاً في الغرفة غيرها، تحملني خطفاً، وترميني، أنغرس في لزوجة الدم والأقذار، وأسمع من بعيد صوت ارتطام الضلوع وقرقعة العظام، أهي عظامي تلك الّتي تكّسرت على المسامير قبل أن يدخل خرطوم الماء في شرجي ويمزق الألم أحشائي. أم كنت أعيش كابوساً؟

حفل التعذيب ذاك لم يدم إلا ومضة ألم، أبرقت في روحي، وانغرست في رحم الغيبوبة، أهي ساعات أم أيام أم دهور؟

روحي تغادرني في أرض صحراوية قاحلة وأنا أصرخ: (ماء). أحشائي تشتعل وأصرخ: (ماء). والخراطيم تغسلني لأصحو فأجد نفسي في بحيرة من الأقذار وقد فقدت الإحساس بأعضائي. حاولت تحريك قدميّ، لم أشعر أنهما لي! نهض من جسدي شخص آخر، تطوّح قليلاً وانكفأ على باب المرحاض، رأسه إلى الداخل في الفتحة، وساقاه تمددتا في عتبة الغرفة، جلادان شرسان أنهضاه بقوة، غسلاه

بخرطوم آخر، كفّناه بملابس ليست له، وسارت السماء وتحتها الأرض ترتج مخرجة أصواتاً رهيبة تدوي في أذنه ولا يعرف كنهها، وعمّ البياض. بعد أيام، هل هي أيام؟ أم تراها أشهر! لم أعد أدري، ما أعرفه أنّ ذاك الجسد تتبعه روح غريبة لم أتبين ملامحها عاد إلى غرفة اللحف ثانية بعد أن تعافى من وجهة نظر الطبيب ليجد شخصاً تشبه ملامحه ملامح شخص في الذاكرة. رغم اجتهاده لمعرفته لم يفلح!

ربّما كان إسماعيل أقوى مني جسداً، وإن لم يكن أصلب روحاً، فقد كان يهذي بأحداث، ويذكر أسماء أناس ومدن فلسطين البعيدة التي لا تبرح ذاكرته.

❖❖❖

وقفنا بالباب وكأنّنا بُعثنا من القبر، استنشقت هواء الصباح، وشعرت بالحياة تتسرب إلى أطرافي للحظات قبل أن يدفعوا بنا إلى شاحنة عسكرية مغلقة، وقفت بنا في طرف المقبرة خلف قشلة الترك من الجهة الشرقية. أنزلونا فوق قبور دارسة أكل جدار القشلة قسماً منها، دخلنا بوّابة مسقوفة بألواح التوتياء، دلفنا منها إلى ساحة مطلية بالاسمنت الناعم. هبّت علينا نسمات خريفية باردة، لم يحتملها جسدي فرحت أرتعش. كنت على حافة الهاوية، تستطيع هبّة ريح شديدة أن تقذف بي أرضاً فلا أستطيع بعدها حراكاً. مكثنا برهة في الساحة الخالية، أدخلونا بعدها ممراً معتماً تتوزع على جانبيه الغرف الّتي تعلّقَ بكوتها الصغيرة السجناء متطلعين إلى الضيوف الجدد. أوقفنا الحارس وسط الممر، وكان نصيبي وإسماعيل غرفة طالعتنا فيها ثلاثة وجوه شاحبة، قفز أحدهم من السدّة العالية إلى أرض

العتبة واستقبلنا بابتسامة باهتة. صعدنا إلى السدّة وجلسنا على شكل دائرة فالمرء لا يستطيع الوقوف إلا إذا أحنى ظهره، الباب ينخفض - على مستوى الممر - عن الزنزانة بحوالي مترا وتحت الزنزانة فراغ اعتقلت فيه الفئران المعارضة!

الشاب الذي انحنى واستقبلنا يدعى الحمّامي، وهو سيّد الغرفة وخادمها! في التاسعة عشرة من عمره، طويل، عريض المنكبين، وجهه صلب مستدير، أسمر، عيناه تنضحان طيبة تقترب من البلاهة. وبتعبير شعبي يبدو غشيماً. وهو أمي، لا يعرف شيئاً تقريباً، حتّى أنّه لسذاجته قال لي عندما حلقت ذقني: (عظّم الله أجركم). فلكزه زميله مصححاً: (قل نعيماً). إنّه على الفطرة، وكدت أشك في ملكاته العقلية حين حدّثني عن سبب دخوله السجن.

(أرسلتني أمي لأجلب الخبز من الفرن القريب، فوجدت جمعاً من النّاس يهتفون: ((ناصر، ناصر، يسقط "أبو عبدو" الجحش، يعيش عبد الناصر)). هاجمتنا الدبابات بوابل من رصاص رشاشاتها فهربت والتجأت إلى أحد بيوت الحي. حاصرني رجال الشرطة العسكرية وساقوني إلى المخابرات، هناك أدخلوني غرفة اللحف، قيّدوني إلى الأرض وشدوني بقوة، ثمّ جاؤوا بخرطوم الماء، وضعوه في شرجي وتدفقت المياه داخلي حتّى شعرت أنّ كلّ ما فيّ يتمزق، قبل اختناقي بلحظات شعرت أنّي أسبح في بحيرة من الأقذار والماء، كان همي الوحيد أن أبعد أنفي عن مجرى الماء، لكن لم أكن أستطيع سدّه أو رفع رأسي! لا أعرف كم من الزمن مكثت على هذه الحالة لقد تلبد جلدي ودارت الدنيا بي، اصفرّت واخضرّت وفقدت قدرتي على الإبصار، لا أعرف كم من المرات حقنوني بالماء، كانت آلام رهيبة تفاجئني ممزقة أحشائي، ثمّ يهدأ كلّ شيء! في البداية خجلت من عريي أمامهم، بعد ساعات من التعذيب لم أعد أعرف جسدي، ولم يعد يهمني شيء، كنت

أريد الخلاص ولا أعرف السبيل إليه، فكوا قيودي وأعطوني مهلة دقيقتين لتنظيف الغرفة، تحاملت على عجزي فقد ظننت أنّ استجابتي ستكون الطريق إلى إطلاق سراحي، لكنّهم سحبوني إلى غرفة (الشبح) هل رأيتها أستاذ؟ لا يتمناها المرء لعدوه، جاءني جباران من حراس جهنم، طويلان عريضان، عيونهما حمراء تقطر دماً، والله لا أكذب لقد رأيتهما، كعيني القطط، عندما رأيت العصي الرفيعة في أيديهما ونظراتهما إلى جسدي العاري كدت أقع أرضاً، لكن أين المفر، أيقنت أنّهما لا علاقة لهما بالجحيم، لقد فعلا بي ما لا يمكن لمخلوق أن يتصوره.

(بل يمكنك تصوره، هل تخبر الحمّامي عن تلك الكف الّتي توازي محيط غرفة، هل تخبره عن تلك العصا الرفيعة الّتي مارست عليك أنواعاً من الذل والهوان؟ لا لن تستطيع إخبار أحد عليك بحفظ ماء الوجه).

أستاذ هل تعرف؟ أخجل أن تعرف أمي ذلك فهي لم تر جسدي منذ كنت في العاشرة. هل تدري؟ كانت أيديهما رهيبة، كف الواحد منهما نصف متر، ووجوههما مستطيلة كأنّهما قطعة من مقلع حجار، آه يا أستاذ، قلّباني بين أيديهما الضخمة كفأرة!

(أطرقَ أرضاً وهو يحدّثك عن اغتصابه لم يكن يستطيع النظر في عيونك رغم العتمة! وأنت هل تستطيع كشف ما بك أمام هذا الإنسان الساذج الذي يحكي ألمه بكلّ بساطة؟)

حين سقطتُ أرضاً جلسا يدخنان، ويطفئان سجائرهما في جسدي، انظر.)

تجرأ وكشف جسده، كان المنظر مقززا. (هل تدير وجهك للجدار أم تواجه نفسك في المرآة؟ عليك أن تنظر، حدّق جيداً فأنت ترى نفسك بوضوح!).

(جاء موعد التحقيق، أمروني بارتداء ملابسي وغسل وجهي من الدماء. الضابط استقبلني بابتسامة!

ـ أي يا حميمي، احكِ لنا، هل ضربوك؟

نظر إليّ الجلادان، فخرست، وسألني الضابط برقة: (من قتل العسكري؟).قلت له إنّ أمي أرسلتني لأشتري خبزاً ولا أعرف كيف وصلت إلى هنا. فاستشاط غضباً، ولم أسمع يا أستاذ شتائم لعرض أمي أقذع من تلك الّتي سمعتها من فمه، والله يا أستاذ أمي امرأة شريفة، درويشة، ربتني بعد وفاة أبي، وأنا ضوء عينيها، ليس لها غيري، والله يا أستاذ بتكون ماتت من رعبها وحزنها علي، المهم يا أستاذ، فهمت أنّ عليّ تغيير أقوالي بعد صفعات متتالية أطارت الرؤية من عيني، فشطوا رأسي بالسكين وأعادوني إلى غرفة الشبح، فقررت الاعتراف، ليس بسبب الصدمات الكهربائية، بل بسبب الصرصور، نعم يا أستاذ، لم أحتمل، كان يثبت أرجله في رأسي ويغمسهما في دمي، شيء لزج، ومنفر، كدت أفقد عقلي، فصرخت: (أنا قتلته). كان بجانبي رجل ضخم، عميد سابق في الجيش، همس لي: (يا غبي سيعدمونك) لكنّي كنت في تلك اللحظة أفضّل الإعدام على ما يفعلونه بي. أخذوني إلى المغسلة، ألبسوني ثيابي، وجلست ثانية أمام الضابط الذي قدّم لي كأساً من الشاي. كان أمراً غريباً، في حياتي يا أستاذ لم أجلس على مقعد فخم وأشرب الشاي في مثل ذلك الجو. اعترفت بسرعة وأنا متقوقع على الكرسي بانتظار الإفراج عني، لكن ذلك لم يعجب الضابط، وصاح بي بشراسة:

ـ ولاك، سقيتك شاي، فكّرتك بتفهم، طلعت حمار، نحنا منعرف مين قتل العسكري.

وصفعني بقسوة أطارت بقايا الرؤية من عيني اليسرى الّتي لا أرى بها جيداً إلى الآن. وقال لي:

ـ ولاك حمار، بدّك يشنقوك لأنك كذاب؟

قلت إنّ كلّ شيء أهون مما لاقيته هناك، ويبدو أنّ كلماتي أثارت الضابط أكثر، فقال لي:

ـ نحنا عنا قهوة وشاي، كنت شايف كابوس أكيد.

وأبديت استعدادي لقول ما يريده مني، وقلت إنّ السلال هو من قتل العسكري، والسلال، شاب من حارتنا ـ الكلاسة ـ لقّبوه بالسلال لأنّه كان يتصدى للدبابات فاتحاً صدره وهي تمطر المتظاهرين بالرصاص، ويقفز فوق السطوح من دار لدار كلّما لاحقوه أو حاصروه، تعال، انظر، هو هناك في الزنزانة المقابلة. المهم، الضابط لم يكن يريد السلال، كان يريدني أن أعترف أنّ عصمت هنانو هو الذي قتل العسكري! هل تتصور ذلك يا أستاذ؟

❖❖❖

زارنا السلال في الغرفة، شاب في الخامسة والعشرين من عمره، نحيل، رقيق العظام، متوسط القامة، تائه النظرات، جلد وجهه مجعد وكأنّه في الستين، يقوم بحركات هستيرية تدل على نقص في ملكاته العقلية، أمي ساذج، لكنه متحمس للناصرية بشكل يتناسب مع تكوينه الجسدي والنفسي، حدّثنا أن محمد حيصو ـ أحد قادة الحركة في الكلاسة ـ هو من نظّمه في حركة الوحدويين الاشتراكيين. (ومحمد حيصو هو القائد الفعلي، الذي خرج إلى الشارع، ولم يختبئ ريثما تمرّ العاصفة ـ كما فعل الآخرون ـ الذين أقاموا في حمص وحماة ليوجهوا النّاس في إدلب وحلب!).

لقد أمضى السلال في غرفة اللحف اثنان وعشرين يوماً، حدّثني كيف كان يلتهم الفسفس والقمل أمام أعين جلاديه، وكيف تملص من قيده في غرفة الشبح، وأكل الصرصور، لم يحتمل الضابط صلابته

فتناول إبريق الماء وضربه به، فلمّ الزجاج ومضغه وعيون الضابط تنظر إليه فزعاً، لم يترك له فرصة التمادي، ضربه بكأس الماء فشقّ رأسه، نُقل السلال إلى المستشفى بعد ذلك، وعملوا له غسيل معدة، تعبوا منه فرموه في السجن وقد رأيت جسده، ذلك الجسد الهزيل لم يكن فيه شبر يصلح منفضة لسجائرهم!

وحدّثني أنّه التقى بالأستاذ أدهم مصطفى (أستاذي) كان معه في غرفة اللحف، كم مرّ من الأيام! الأستاذ أدهم وضع أوّل خطوة للتغيير في حياتي.

بهدوء تسبقه ابتسامة ناعمة دخل الصّفّ، وبدأ الدرس دون مقدمات.

((لبلاد العرب حدود طبيعية تفصلها عن حدود العالم، في الشمال جبال طوروس إلى زاغروس، ومن المحيط إلى الخليج. الشعب العربي شعب واحد بالتكوين الخَلقي والخُلقي، لا كما يزعم البعض بأنّ تكوين سكان سورية يختلف عن الجزيرة العربية. الآمال واحدة، الآلام واحدة، الدين واحد، وأرضنا مهد الديانات ومنبت الحضارات ومنارة الأمم، وعلينا جميعاً أن نعي أنّ لا سبيل لخلاص الأمة إلا بوحدتها وبالقضاء على الاستعمار والإقطاع والرجعية ورأس المال)). ما قاله أستاذ الجغرافيا قريب مما في نفسي فالطوائف والشيع والتفاوت الطبقي والعرقي، كلّ هذه الانحرافات يجب أن تزول، تساءلت إن كان الأستاذ يقصد أنّنا سننزع الأراضي من ما لكيها ونوزعها على الفلاحين. قال:

. ماذا ترى؟

قلت:

ـ أرى أن أهدم هذه البنايات الشامخة وأجعلها دوراً شعبية يسكنها الفقراء، وآخذ أموال التجار، وأوزعها على الفقراء

والعاطلين عن العمل، أنا لا أجد قبواً أسكن فيه فماذا تريدني أن أرى؟

ردّ عليّ بهدوء:

ـ ما هكذا علينا أن نعمل، نحن لا نهدم، نحن نحقق العدالة.

احتجّ حمو بأنّ الحوار خارج الدرس.

خلط الأستاذ الجغرافيا بالتاريخ، وأخذ يتكلم عن الوحدة في البلاد الأوربية، حتّى وصل إلى إيطاليا وجمعية (الكاربوناري[10])، ثم تحدث عن حزب البعث الإيطالي ونضاله في سبيل الوحدة، وعاد ليتحدث عن الوحدة العربية، مما أثار الكتلة الشرقية في الصفّ، فبدأ الطلاب بإثارة الشغب. تصدّى تكتل الغرب لهم وبدأنا حواراً حول مفهوم البعث عند الإيطاليين وعند العرب، فالبعث في القرآن هو يوم القيامة، أثارتني الفكرة، فقلت للأستاذ:

ـ أستاذ أنا لا أعرف إلا البعث من القبور، وبعده إمّا الجنّة وإمّا النّار، فإلى أين بعثك؟!

ضحك بانشراح رافقه قرع الجرس، في الباحة همس لي رياض:

ـ الأستاذ أدهم مصطفى يريدك.

لم أكن أعرف بعد اسم أستاذ الجغرافيا الذي لوّن العالم من حولنا في حصته خالطاً المواد ببعضها.

مشياً على الأقدام هبطنا التلّة باتجاه الشمال إلى مستشفى الرمضانية، دخلنا زقاقاً ضيّقاً انتهى بنا إلى أقصى الشمال الشرقي " بعد برّاكات الأرمن" إلى دار صغيرة.

---

[10] ـ الكاربوناري: هي المنظمة العمالية المعروفة ب "الفحّامين" وهي منظمة سياسية سرية نشأت في القرن التاسع عشر في إيطاليا ، وكانت تحمل أفكاراً تحررية

على أرضية الغرفة بسط الأستاذ، سندويش الشاورمة، وحضّر الشاي بنفسه، وأخذ يحدّثني عن حزب البعث وأهدافه، وأعطاني كتيباً صغيراً بعنوان (دستور حزب البعث)

وطلب إليّ قراءته لأناقشه في محتواه، عندما تساءلت عن تشكيل الحزب، قال إنّه قيد

التشكيل، وإنّ رئيسه (صلاح، وميشيل) تبسمت في سري، عند القوميين أنطوان، وعندهم ميشيل، قلت:

- ولم لا يكون رجلاً مثل زكي الأرسوزي - مثلاً - مؤسساً للحزب؟

رمقني بهدوء:

- زكي الأرسوزي فيلسوف لا يصلح للسياسة، سأعرّفك على الأستاذ ميشيل، وسيعجبك كثيراً.

قلت بسخرية:

. ما أفلح قومٌ ولّوا عليهم أنطواناً أو ميشيلاً، دعني أفكر...

لم أخرج من نقاشي مع الأستاذ أدهم بنتيجة مرضية، فقد كنت أرى أنّ الرسالة الخالدة هي ما جاء به محمد (ص) للناس أجمعين فإذا التزم بها الحزب أمن سلامة الحركة في الأوساط الشعبية، ودّعم المبدأ بواقعة تاريخية ثابتة ولاسيّما ليس للعرب رسالة غيرها، لكنّ الأستاذ كان يرى أنّ للعرب عدّة رسالات وحضارات، في اليمن، وتدمر والساحل السوري والبتراء و...

وكان يرى أنّ العرب أهل شعر وفصاحة وكرم وأدب وفن، وممالك أرهبت العالم في تدمر واليمن والرافدين، وفيهم قحطان وغسان وعدنان، قلتُ:

. أحد المؤرخين العرب قال: (يونان أخو قحطان، وأخوة قحطان توزعوا في البلدان.)

قال:

ـ لا تسخر، كن جديا، فنحن مقبلون على عمل هام.

كان الأستاذ يرى في مفهومه للاشتراكية أن تؤمم الشركات الاحتكارية وتصبح ملكاً للشعب، ثمّ الأرض والمعمل، فالقصور، وكنت أحلم بانقلاب اجتماعي، يقضي على العقائد والمفاهيم السائدة، يوزع الثروة بين الفقراء، ويجعل المجتمع طبقة واحدة، مجتمع بلا خرافات، ولا أولياء صالحين يحج النّاس إلى قبورهم، ورغم أنّي أرى الحزب الشيوعي ديكتاتورياً، إلا أنّي حلمت بجمهوريات عربية على نمط الجمهوريات السوفيتية.

كنت أحلم أن يكون الدور الأساسي للقضاء لا للرقيب!

سلّمنا الأستاذ أدهم ـ وقد أصبحنا خمسة ـ إلى الأستاذ فايز إسماعيل الذي شكّل منّا أوّل خلية، كنّا نجتمع به تحت حائط الخزّان في " الصفا " مقابل قشلة الترك، وكان يسكن في " الشيخ بكر ".

التقط الأستاذ فايز كراهيتنا للنظام الاجتماعي السائد، فغذى فينا هذه الكراهية، بمهاجمة إقطاعية حزب الشعب والحزب الوطني اللذين انشقّا عن الكتلة الوطنية، وتناحرا على السلطة.

الفكرة الأساسية الراسخة في أدمغتنا كانت أنّ البعث بعث الشباب المناضل المثقف المكافح في سبيل تحقيق رسالة أمته الخالدة.

جاءنا الأستاذ بالبشرى، لقد اجتمع المؤتمر العام، وأقرّ دستور الحزب، أصبح البعث حزباً قائماً!

أنظارنا أصبحت تتطلع إلى الوحدة، والأستاذ كان يرى أنّ ذلك سيستغرق خمس سنوات! كان الرقم يعني دهراً، هل أنتظر خمس سنوات لأرى الوحدة!؟ الأستاذ بلثغته المحببة قال:

ـ اتركها على التيسير.

لم أقتنع، حتّى تلك اللحظة كنت أرى زكي الأرسوزي أحقّ بها، ربّما لما تركه درس ذلك الرجل الفيلسوف بحضوره الرائع في نفسي، ولأنّه أوّل شخص تكلّم عن البعث كفكرة تؤسس لقيام حزب. كنت أرى حزباً منتصراً بإرادته هو، وقيادته هو، أمّا ميشيل! الأستاذ أصرّ:

ـ سأعرّفك عليه، وستراه عبقرياً.

وأقسمت اليمين... لأوّل مرة يبتعد الله.. ليحلّ الشرف مكانه!

(أقسم بشرفي ومعتقدي)!

(لقد كان مؤلماً أن تدرك وقوعك في الخديعة، فخ نصب بمهارة، قادة اعتادوا على النفاق للوصول إلى المناصب، يبررون ذلك بفلسفة سخيفة ـ النضال الإيجابي ضمن الجبهة ـ فإذا لم تكن تجيد الانبطاح فلا مكان لك في النضال، وبسطاء يقعون بين فكي الرحى. التعذيب لهؤلاء الذين عاشرتهم في السجن، والمناصب لأولئك الذين اختبأوا كالجرذان! هل يعقل أن تذهب أحلامك كلّها أدراج الرياح؟).

❖❖❖

دخل علينا الزنزانة، شاب في الخامسة والعشرين من العمر متوسط القامة، نحيل، قسمات وجهه توحي بالاطمئنان، وعيناه تشعان بالشجاعة كعيون الليث. قسماته تدل على الجرأة والتصميم. رحّب بنا معرّفا بنفسه:

ـ سمعنا بكم في الجناح الآخر، أرسلوني إليكم لمعرفة الأخبار، وإن كنتم تحتاجون لأيّ مساعدة.

سررت بلقائه، رجل كما وصفه السلال (ولا كلّ الرجال):

ـ اشكر الأصدقاء، لقد وصلتنا هداياهم، ونحن في بحبوحة من العيش والحمد لله لا نحتاج شيئاً.

أنا أحسدك يا محمّد على الصحبة.

ضحك محمّد قائلاً:

- لا تفعل، أنا أحسد نفسي، نحن نشكّل مجموعة منسجمة تماماً.

لقد كان محمد حيصو يقيم في المطعم (هذا السجن كان إسطبلاً لخيول عسكر المليس الفرنساوي، والزنزانات الّتي نسجن فيها كلّ خمسة في غرفة، كانت الواحدة مخصصة لحصان واحد، أدخلت الدولة إصلاحات على الزرائب ورفعتها عن أرض الممر. أما الجناح الثاني فقد كان مطعماً للعساكر يتسع لأكثر من مئة، أغلقت نوافذه، وفتحت كوى صغيرة بشبك من الحديد، ودُعّم بأبواب حديدية سميكة) أضاف محمّد:

- السجون لم تعد تتسع للمعتقلين، لو يسمعون مني، كانوا أحاطوا البلاد كلّها بأسلاك شائكة وانتهى الأمر.

عقبّت ساخراً:

- لكنّك حينها ستبقى حراً في الحركة، هم يريدونك عاجزاً، فكيف يتحقق ذلك وأنت تستطيع رؤية السهل والجبل والبحر؟ اقترح رفع شعار، اهدم مدرسة وابنِ سجناً، ذلك أفضل.

ضحك بشدّة وقال:

- سنرفع اقتراحك إلى "أبو عبدو" الجحش، ونقول للأستاذ عماد الحراكي، والأستاذ أديب النحوي، والأستاذ عبد الرحمن عطية، والأستاذ عصمت هنانو، رفاقي في المطعم أن يوقّعوا على العريضة باعتبارهم شخصيات (اعتبارية).

قلت بمرارة:

- نعم، لهذا هم هنا!

❖❖❖

لم يكن جسد محمد حيصو الموسوم بجنازير فولاذية، ووجهه المليء بثقوب سوداء غائرة، هو وحده الشاهد على ثبات النّاس على عقيدتهم، بل هناك من ماتوا تحت التعذيب، وخرجت تقارير وفاتهم بالأزمات القلبية والجلطات الدماغية. لم يكن هؤلاء وحدهم، فأوّل الشهداء في سبيل الوحدة كان (فرج الله الحلو) الذي ذاب في أسيد السرّاج ودلق في بالوعة المخابرات. ما زلت أترنم بأبياته (نحنا ودياب الغابات ربينا) وما زلت لا أعرف الرابط بين ذئاب الغابات وعبد الحميد السرّاج، وإن استطاع بدر أن يثبت لي أنّ الذئاب في الغابات نزيهة وبريئة مما ينسب إليها. وأنّ أخوة يوسف هم من افترى على الذئاب البريئة وجعلوها على مرّ التاريخ تحمل وزر جرائمهم!

طلع علينا "أبو عبدو" بمبدأ جديد في الحكم، خلاصة فلسفته (قيادة جماعية، تنظيم شعبي) ليؤكد أنّ الحكم ليس فردياً ديكتاتورياً. واعتمد في قيادته على (جديد وزيادة). دخل السجن (أصدقاء) عملاء ليقضوا معنا فترة الحكم راضين. لكنّنا تعودنا الحياة هنا ولم نعد نخشى الزبانية ولا العملاء. وانغمست في القراءة حتّى نسيت أين أنا، كنت أسافر بعيداً، أجوب مدناً وحضارات وأعيش أزماناً، وأتذكر تلميذي "اسمَدَر" بين حين وآخر وأتمنّى لو كان لي قدرة على العيش دائماً خارج الجدران العالية.

جاء رمضان مع نهاية الخريف وصدف أن أثبتت الحكومة الشهر قبل مصر بيوم، فقررنا الصيام مع مصر! أعطونا بعض الحريّة في رمضان، ووزعوا علينا كميات كبيرة من اللحم والحلويات والفاكهة. وسمحوا لنا بتبادل الزيارات والحديث مع الوافدين الجدد، وسمحوا لنا بإقامة الصلاة جماعة!

أما أغرب ما حدث في رمضان فهو إرسالهم لنا شيخاً يؤمنا بالصلاة النّارية! ضحك إسماعيل قائلاً:

ـ ما أغربهم! لا بدّ أنّهم يعتقدون بأنّ "أبو عبدو " سيفرّ من دمشق كما فعل نابليون.

قلت ساخراً:

ـ نابليون لم يفر من أثر الصلاة النّارية الّتي أقيمت في الأزهر، هذه حماقة، الأسطول الانكليزي في أبي قير ودسائس المديرين في باريس أخرجاه من مصر.

رحّب بنا القوم، وكان أشدهم ترحيباً عبد الرحمن عطية، ذكّرته بلقاء سابق حين امتحنني لمهنة التدريس (**لم أكن أعرفه من قبل، لكنّ صيته سبقه فأدخل القلق في نفسي، بعد ترحيبه بي بادرني قائلاً:**

ـ إذا ضاقت بنا سبل المعالي وأفلسنا، صرنا معلمينا.

أجبته:

ـ ما ساءني إلا الأمير بقوله: كاد المعلم أن يكون رسولا.

انتفض عبد الحميد بيك عضو اللجنة قائلاً:

ـ لماذا جئت إلى هنا إذاً؟

ردّ عليه عبد الرحمن عطية:

ـ من الإفلاس، والتفت إليّ سائلاً:

ـ أأنت عربي أم مسلم؟

قلت:

ـ هل كان أبو بكر وعمر وعلي مسلمين ثمّ أصبحوا عرباً؟

ضحك عبد الرحمن عطية، فاهتزت قامته الممتلئة، ومسح بكفه السميكة على شعره الأسود، وكرر السؤال، فأجبته بأنّي أحبُ العرب لثلاث، فأنا عربي والقرآن عربي، ولغة أهل الجنّة العربية، وأين أنا ممن قال ذلك! سألني:

ـ وهل ستبقى معلّماً طيلة حياتك؟

لم أنكر توجهي خارج نطاق التعليم فأغضب رأيي عبد الحميد بيك. فسألني إن كنت سأعلّم التلاميذ مبادئ البعث، لم أستطع إنكار ذلك، فالبعث من أصول الدين، كلّ بعث يأتي بعد آخرة، والأمة العربية كانت في نوم عميق، وعلينا أن نبعثها من جديد. تشاور عبد الرحمن عطية مع عضوي اللجنة همساً، وقال لي: (مبروك).

. تلقّاني مصطفى على الباب قلقاً:

ـ عرفت أنّ عبد الرحمن عطية سيعمل على عرقلتك، ألم أقل لك خفف، وانتبه فهو من الأخوان؟

لم يصدق مصطفى أنّي تجاوزت الامتحان وقبلت، ولم يصدق أنّي امتدح عبد الرحمن عطية بما رأيته من تهذيبه وتساهله في معاملتي). ولقاء آخر جمعنا في خصومة بين بعثي وأخوان...

تحدّثنا طويلاً، وضحكنا أكثر، كلانا انقلب انقلاباً كلياً. كان عبد الرحمن شاباً مصارعاً، مفتول الساعدين، مستدير الوجه، شديد السمرة، طويل القامة، ممتلئ الجسم، وكنّا نقول عنه إنّه موسوعة إسلامية فكرية، فصيح اللسان، مهيب الطلعة، على جانب من اللطف واللين! كنت تشعر حين تراه أنّك أمام مصارع، لكن حين يتحدث تذهب رقته بكلّ التصورات. عكس أديب النحوي الرفيق الرقيق النحيل، القصير القامة، الكثير الكلام، كان لا يترك الفرصة لمحدثه لكثرة ما يتحدث عن نفسه ويتعرض بالنقد لكلّ المناضلين الناصريين. وعلى الرغم من صداقتنا أيام البعث إلا أنّي فضلت الانضمام إلى حلقة عبد الرحمن عطية قبل بدء الصلاة. وسألته:

ـ لماذا عدت من قطر يا أستاذ، وأنت مدير معارفها، ما الذي رماك في هذا الجب؟

قال:

ـ السجن أحبّ إليّ من زواج الغلمان، لقد قضيت فترة هناك أيقنت بعدها أنّ لوط خرج من تلك البلاد.

قلت: وما بال هذا الدجال الذي جاء يؤمنا بالصلاة.

همس: اصمت سيقال عنّا ملحدون.

أكثر المصلون الدعاء، الكلّ يدعون بتفريج الكرب وهلاك "أبو عبدو". قلت:

ـ يا رفاق سموه باسمه، أخشى أن يكون اسمه في اللوح المحفوظ "أمين الحافظ" فلا يستجيب الله لنا.

كنت أعرف أنّ الشويخ عميل استخبارات، لكن أكثر من القرد ما مسخ الله على حدّ قول كاظم!

❖❖❖

كان الشتاء قاسياً، ثلوج وزمهرير، والبيجاما اليتيمة لا تكاد تغطي الجلد، كتف مكشوفة للعراء، وساعد يبين نصفه من الثقوب. وجدران ترشح رطوبة ووحشة.

في مواعيد الزيارات كنّا نرى ـ من خلال العسكر الذين يسدّون الباب ـ المقبرة الملاصقة للسجن، فنحسد الأموات على حريتهم. وفي كلّ موعد للزيارة تتراجع معنوياتي حين أقف صامتاً وسط ضجيج الزوار والسجناء أرنو إلى أفق مسدود وأتأمل وجه رضية، اليوم لمحتها، لم تكن رضية تلك الّتي تطلّ من الشبك. كان وجه أمينة، هل جاءت حقّاً أم أنّ عينيّ تخلطان الرؤى؟ وجودها في السجن أثار كآبتي، وفوجئت بوجه جمال يحاصر أحلامي، ويتحول الحلم كابوساً أفيق منه مبللاً بالدمع والرطوبة، طالت ذقني وقلّ كلامي، وانتحيت زاوية الزنزانة لا أكلم أحداً، وقررت الإضراب عن الطعام. عرضت الفكرة على المعتقلين، عارضها البعض واستجاب البعض الآخر. في اليوم

الثاني أفطر يعقوب، قال: لقد ضربني الرب على فخذي الأيسر فكسره، وأخاف أن يكسر الأيمن، وفي اليوم الثالث أفطر داوود وفي الرابع أفطر سليمان، وفي الخامس أتانا تهديد من مدير السجن فأفطر إسماعيل، قلت يا قوم أين نضالكم؟ أنت زعيم الكلاسة وأنت زعيم المحامين، وأنت كنت في زعامة الأخوان، فلم تركتموني وحيداً؟ قال مدير السجن: لقد أتاك بدر. فقلت: يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم.

أخرجوني إلى مدير السجن وقد التصق بطني بظهري، وخارت قواي، ولم يكن وزني يتجاوز الأربعين كيلو. نظر بدر إليّ وهمس بحقد:

ـ لن تحتمل حذائي إن داس رأسك.

رموني في الزنزانة كخرقة بالية، ولم تفلح جهود الرفاق في إيقاظي أو جعلي أتكلم، كنت أفتح عينيّ الغائمتين فلا أرى سوى ألوان لقوس قزح في سماء رمادية فأعود للغوص في كابوسي. بعد يومين من التزامي الصمت وخمسة عشر يوماً من إضرابي عن الطعام لم أعد أقوى على الحركة، كنت شبه جثة ممدة في أرض الزنزانة تطالب بحريتها في اختيار قبر مناسب! قبل انتهاء اليوم أحاط أربعة من الجنود بالزنزانة، وجرّوني خارجها، وقّع مدير السجن أمر مهمة لهم وأخرجوني إلى سيّارة جيب.

كان منظر النّاس في الشوارع غريباً، أكثر ما أثار استغرابي تلك القدرة العجيبة على السير بقدمين، كنت أنظر إلى قدميّ وأتساءل هل سأستطيع السير عليهما ذات يوم؟

في مبنى القيادة العامة تركوني وحيداً في قاعة مفروشة بالسجاد والمقاعد الوثيرة عدّة ساعات، كنت أدخن، وأحاول لمّ أفكاري المبعثرة في متاهات لا قرار لها. جاءني رجل بدوي يتكلم بلهجة عراقية، حاول جرّي للحديث ليعرف تهمتي، حين عرف أنّها سياسة، قال لي بلهجته

المحلية: ما دخلك بالسياسة من يأخذ أمنا نقول له عمنا. قلت: (وإن تكاثر الزناة عليها؟ ألا تستحق الجلد والذبح). غروري أطاح بالفرصة الّتي جاءتني تسعى على قدميها فلم أستغلها، واستقبلني مدير السجن ـ الذي ظنّ أنّي لن أعود ـ بشتائم أخفها: ـ اللعنة على من قال إنّك متعلم وتفهم). وقادني إلى القاعة الكبرى بعد أن أحَلَّ مكاني معتقلاً آخر مستبشراً بعدم عودتي!

❖❖❖

ما بعد التيه

دلفت المقهى الخاوي، كانت الطاقة مغلقة والكراسي يعلوها الغبار، صفّقت منادياً عائشة، جاءتني على استحياء لتخبرني أنّ أباها مريض وهي تعتني به، لاحظت أنّ عائشة كبرت فجأة في غفلة من الزمن، وأنّها تغطي رأسها، هل هذا معقول؟ هل مرّ الزمن بهذه السرعة!

تصورت للحظات أنّ مصطفى سيقتحم المكان، وسيعلو صوته مناقشاً رياض في ضرورة الترشح للبرلمان، أسمع صوته يضحك: (لم لا تترشح يا إبراهيم؟ نريد شخصاً مستقلاً، ونحن سندعمك). جلجلت ضحكة هاشم: (أصبح له صفحة سوابق لن يقبلوا ترشيحه). سيقفز جودت الدرجات بمرح ويرتمي على الكرسي في الزاوية ليناكف خلدون، وستشرق ضحكة سعيد. انتبهت إلى القهوة الباردة حين دخل محمود واجماً، قرأت في وجهه آثار إرهاق وحزن:

- ما بك؟

قال بغصة:

- لم أتوقع أن أجدك هنا، بحثت عنك البارحة في كلّ مكان ولم أجدك في البيت.

استنفرت حواسي فقد شممت رائحة كئيبة في كلماته:

- لمَ؟ ماذا حدث؟

- جودت، وجدوه ميتاً البارحة، غرق في العين الصغيرة.

نهضت ملسوعاً ببقايا كابوس لن ينتهي، ثمّ تهاويت على الكرسي، كيف؟ لماذا؟ كان محمود يحمل معه أقاويل واحتمالات أقربها للحقيقة أنّ نوبة صرع فاجأته وهو هناك فغرق، هل يمكنني أن أصدق ذلك!؟ في العين الصغيرة! وكيف لفظت العين جثته وهي فوهة رهيبة تبتلع كلّ من تسوّل له نفسه معرفة ذلك السر الرهيب الذي تحتفظ به داخلها؟

لا أزال أذكر هؤلاء الذين عبروا أحشاءها يوماً بحثاً عن منفذ الماء ولم يعودوا! كم من أساطير حيكت حولها، وكم من أحزان أقامت في الصدور على فقيد لم يستطع أحد أن يعرف مصيره!

المثير للاستغراب أنّ جودت كان بكامل ملابسه، وأنّ جسده مليء بالكدمات. الشرطة حفظت التحقيق وقالت إنّه انتحر. جودت! هل يعقل ذلك؟ (ولم لا؟ لن تنسى منظره في السجن بعد عودته من حفل تعذيب استمر أياماً، لن تنسى سكره وعربدته وشتائمه لبعبع الشمال بدر، هل تستطيع أن تنسى منظره وهو في حالة سكر شديد كيف دفع بنطاله أرضاً وهو يصرخ: لم أعد أنفع لشيء!) لا لم أنسَ، لا يمكنني ذلك، منذ تلك اللحظة توقعت أن يقضي في السجن، لكنّه عاد يوماً من مقابلة البعبع، وهو يضحك بشكل هستيري ويخبرنا بأمر الإفراج عنه، حين سألته كيف حدث ذلك، همس لي: (هل تذكر لحلوحة؟).

وكيف لي أن أنساها، كيف لي أن أنسى من كانت بطلة حلم روائي امتدّ سنوات ولم يكتمل! تابع جودت بمرارة: (كنت على علاقة بها، أسهر عندها في الشهبندر، البارحة رأيتها عند بدر، تلوّنت لرؤيتي، ثم تماسكت، وطلبت إليه أن ينفردا، لا أعرف يا صاحبي ما الذي حدث لكنّ حارسه جاءني وأنا أنتظر على الباب بأمر الإفراج!).

حقّاً لم يكن يعرف ما حدث؟ ها هي الحياة تكتب نهاية روايتي دون تدخل مني. لحلوحة وبدر! آخر ما كنت أتصوره.

لم يكن ما سمعته غريباً، منذ زمن عرفت أنّ لها علاقات مشبوهة بضباط ورجال في مواقع سلطوية حساسة ولكنّي لم أتوقع أبداً أن تكون علاقتها مباشرة برأس الحربة بدر. جودت كان يعرف كلّ شيء، يعرف لمَ تركته لحلوحة وابتعدت عن طريقه، يعرف أنّه مهما علا شأنه فهو مجرد سكير يصرف راتبه في زقاق "بحسيتا" على العاهرات ويستدين قبل نهاية الشهر. منذ صغره لم يعبأ يوماً بالسياسة ولم تكن

لديه اهتمامات بما يجري، حتّى أنّه كان يرافقنا في المظاهرات ضدّ الفرنسيين لإشباع رغبته في الصراخ، هكذا قال لي: (أتدري يا إبراهيم ما الذي يعجبني في الخروج معكم؟ غياب صوتي آخر النهار، أشعر براحة كبرى حين أحاول الكلام ولا أستطيع، وقمة متعتي أن أركض فاراً من أيدي الجنود ولا يستطيعون الوصول إليّ).

رحم الله تلك الأيام الّتي كان جودت يسبقنا فيها إلى العين وإلى بستان محمد ديب، كان أوّل من يتسلق سور المدرسة ويقفز إلى الشارع ليشجعنا على الهرب. مرّة واحدة رفض أن يهرب، وبقي جالساً في مقعده صامتاً حين حاولت أن أعرف منه السبب قال بغصة: (أريد استفزاز فريد أفندي علّه يطرق رأسي بالجدار فيميتني هذه المرّة).

مرّ زمن طويل على حديثنا ذاك حتّى باح لي جودت بسبب رغبته في الموت حينها.

لكنّه روى الأمر على أنّه طرفة، وضحك كثيراً وهو يرويه، كان عائداً من بحسيتا وهو يترنح من السكر، جلس على طرف السرير مثقلاً بهذيانه، ثمّ نهض ليخطف الكتاب من يدي: (أتعتقد أنّك ستنجح؟ والله كلّنا مآلنا إلى الجورة، لكن متى سيكون ذلك).

قلت جاداً: (لماذا أنت متشائم هكذا؟ أراك تعيش حياتك بالطول والعرض، ولا يجاريك أحد!).

نعم، هذا الظاهر، الحقيقة أنّي أهرب من شعوري المقيت بالحزن، أهرب من نفسي، أهرب من وجودي، ماذا أقول لك؟.. لن تفهم..

رميت الكتاب طوعاً، لقد أثار جودت اهتمامي، نسيت عبثه حين سمعت رنة الحزن المباغتة في صوته، وأصغيت لرفيقي الذي اكتشفت أنّي جهلته طيلة عشرين عاماً من عمرنا المشترك مذ كنّا أطفالاً نلعب في الزقاق. جودت روى لي تلك الليلة ما عمّق محبتي له واهتمامي به، فقد وجدت أنّ أرواحنا التقت منذ الصغر وإن كنّا نجهل الأسباب

الحقيقية، كنّا نعاني يتماً مشتركاً، هو يعاني فقد أمه وزواج أبيه من أخرى، وأنا أعاني من إهمال أمي وقسوة أبي، كان يعاني من غموض تلك العلاقة الّتي تربطه بأبيه، كثيراً ما كان يظن أنّه ابن حرام، لأنّ أباه كان يرددها على مسامعه كلّما ضربه، فيلجأ إلى البراري ويعود خائفاً فزعاً آخر المساء، قال لي مرة وهو يبكي: (لو أنّ لي أنياباً، لما جرؤت الذئاب على الاقتراب مني). كان ذلك في زمن موغل في قدمه، كبرنا، واحتوتنا حلب بعيداً عن تسلط آبائنا، فوجد كلّ منا طريقه، حاولنا مراراً أن نثني جودت عمّا يفعله، لكنّه كان يضحك ساخراً: (أتريدونني أن أموت؟) كان يرى ابتعاده عن المرأة موتاً وإن لم يقتنع يوماً بفكرة الزواج: (متى تزوجت صحوت على الحقيقة، المرأة مجرد ذئب سيغرس أنيابه في جسدي ويمتص دمي، سأبقى هكذا سكران لأراها جميلة دائماً ما دامت ليست زوجتي).

حين أخبرني بحبه للحلوحة، كنت ألمح في وجهه ألقاً غريباً، هل اقتنع جودت بأهمية الحب والزواج أخيراً؟ لقد كفر به طيلة حياته، لم يكن يريد أن ينجب أولاداً يعذبهم كما عذبه أبوه، لكنّه أحب لحلوحة، قالها لي بصراحة: (ليست كالنساء، تشعر معها بشيء مختلف، تطير بأجنحة، وتغوص في بحيرة أمان!). قلت ضاحكاً: (هو الخمر). اغتاظ لقولي: (لن أخبرك سراً بعد الآن).

لكنّه أفصح عن ألم عميق، وغرق في الشرب أكثر بعد فترة من الزمن، علمت حينها أنّ لحلوحة تركته! أدركت طبيعة حبّه لها، كانت تكبره بسنوات، تلك المرأة الجميلة الّتي تفيض أنوثة وحناناً كما وصفها!

كان من الطبيعي أن تتركه إلى الأقوى والأكثر نفوذاً منه، جودت رفض فهم اللعبة، وأصرّ على أنّها تحبه، وأنّهم ضغطوا عليها، وأحياناً كان ينظر إلى نفسه في المرآة محدّثاً نفسه: (علام تحبك؟ انظر إلى شكلك، تشبه القرود). ويضحك بقوة، ثمّ ينهار باكياً. بعدها فرّقتنا

الأيام حتّى التقيت به في السجن. قال لي ضاحكاً: (أتدري أنّ أبي كان يعشق عاهرة في بحسيتا؟ لقد رأيته هناك، تجاهلني، وحاول أنّ ينسحب لكنّي هجمت عليه معانقاً، سكرنا على مائدة واحدة، وأصبحنا أصدقاء!).

قلت مازحاً: (هذا الشبل من ذاك الأسد). عقّب بمرح: (أنت على صواب).

كم من الأحزان سيحتمل القلب؟ وكم من الأحبة سيغادرونك وأنت على حافة الهاوية؟).

رائحة الموت تغزو الزقاق أم أوراقي؟ لم أعد أطيق تلك الرائحة الّتي تخنق أصابعي فتنزف رماداً على الورق. لم أعد أطيقها رائحة العجز تلك، كلّ القصور الورقية ألقمتها النّار، كلّ أحلامي غرقت في العين الكبيرة، وبقي أثر وحيد من الروح في درعا.

أمسكت المقبض، تحركت العصفورة في الداخل، أصدرت صوتاً يشبه بكاء حسنة، لم يكن صوت الباب، بل صوتها. لا أعرف ما الذي يقودني دائماً نحو بيت بدرية القديم؟ فضول ربّما، حنين، ربّما، لكنّي دائماً أجدها على نفس الحال، دائماً أفتش عنها تلك الّتي حاولتُ أن أحكي للدنيا قصتها في رواية ففشلت، كانت متقوقعة في الزاوية تحت شجرة النارنج، لم تشعر بوجودي حتّى لمست كتفها، فانتفضت مبتعدة عني وهي تصرخ:

ـ أنا لم أقتله، هو حاول خطف طفلي، هو سرقه مني ودفعني يريد أن يرميني في الجب، لم أقتله، لم أقتله.

انفلتت تركض في الزقاق، سرت وراءها قليلاً، ثم توقفت. لقد فهمت كلّ شيء، حسنة ضربت "أبو رقعة" بحجر، أرادت إبعاده عن طريقها فأردته قتيلاً! المفاجئ ما تحدّث به النّاس بعد ذلك، كان "أبو رقعة" غارقاً بدمه والنقود تغطي جثته، وأشاعوا أنّ أحد أعدائه

صادفه في زقاق المنزول ليلاً وتشاجر معه، وقضى عليه، لكنّ القاتل لم يسرق شيئاً!

❖❖❖

اتصلتُ بمدير المنطقة لحاجة لي عنده، فقال لي:

ـ تعال نتحدث هنا، عندي الأستاذ محمّد.

سألته:

ـ من الأستاذ محمّد؟

قال:

ـ عندما تأتي تراه، هو يعرفك.

في الطريق كان يشغلني شكل الأستاذ محمّد ـ الذي يعرفني ولا أعرفه ـ عن التفكير في الترشيح الذي ملأ عليّ وجودي، وأيقنت أنّي في معركتي المصيرية هذه سأثبت لنفسي قبل الآخرين، أنّ نضالي لم يكن دون نتيجة، كنت بحاجة ليعرف من حولي أنّ قيمتي كإنسان تفوق الانتماء. لم يطل بي التساؤل، سرعان ما دخلت إلى غرفة مدير المنطقة الذي نهض لاستقبالي مرحّباً، ودعاني للجلوس، لكنّ الأستاذ محمّد اكتفى بنظرة متعالية وردّ على التحيّة ببرود دون أن يمد يده! مدير المنطقة عرّفني عليه:

ـ الأستاذ محمّد مرشح مثلك للنيابة، أرجو أن يكون التنافس شريفاً.

(الشرف! والتنافس؟ يا إلهي... إلى أين تسير الدنيا؟ أولى المؤشرات على فشلك، منافسك الأستاذ محمّد ديب الذي رمقك بعينه السليمة متحدياً، هاهو عند مدير المنطقة الذي نهض من وراء مكتبه احتراماً له وجلس على الكرسي المقابل! محمد ديب الذي قلت له إنّه لن يكون أكثر من زبال... ما الذي يحدث؟) زيارتي تلك زادت من تصميمي على

الوصول إلى البرلمان، وبذلت جهوداً كبيرة في زيارة القرى والنّاس الذين تعرّفت إليهم أثناء مشواري في التعليم.

كانت الخصومة تشتد بيني وبين صديق الأمس، أعلن عليّ حرباً باردة قذرة، كان يدور على القرى ويدفع مقابل الصوت وعوداً ونقوداً! باع الأراضي الّتي ورثها عن أبيه، أصابته لوثة الأستذة، ولم يكن بحاجة لتلك الأموال الّتي ينفقها بلا حساب! أراد التشبه بقدري بيك وصدّق أنّه أصبح ديبو آغا، فنصب بيت الشعر، وأقام الولائم، وتجمع النّاس حوله، ينتصف الليل والبيت ممتلئ بالساهرين، تدور القهوة المرّة، والأحلام تدور برأسه فينتشي، كلّما مررت به يدير وجهه ويتحدث إلى من حوله بصوت مسموع، لقد أصبح خطيباً مفوهاً في ليلة وضحاها، يصلي وراء الإمام، ويسير وسط النّاس بعد صلاة الجمعة إلى بيته حيث ينتظر الغداء تشريف القوم! ولم أملك في معركتي تلك سوى الكلمات أذروها فوق الرؤوس فتطير بلا أجنحة! (كيف تصل الكلمات إلى المعدة؟ كم أنت واهم، شعب لا يفكر برأسه، هل يستطيع استيعاب ما تقول؟).

ظهرت النتائج بعد معارك طاحنة، انتهت بنجاح رياض ومحمد ديب. وجررت خطى الخيبة، ودسستها في الفراش البارد. دخان، وبقايا فناجين قهوة، وبقايا قهر يترسب في قاع الحنجرة فيعتقل الصوت، وتخرس الكلمات، وتدفن الأحلام، فهل أضع على قبرها زهرة نرجس؟

❖❖❖

في الحلم رأيتها...

كم مرّ من الزمن لم تطرق فيه أبواب القلب؟

دمها يغطي الساحة، شعرها المجدول ملفوف حول معصمه الشرس، أنين مكتوم ينبعث من جسدها الهامد! استيقظتُ يغسلني العرق، كانت الموسيقى المصاحبة لمقدمة نشرة الأخبار تضرب أعصابي فتزيدها توتراً، مضيت إلى المغسلة متثاقلاً وبدأت طقوسي الروتينية المملة.

تشنجت أصابعي فوق رغوة الصابون غارسة الموسى في اللحم الطري، انتفضت بتلقائية، تناثر الدم بقعاً فوق المرآة، تسرب صوته مُبَعثراً في كياني: (كنّا ننتظرهم من الغرب، فأتونا من الشرق). تنفجر الكلمات شظايا في أوردتي، ويلجأ جسدي إلى مقعد متهالك، أغمض عينيَّ لأستوعب الحروف، ظلام دامس تخترقه ألوانٌ حمراء وصفراء فاقعة، وعبد الناصر يردد: (إنّ العدو يريد اغتيال الثورة، لقد أخذ الأرض، لكنّ الثورة باقية).[11]

مرارةٌ تستقرُ على شفتي، تبهت الابتسامة، فيظهر جلياً انحناءٌ في الشفة السفلى، ترتخي يدي عجزاً...

(عن أيّ شيءٍ تدافع الثورة؟).

جمدت نظراتي البلهاء على حواف المرآة المشروخة، وتعالى صراخي:

أخذ العدو الأرض، الثورة تدافع عن الأرض، الأرض راحت، الثورة باقية! سعيد أيضاً يصرخ: (الباخرة راحت، راحت لليهود في فلسطين، الأسلحة تطلق للخلف... الثورة باقية) جودت يصرخ: (عبيلي الجعبة خرطوش.... بيكلفني خمس قروش اللي بيقرب صوب حدودي... لكن الثورة باقية). خلدون وحده يبتسم بمرارة: (حبيبي لا تفكر كثيراً كلّنا سنطير، وستبقى الثورة).

---

[11] - من خطاب عبد الناصر إثر النكسة .

(رُحْتَ في نوبة هستيرية ترقصُ على ألحان الثورة الباقية، ترقص حدّ الإعياء، ترتمي على الأرض، يلمّ وجهك ملامحها، يعتنقها غباراً، حين تنهض لتستلقي على أشواك أمسك، تهب الريح لتكنس ما علق في الوجه، فتجد نفسك بلا وطن، بلا أرض، تتأرجح في فضاء ساكن! سكون غريب يلفّ المخلوقات، الكائنات الجامدة تنزف، كلّ ما تمسّه يداك يتحوّل إلى دم لزج، تركض هارباً من أشباح مخيفة تفتح أفواهها لابتلاعك! تتوقف، العرق يغسلك، ملابسك المبللة ببقاياك شاهد على حياتك، لا زلت هنا! نبضك ينتفض، العروق في يديك تبرز زرقاء باهتة بلون سماء قاحلة!

تقفز من الحافلة، تسير في الزقاق نفسه، تدلف الغرفة الرطبة، تستلقي على السرير الحديدي الصدئ، تتلقفك الكوابيس فاتحة ذراعيها.

يشتعل داخلك، يمتد الحريق إلى أعصابك، تشم الرائحة الخانقة تملأ الغرفة، تشمل الزقاق، البلدة، الكون...).

لم يطل الزمن بي وأنا أهذي، كان عليّ أن أصحو وأفهم حقيقة ما يجري، الحقيقة المرّة الّتي ترسب رمادها في حلقي أشواكاً ففقدتُ القدرة على ابتلاع الطعام، وعافت نفسي كلّ شيء، الدخان فقط يدخل رئتيّ ويخرج متدافعاً ليتخلص من أسر العتمة الرهيبة في جسدي، وينتشر في الأفق متلاشياً.كلّ ما مرّ بي بات كحلقات الدخان المتدافعة في الهواء، ثمّ لا أثر!

اللعنة، هل كلّ ما عشته كان وهماً؟ يزدحم ذهني بضباب تتدفق منه اللعنات والتساؤلات، أين سأضع قدمي؟ على أيّة هاوية سأشرف من جديد؟ وكيف سأتمسك بالهواء ولا أقع؟

(هوة بلا نهاية تفتح ذراعيها لاحتضانك، فلم تتردد؟ فلتذهب كلّ الأحزاب إلى الجحيم، لتذهب كلّ مبادئك إلى الجحيم؟ ليذهب كلّ ما ناضلت من أجله إلى جهنم، ماذا تنتظر؟).

فقدت إيماني بكلّ شيء حولي، لم أعد أنتظر عبد الناصر، لم يكن عبد الناصر ذاك العملاق الذي بيده تغيير مجرى التاريخ، لقد جعلنا منه نبياً، قتلناه حين جعلناه إلهاً، إلهاً حلو المذاق، كانت أنيابنا بانتظاره حين جعنا!

لم أعد أؤمن بقدرة البعث على التغيير، لم أقتنع يوماً بمقدرة الأخوان، أما حزبي، فمن المضحك أن أتحدث عن حزب طأطأ رأسه للريح، ثمّ ركب الموجة متخلياً عن هؤلاء الذين دفعهم إلى أتون السجون والمواجهات في الشارع، فكانت مكاسبهم عاهات دائمة وفقدان الثقة بوجودهم! وها أنا أرى بوضوح أنّ آمالي المعلقة على كتف الحزب الشيوعي تنهار!

فأيّ الدروب أسلك؟

(هل تحتاج درباً تسلكه؟ تضحكني أيّها الغريب، إلى أين تذهب؟

أمامك ظلمة.

وراءك خوف.

وفي داخلك قفص!).

ملك

تموز / ٢٠٠٥

تعريف بالشخصيات الواردة في الرواية بأسمائها الحقيقية

١ ـ جمال عبد الناصر: ولد بالإسكندرية قبيل أحداث ثورة ١٣٣٥هـ = ١٩١٩م

وعندما حصل على شهادة البكالوريا من مدرسة النهضة المصرية بالقاهرة في عام (١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م)، كان يتوق إلى دراسة الحقوق، ولكنه ما لبث أن قرر دخول الكلية الحربية، بعد أن قضى بضعة أشهر في دراسة الحقوق.

وبعد تخرجه في الكلية الحربية عام (١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م) التحق بالكتيبة الثالثة بنادق، وتم نقله إلى "منقباد" بأسيوط؛ حيث التقى بأنور السادات وزكريا محيي الدين.

وفي سنة (١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩م) تم نقله إلى الإسكندرية، وهناك تعرف بعبد الحكيم عامر، الذي كان قد تخرج في الدفعة التالية له من الكلية الحربية، وفي عام (١٣٦١هـ = ١٩٤٢م) تم نقله إلى معسكر العلمين، وما لبث أن نُقل إلى السودان ومعه عامر.

وعندما عاد من السودان تم تعيينه مدرسا بالكلية الحربية، والتحق بكلية أركان الحرب؛ فالتقى خلال دراسته بزملائه الذين أسس معهم تنظيم "الضباط الأحرار".

وكان الرئيس الفعلي للجنة التأسيسية للضباط الأحرار؛ ومن ثم فقد نشأ صراع شديد على السلطة بينه وبين محمد نجيب، ما لبث أن أنهاه لصالحه في (١٧ من ربيع الأول ١٣٧٤هـ = ١٤ من نوفمبر ١٩٥٤م)، بعد أن اعتقل محمد نجيب، وحدد إقامته في منزله على نحو مهين، وانفرد وحده بالسلطة.

واستطاع أن يعقد اتفاقية مع بريطانيا لجلاء قواتها عن مصر في (٢١ من صفر ١٣٧٤هـ = ١٩ من أكتوبر ١٩٥٤م).

وما لبث أن اصطدم بجماعة "الإخوان المسلمين" (حلفاء الأمس)، الذين ساهموا بقدر كبير في إنجاح الثورة وتوطيد دعائمها، لما كانوا يتمتعون به من قاعدة شعبية كبيرة وتأثير جماهيري قوي.

وكان له دور بارز في مساندة ثورة الجزائر وتبني قضية تحرير الشعب الجزائري في المحافل الدولية، وسعى كذلك إلى تحقيق الوحدة العربية؛ فكانت تجربة الوحدة بين مصر وسوريا في (شعبان ١٣٧٧هـ = فبراير ١٩٥٨م) تحت اسم "الجمهورية العربية المتحدة"، وقد تولى هو رئاستها بعد أن تنازل الرئيس السوري "شكري القوتلي" له عن الحكم، إلا أنها لم تستمر أكثر من ثلاث سنوات.

٢ ـ **حسني الزعيم**: قام بانقلاب في ٣٠ آذار ١٩٤٩ / على شكري القوتلي الذي نقل إلى المستشفى العسكري بالمزة مع رئيس الوزراء خالد العظم، وهناك قدّم استقالته إلى الشعب السوري في ٧ / ٤ / ١٩٤٩ /.

٣ـ **سامي الحناوي**: قام بانقلاب في ١٤ / ٨ / ١٩٤٩ / على حسني الزعيم / اعتقله هو ووزيره محسن البرازي، وقد قام النقيبان فضل الله أبو منصور وعصام مريود بسوقهما إلى مستودعات الذخيرة في المزة (قرب المستشفى العسكري اليوم) وجعلاهما هدفاً لأسلحة الجنود، وبدأ فضل الله بإطلاق النار وتبعه الباقون!

٤ـ **أديب الشيشكلي**: ينحدر من عائلة عريقة في حماة، ولد عام ١٩٠٩، اشترك في جيش الإنقاذ عام ١٩٤٧، وانتمى إلى الحزب القومي السوري مع صديقه أكرم الحوراني ثم قطع صلته بأي حزب.

قام بانقلاب أبيض على سامي الحناوي في ١٩ / ١٢/ ١٩٤٩.

٥ ـ **شكري القوتلي**: تولى رئاسة سوريا أثناء الاحتلال الفرنسي، وبعد الجلاء، وانتخب للمرة الثالثة، وسلّم الرئاسة لعبد الناصر أثناء الوحدة بين مصر وسوريا وكان أول مواطن في الجمهورية المتحدة!.

٦ ـ **عبد الحميد السراج**: رئيس شعبة المخابرات في عهد الوحدة. زادت سلطته حتى أصبح رئيس الحكومة الشمالية، كما زادت أقبية التعذيب في دمشق والمزة. وينسب إليه استعمال الأسيد في تذويب أعدائه، البعض يدافع عنه بالقول: إنّه لم يفعل ذلك بيده!

٨ ـ عبد الكريم النحلاوي: قام بالانفصال عن مصر، بحكم موقعه في الجيش في صباح ٢٨ / ٩ / ١٩٦١

بعد أن شعر أنّ السرّاج يعدُ لتلك الخطوة لينفرد بالحكم، وقد استغل السراج الانفصال وأنزل المخابرات إلى الشارع لتنادي به زعيماً، وجرى توقيفه حينها في سجن المزة.

٩ ـ **جاسم علوان**: أخمدت حركته لإعادة الوحدة في مهدها.

١٠ ـ **زكي الأرسوزي**: مفكر سوري، من مواليد ١٩٠٠ ـ في اللاذقية على الساحل السوري. درّس مادة الرياضيات في إنطاكية، تعلّم الفرنسية وقرأ بها إلى جانب التراث العربي. من مؤلفاته ـ العبقرية العربية في لسانها، رسالة اللغة، اللسان العربي.

١١ ـ **أدهم مصطفى**: مدرس لمادة الجغرافيا في ثانويات حلب، ممن أسسوا حزب البعث وانقلبوا إلى الوحدوي الاشتراكي، اعتقل أيام الانفصال.

١٢ ـ **أديب النحوي**: كاتب سوري قاص وروائي، حصل على شهادة الحقوق عام ١٩٥٩، انتسب إلى حركة الوحدويين الاشتراكيين وبقي فيها حتى عام ١٩٦٤، اعتقل أيام الانفصال.

١٣ ـ **ميشيل عفلق**: مؤسس حزب البعث مع صلاح الدين البيطار، بعد أن أخذا فكرته عن زكي الأرسوزي وجلال السيد أول من وضع

الأسس للحزب، درس في السوربون، عمل مدرساً للفلسفة في التجهيز الأولى في دمشق بعد عودته من فرنسا. اعتقله حسني الزعيم في فترة حكمه فأعلن اعتزاله السياسة طلباً للعفو والخروج من السجن. عام ١٩٥١، أعلن اندماج حزبه (البعث) مع حزب أكرم الحوراني (العربي الاشتراكي) وأصبحا حزباً واحداً.

١٤ ـ **فايز إسماعيل:** مؤسس حركة الوحدويين الاشتراكيين، وأحد الخمسة الأوائل الذين شكّلوا حزب البعث في حلب.

١٥ ـ **إنعام المسالمة:** طبيبة أسنان، كاتبة وروائية سورية من مدينة درعا، لها مجموعة قصصية ورواية.

١٦ ـ **جان الْكُسَان:** كاتب سوري من مدينة الحسكة.

١٧ـ **فاتح المدرس:** من أبرز الأسماء في الحركة التشكيلية في سوريا، رسام له أسلوب مميز وخاص.

١٨ ـ **سعد الله الجابري:** أحد أكبر المجاهدين السوريين أيام الاحتلال الفرنسي، توفي في فترة رئاسة القوتلي، وسميت إحدى الساحات في حلب باسمه.

١٩ ـ **عبد الرحمن عطية:** يقال عنه إنّه موسوعة إسلامية متنقلة، انتمى إلى الناصريين بعد أن كان في حركة الإخوان المسلمين، كان مدير المعارف في قطر، اعتقل أيام الانفصال.

٢٠ ـ **محمد حيصو:** القائد الفعلي لحركة الوحدويين الاشتراكيين في حلب، اعتقل أيام الانفصال.

٢١ ـ **عصمت هنانو:** ابن المناضل قائد ثورة الشمال إبراهيم هنانو، سجن أيام الانفصال.

٢٢ ـ **عماد الحراكي:** سياسي ناصري من مدينة المعرة. اعتقل أيام الانفصال.

٢٣ ـ **عمر قنوع**: فنان سوري، رسام وممثل، كان مدرسا لمادة الرسم في مدرسة الطائي الابتدائية، مثّل مسرحية الحلاق في مدينة درعا في الوقت المشار إليه في الرواية.

٢٤ ـ **كوهين**: أخطر جاسوس زرعته إسرائيل في سوريا، وهو يهودي من أصل حلبي، دخل سوريا على أنه تاجر في الأرجنتين باسم كامل أمين ثابت، عرف بعلاقته المتينة مع العقيد أمين الحافظ (حين كان ملحقاً عسكرياً بالسفارة السورية بالأرجنتين).

٢٥ ـ **أمينة السعيد**: كاتبة وصحفية مصرية، كان لها زاوية ثابتة في مجلة المصور بعنوان "اسألوني".

صدر للكاتبة:

- **جذور ميتة**، مجموعة قصصية. دار سعاد الصباح الكويت ٢٠٠١
- **جبل السماق**، سوق الحدادين. رواية. دار فصلت. حلب ٢٠٠٤
- **ذاكرة الرماد**، رواية. دار الحوار. اللاذقية ٢٠٠٦

لمراسلة الكاتبة على البريد الإلكتروني: ibtesamtr@hotmail.com

يقول المهندس يحيى القضماني حول فكرة الجائزة:

« راودتني هذه الفكرة منذ أول يوم غادرت فيه أرض الوطن الحبيب، الذي منحني فرصة المشاركة في فعالياته كشاعر ناشئ ، بينما حرمتني الغربة من الاستمرار في هذا المجال، وجعلتني أسعى في مجالات الحياة الأخرى، لكن هذا الهاجس لم يفارقني أبداً مما دفعني إلى التفكير في إعطاء الفرص لمن يستحقونها، خاصة الذين يحملون راية الإبداع الثقافي. إني أحترم الفنون بأشكالها كافة فأصحابها لا